الترك فى موكب الحضارة
(١)

إطلالة على ثقافة الترك وحضارتهم القديمة

إعداد
الأستاذ الدكتور
الصفصافى أحمد القطورى

القاهرة
١٤٢٧هـ = ٢٠٠٦م

الطبعة الأولى:

اسم الكتـــــاب / إطْلالَةٌ علَى ثَقافَة التُرك وَ حَضارتِهم القَديمَة .

المــــــؤلف / الصَفْصافي أحمْد المرسي القَطُوري ...

سـنة التأليف / ١٤٢٦ هـ = ٢٠٠٥ م

المطـــــبعة / مطبعة النسر الذهبى

رقم الإيداع / ٢٠٠٥/١٨٠١٩

الترقيم الدولي / I.S.B.N. :
977- 04 - 4765 -X

الإهـــــداء

بسم الله أبدأ

و برَحْمتِه أتشَبث

و بعَوْنِه استعين

و أقـــدّم

إلــــــى

كُلّ مَن أَحَبَّ وطَنَهُ ... فقَوْميته ... فأمتهُ فحضارَتهَ .. و سَعى جاهداً ...
قدر طاقَته .. لرِفْعتِهم ..

إلـــى

كُل مَنْ استَأنس فرساً .. أوْ غرَسَ غَرساً .... و عَبَثت أنامِله في الوبَرَ ..
و الحَجر ... ليصنع فناً .. تتوارثه الأجيال .. حتى وصل إلينا شامخاً ..

إلـى

كُلَّ مَنْ قدَّم إلي أجيالنا بَسْمَة النصر .. و زَهْوَ الفخار .. و عزة الأمة في يوم
الانتصار .. رمضان / اكتوبر العظيم .. أُقدّم هذه المحاولة ...

المؤلف

المُقدّمـة

إن التديُن فنّ .. و الفن تَدَيُّنٌ .. فعلى تراب آسيا الوسطى نشأ فن قديم منطلقـاً مـن وعي ديني .. قام المعبد بفنونه كلها في حِضن الدين .. إن فن النحت .. فن التشكيل .. فـن الرسم و التلوين .. إنّ الفنونَ كُلَها هي تفسير للدين و مقدّمة لَجَنَّةٍ .. إنَّه هـو الـذي يُـوقظ الرُّوحَ ، و يفتحُ القَلْبَ لتلقي روائع المعاني ؛ لتطرح في النفس ورْداً .. فالفنُ هو فيض النفس الحقيقية .. و بخاصة حين يقف بعض أقوام من البشر أمام الدين عند معنى الخوف من العقاب و الرهبة من الحساب .. و الفزع من النار والأرواح الشريرة .

إن الفن ... يُعلِّم الصمت البليغ .. إن مُتأمل الفن كتأملِ العابد ... إن مُتَـذوِّق الفـن يترشفه في سكون و استغراق و ابتهال .. إن المتأمل في الفن يسمع فيه صوتَ اللَّون و نَبْضَ الحركة .. وهفهفة النسيم .. و هو يُحرك الغُصن المرسوم .. المتأمل للفن يسمع فيه صـوت نفسه الآتي من أعماق أعماق نفسه .. إن المتأمل للفن لا يستمع للصخب الكثير المنبعث من حوله .. و ضجيج الحياة التي تكتنفه ...

إن شعوب أواسط آسيا من الترك الرحّل .. عرفوا الدين و الفـن .. عرفـوا الخيـل والأغنام و الطير .. تصوروا الدين في الفن .. و عبروا بالفن عن المعتقدات الدينية .. حملـوا معهم الخيام و السجاد و الفراء و الأساطير و الملاحم .. و عندما توصلوا إلـى الاسـتقرار وحياة المدن لمدد طويلة ، أعانهم ذلك على نضج وجْـداني جمع بين واقعية المعتقدات المتوارثة و المثالية في أعلى مراتب الوعي الروحي المتلائم مـع العصر .. عندما استقروا على ضفاف الأنهار مثل ينيسى و اورخون وسـيحون و جيحـون زرعوا الأرض .. و زرعوا الحجر بعد الأرض فأقاموا الأنصاب و الأزلام ..و نقشوا علـى الحجر فناً و لغةً و ألواناً من الألوان و الأشكال و الكلمات .. فكانـت النقـوش و الطلاسـم والمعابد والأضرحة ..

بنى الأتراك القدماء – بعد المصريين القدماء – من الحجر بيتاً يسكنوه أحياناً و شيَّدوا المعابد ليمارسوا فيها شعائر العقائد.. أبدعوا التماثيل ليروا فيها تجسيداً لمَنْ أحبـوا . علـى الحجر كتب المصريون على ضفاف النيل . و الأتراك القدماء على ضفاف اورخون والينيسى كتبوا أمجادهم بلغاتهم .. و منه رفعوا النُصُبَ و المسلات .. حولوه إلى أحجار كريمة حـين نقشوه بفصوص الحكم ، و رَوَوْه بالمعاني و زينوه بالسير و الملاحم .. وَشْوَشُـوه وجمَّلـوه بأسرار الانتصارات و التحنيط و الفن و الفلسفة و الحكمـة و أسـرار الـدين و العقائـد .. فصارت الأحجار الصماء مصدراً للتاريخ .. و مخزناً للثقافات ، و مظهراً للحضارة .

الفنون التركية القديمة فيها قوة الخيل .. و سطوة القنص و رغد الحياة .. فيـه مـن ذُخْرِ الزهرة و مَعَاني النَعمَة الشيء الكثير .

إن النقش أو الرسم لغة خاصة ... الفراغات فيها متـنفس يعكـس صـفاء السـماء وعبوسها في أواسط آسيا المترامية الأطراف .. الفراغات نفسها فيها سكون الابتهال و سلام الخشوع و طمأنينة النفس المبتهلة ..

إذا كان الفن المصري و حركاته فيها رهافة وجدانية ، ورفه حضاري ...... و تَشِيعُ فيه الوداعة التي هي من سمات الزراعة الرقيقة .. الصَّبُورة .. اللَّطيفة المعْطاءة .. فإن الفن التركي فيه إلى جانب ذلك القوة .. الحركية .. القنص .. اللهو .. الفن الآسيوي شـأنه شـأن الفن المصري فن دافئ مُفْعَم بالعواطف يحلو له أن يصوِّر الأم الحانية .. الأمهات مـن كـل ذوات الروح تُدَافع عن وليدها .. بل لإدراكه لقيمة الأُمُومَة يضعها في مقدمة الصورة .. وفي مقدمة القطيع صغير الحيوان الذي يسير في المقدمة حتى يكون الصغير حافزاً للأم و لبقيـة القطيع على السير و التقدم .. فتسير الأمهات منقادات .. بل يسير القطيع كله خلفها منقاداً .. و ينطلق تلقائياً .

إن العلاقة بين الرجل و المرأة في تـراث أواسط آسـيا هي عـلاقة تـآزر وتعاضد .. يعيشان معاً .. يحكمان معاً .. بل و يُدْفنان معاً .. الحفريات الحديثة أمدتنا بذلك ... و إذا كانت المرأة في الأساطير ساحرة .. فهي في الواقع زَوْجة .. حَظِيَّة حبيبة مُلْهِمة ... تحكـم أسرتهـا و شعبها جنبـاً إلى جنب مع الخاقان و الخان و السلطان .

أواسط آسيا أو آسيا الوسطى شـبه منحرف تحدُّه من الجنوب جبـال الهمالايا و من الجنوب الغربي هضبة البامير و من الغرب جبال تيان شان و من الشمال جبال الآلتاي و من الشرق جبال كنجان و كوكو نور .

ستة ملايين كيلومتراً مربعاً هي مساحة آسيا الوسطى الممتدة بين هذه الحدود .. هي في مجموعها جبال وهضاب جعدة و منخفضات متهادية .

و إذا ما استبعدنا الصينيين الذين يقطنون آسيا الوسطى لوجدنا أن العنصـر التركـي والعنصر المغولي الوثيق الصلة بالعنصر التركي هما اللذان يسكنان هذه المناطق و يعمرونها و العنصر التركي بالذات هو محل هذه الدراسة .

لقد كانت دراسات أواسط آسيا حتى أواخر القرن التاسع عشر ، بل و قبيـل نهايـات النصف الأول من القرن العشرين تقنع في تناول هذه المنطقة ثقافياً و حضـارياً بمـا رواه الرحّالة من الصينيين و العرب و الأوربيين و بخاصة البيزنطيين منهم [١].

و بكتب الجغرافيا التي حرَّرها الجغرافيون العرب ابتداءً من القرن التاسع الميلادي

١- سأورد هناسعياً وراء الفائدة أهم هذه الرحلات ، نقلاً عن مقدمة تعريب أ. د / أحمد السعيد سليمان لكتاب " تاريخ التـرك فـي أسيا الوسطى " ، تأليف المستشرق الروسي و . بارتولد . و المطبوع في القاهرة ١٩٥٨ م .

١- أهم الرحلات : أ- رحلة أحمد بن فضلان الذي جاب بلاد الترك في سنتي ٩٢١ – ٩٢٢ . و نشر نصها العربي العالم التركي أحمد ذكي و ليدي . ب – رحلة أبي دلف ؛ و بها قسم خاص بالترك . جـ – رحلة ابن بطوطة (١٣٢٤ – ١٣٥٣) . د – رحلة غياث الدين النقاش (بالفارسية) و عنوانها " سفر نامة چين ،، و كان غياث الدين عضوا في هيئة أوفدها شاهيخ إلى الصين سـنة ١٤١٩ م.

أما الرحلات الصينية فهي :

١- رحلة هيوان – تسانج و هو راهب صيني ذهب إلى بلاد الـگوك تورك و هو في طريقه إلى الهند عام ٦٣٠ م . ٢- رحلـة تسانج تسونج و هو راهب أيضاً و قد زار بلاد تركستان بينما كان جنـگيزخان يُغير على المناطق الغربية منها .

و الرحلات الأوربية هي :

١- رحلة بلانو كاربيني و قد أوفده البابا أنوسان الرابع إلى قاراقورم ١٢٤٥ – ١٢٤٦ م. ٢- رحلة روبروق وهـو أيضـا قسيس أوفده لويس التاسع سنة ١٢٥٣ م إلى قاراقورم أيضا . ٣- رحلة ماركو بونو (١٢٧١ – ١٢٩١) و هو تاجر بندقي سافر إلى بلاد المغول . ٤- رحلة قلاويخو الأسباني ؛ و قد أوفده ملك قسطلة لزيارة تيمور في سمرقند.

حتى القرن الثالث عشر[٢] و بكتب التاريخ العربية و الفارسية[٣]، ثم بما صـنف الأوربيـون آخذاً عن هذه المصادر .

٢- أهم الكتب الجغرافية :

- كتاب المسالك و الممالك لابن خرداذبة (٨٤٠).
- كتاب البلدان لأحمد بن اواضح اليعقوبي كتبه (٨٩١) .
- أخبار البلدان لابن الفقيه الهمداني (٩٣٠).
- المسالك و الممالك للأصطخري (٩٥١).
- المسالك و الممالك لابن حوقل (٩٧٦).
- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم لمحمد بن أحمد المقدسي (٩٨٥).
- تحفة الألباب لأبي حامد الأندلسي الغرناطي (١١٦٢)
- معجم البلدان : ياقوت الحموي ت ١٣٢٩
- تقويم البلدان لأبي الفدا
- مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ت ١٣٤٨ . و الأجزاء الخاصة بالترك هي الأجزاء الثلاثة الأولى

٣- أهم كتب التاريخ :

- فتوح البلدان للبلاذري ت ٨٩٧
- تاريخ الأمم و الملوك للطبري ت ٩٣٢
- مروج الذهب لعلي بن الحسين المسعودي ت ٩٥٧
- تجارب الأمم لابن مسكوبية بن ت ١٠٢٩
- كتاب البدء و التاريخ لمظهر بن طاهر المقدسي ، ينتهي بتاريخ حوادث (٣٥٠ هـ = ٩٦١) و قد عني بالحديث عـن عقائد الترك و عن تقاليدهم .
- التاريخ الكامل لابن الأثير ..
- تاريخ مختصر الدول لأبي الفرج جريجوريس بن العبري (ت ١٢٨٦)
- زين الأخبار (فارسي) لأبي سعيد عبدالحي الكرديزي (١٠٤٠)
- أبو الفضل محمد بن حسين البيهقي ت ١٠٧٧ ، تاريخ بيهقي (فارسي)
- تاريخ بخاري (فارسي) لأبي بكر محمد بن جعفر الزشخي ت ٩٥٩ .
- تاريخ بيهقي ؛ لأبي الحسن على بن زد البيهقي بن فندق ت ١٦٩ .
- تاريخ جهانكشا لعطا ملك الجويني ت ١٢٨٣ . جامع التواريخ لرشيد الدين بن أبي الخير الطبيب ت ١٣١٨
- ذيل جوامع التواريخ للطف الله حافظ أبرو (١٤٣٠) .
- المحقات لجمال الدين أبي الفضل بن محمد القرشي ....
- ظفر نامة لنظام الدين الشامي .. (بالفارسية).

و لكن المعلومات عن أواسط آسيا ما لبثت أن زادت و تعمقت و تشعبت ، و ذلك بفضل البعثات الأثرية و الحفريات التي تمت في مختلف مناطق أواسط آسيا و غيرها من المناطق التي كان يقطنها الترك .

كان أكبر نصر أحرزته هذه البعثات هو تمكن العالم [طومسن Thomsen] من اكتشافات نقوش اورخون و حل رموزها منذ منتصف القرن الـ١٩ . كما كان للعالم الروسي بارتولد (١٨٦٩ – ١٩٣٠ م) دور بارز في إلقاء الضوء على تاريخ أواسط آسيا . فقد أوقف حياته لدراسة المنطقة الممتدة من بحر قزوين غرباً إلى منغوليا شرقاً وعن هذه المنطقة كتب معظم مؤلفاته.

الدراسة التي بين أيدينا محاولة متواضعة لإلقاء الضوء على دول الترك وإمبراطورياتهم ؛ منذ أن كانوا قبائل و تسموا بالترك حتى تمكنوا من إقامة دول وخاقانيات و إمبراطوريات ، و إلى أن واصل امتدادهم الزحف نحو أوروبا . ثم كان الحديث عن أهم عناصر الثقافة التركية و حضارتهم ممثلة في نقوش اورخون و التعريف بها . دون الدخول في محتوياتها بالتفصيل .. و حل رموزها اللغوية .. ليقودنا الحديث إلى اللغة التركية و لهجاتها و الأبجديات و الخطوط التي عرفتها واستخداماتها ، ثم ننطلق من اللغة إلى الأدب بفرعيه الشفاهي و المكتوب و أهم الملاحم و السير المرتبطة بالترك

و لما للدين من تأثير على العادات و الأعراف و المراسم والمأثورات فقد كان الحديث عن المعتقدات الدينية و كيف انعكس ذلك على الفنون بشتى أنواعها ، وروافدها انطلاقاً من المسكن إلى المعبد إلى التحنيط إلى النحت ، سواء أكان ذلك في الخشب أو الحجر أو الرخام أو المعدن .

لقد حاولت – بقدر الإمكان – أن أزود الدراسة ببعض الصور اللازمة للتوضيح و لمّا كانت هذه الصور منقولة عن كتب أخرى ، فربما لا تتسم بالوضوح الكامل

- عن هذه المصادر ، انظر :

تاريخ الترك في آسيا الوسطى ؛ تأليف المستشرق الروسي . و . بارتولد . ترجمة الدكتور / أحمد السعيد سليمان (بدون).

المطلوب ،و لكن حسبنا أنها محاولة للفهم و إلقاء الضوء على موضوعات أظنها لم تُدرس بعد و لم تلق ما يلزم من الاهتمام حيث إنها تُلقى الضوء و تُنير منابع المعرفة عن شعب

، أو لنقل عن شعوب كان لها نصيب وافر في مواكب الحضارة العالمية بعامة و الحضارة الإسلامية بخاصة.

لا أستطيع أن أدعي أن الدراسة جامعة مانعة ، أو شاملة و مشتملة على كل الموروث الثقافي و الحضاري للشعوب التركية التي قطنت و تجولت في أواسط آسيا وحتى شمال شرق أوروبا ، بل كل المأمول أن نوقظ الوعي بالحضارات المجاورة .. والمعاصرة لحضارتنا المصرية القديمة .. و نُشير إشارة العرفان بالفضل للشعوب الأخرى التي ساهمت معنا في رفع لواء الحضارة الإسلامية عبر العصور ..

و حتى لا تتداخل الأمور ، أو تَتيه العقول ، أو تَتُوه في خضم المصطلحات فقد رأيت أن أضع مدخلاً للدراسة للتفرقة بين الثقافة و الحضارة ،

و حتى يعي الأبناء – أننا في الوقت الراهن ..– لسنا في صراع حضارات ، بل إن الحضارات تتحاور.. تتكامل و إن كان لابد من التصادم ؛ فإن مرد ذلك إلى صراع الثقافات ، و المنافع الآنية ، ورغبة الحرص و الطمع و التملك التي تُسيطر على بعض من ساكني كوكبنا الفسيح المترامي ..

ثم أعقب ذلك الحديث عن دول الترك و امبراطورياتهم التي شهدها التاريخ مترتبة حسب ظهور كل منها إلى قبيل ظهور الإسلام ودخولهم إلى ساحته ثم أعقب ذلك الحديث عن بدايات اللغة التركية ونقوش أورخون و الأسرة التي تنتمي إليها والسمات المشتركة بين اللغات المنتمية إلى أُسرة اللغات الأورالية الآلتائية . و أنتقل الحديث من اللغة و الأبجديات إلى الأدب الشفاهي من أساطير وملاحم وسير وضربنا مثلاً بسيرة البطلّ آلبامیش " و التي انتقلت من الأدب الشفاهي إلى الآدب المكتوب و التي سادت بين كل الأقوام التركية . ثم جاء الحديث بعد ذلك عن مفهوم الدين عند الأتراك ودياناتهم القديمة التي يُظن أنهم أعتنقوها ؛ كالطوطمية و الشامانية و بينت الدراسة أثر الدين على الفنون التي أبتدعوها .

ثم كان المبحث الخامس مخصصاً للفنزن التي أبتدعتها أنامل الترك في آواسط آسيا حيث حولت الوبر و أدوات استخدمزها في حياتهم اليومية و حروبهم و غاراتهم التي كانوا يتقون بها هجمات الصين و المغول و حتى عشائرهم و بني جنسهم .

وقد تم تدعيم كل ذلك بالصور التي تغني عن التطويل في الشرح مستعينا بكل ما توفر في الكتب المتاحة بهذا الصدد . و كان الإعتماد الأوفر على الكتب التالية بالغة التركية :

1- Hun Sanatı , Nejat Diyarbekirli, Birinci Baslılış, Devlet Kitaplari, Eğittim Basımevi – İstanbul 1972 .
2- Tarihte Türk Devletleri, I, Ankara Üni. Rektörlüğü Yayinla : 98 . Ankara, 1987 .
3- Oktay Aslanapa, Türk Sanatı -1-Başlangıcından Büyük Selçukluların Sonuna Kadar . Devlet Kitapları, Milli Eğittim Basımevi, İstanbul 1972 .
4- Oktay Aslanapa, Türk Sanat.I -2- Anadalu Selçuklularından Beylikler devrinin Sonuna Kadar, Devlet Kitapları, Birinci Basıllış, .Milli Eğittim Basımevi, İstanbul, 1973 .

لقد كانت هذه الدارسة محاولة للبحث عن حقيقة ما يتـردد حـول التـرك و فروسـيتهم وأعرافهم و مراسمهم و عن تدينهم بديانات تمثلت في الطبيعة التي حولهم ... و السـماء التـي تظلهم ... و عن الإله الواحد الذي يقطن في السماء العليا ... و عن الـ (قام) أو الـ (شامان) الذي يفسر لهم العوالم التي تلفهم و كيف انعكس ذلك على مفردات حضاراتهم ... ؟ و هل حقـاً ما يتردد حول اعتناق الترك لمعتقد الإله الواحد هو ما سهل إنتشار الإسلام في عصوره الأولـى في كل ربوع أواسط آسيا على أيدى أمراء ورؤساء عشائرهم و أن قبولهم للقام و الشامان هو ما هيئ نفوسهم للقبول بالرسل و خاتم الأنبياء الذي أحبوه .. و بجلوه و أوصلو راية دعوتـه إلـى مكان وطأته أقدامهم و تركوها عالية خفاقة فـي أيـدي أجيـالهم الـذين أعقبـوهم كالسـلاجقة والعثمانيين ... و قاوموا بها إلحاد الشيوعيين حتى عادت إليهم حريتهم .. و عقيدتهم ...؟

أمل أن تجد الصرخة الصدى المأمول و على الله تحقيق المرام

أ . د / الصفصافي أحمد القطوري

أرض الجولف – مدينة نصر

غرة شعبان ١٤٢٦ – هـ الخامس من

سبتمبر / أيلول ٢٠٠٥ م

المدخل

الثقافة و الحضارة و ما بينهما من تداخل

* – العناصر المكوَّنة للثقافة ...

* – مكوَّنات الحضارة ...

* – رأي ويل ديورانت حول الثقافة و الحضارة ...

* – التغيرات الثقافية ...

* – الحضارة و الثقافة القومية ...

* – ما هي الأسس التي تقوم عليها الثقافة ...؟

* – تكامل الثقافة القومية ...

* – استمرارية الآثار الثقافية و حمايتها ...

* – ما هي الوظائف المنوطة بالفرد و الدولة في تطوير الثقافة ...

المدخل:

الثقافة .. و الحضارة

ومـــا بينهما من تداخـــــل

يشهد العالم في الوقت الراهن ، مع بدايات القرن الحادي و العشرين ، أزمة . بـل دعونا نَقـُلْ مجموعة من الأزمـات . . من أهمها مـا يطلق عليه الآن الصـراع الحضاري . . و اختلفت الآراء ، ووجهات النظر . . هل هو صراع اقتصادي؟.. هـل هـو صـراع سياسي؟.... هل هو صراع اجتماعي؟.. أم هو صراع ثقافات و ليس صراع حضارات ؟ هل ما يدور الآن هو عودة إلى مرحلة الصراع الاستعماري الذي شاهده العالم في القرن الثـامن عشر و التاسع عشر و بدايات القرن العشرين ؟.. أم هو الصراع الفكري الذي تخلـف عـن مرحلة الحرب الباردة بين القطبين الكبيرين خلال مراحـل القـرن العشـرين؟.. أم نقولهـا صراحة.. إنها عودة إلى الحروب الصليبية التي جرت باسم الدين . . و الدين منها بريء . ؟

إننا لا نملك أدوات الحكم القاطع و لا نجـزم بماهيـة الـدوافع دون بحـث . . واستقصاء . . و لكن ما نملكه و ما هو ميسر لنا هو أدوات البحث العلمي . . ونترك للقارئ نفسه استخلاص . . أو استنباط تلك الدوافع . . و ستكون اللغةُ . . ومفردات اللغة هي أولى مفردات هذا البحث ، مركزين القول حول الثـقافة . . والحضارة ، و العناصر المكوّنة لكل منهما . . و الفوارق التي تفصل بينهما . . وما هي الآراء المطروحة حول الثقافة المادية . . و الثقافة المعنوية . . أي الروحية ؟ وما قول ولديورانت بهذا الصدد ؟ و هل يمكـن أن تكون هناك حضارة قومية كما أن هناك ثقافة قومية . .؟ و ما هي الأسس التي يمكن أن تقوم عليها الثقافة القومية . .؟

العناصر المكونة للثقافة :

إذا ما نظرنا إلى المفردات التي تقابل معنى الثقافة في اللغات الأوربية نجدها بالإنجليزية و الفرنسية كما يلي :

و تعني حراثة . . تثقيف . . تهذيب . . ثقافة . . حضارة . . Culture : .
مرحلة معينة من مراحل التقدم . الاستنبات . . زرع البكتريا أو الأنسجة الحية .

الدراسة العلمية . . المستنبت . . فتعني : ثقافي . . مستولد . . Cultural
محدث بالاستيلاء

فهي : مثقف . . مهذب . . مستنبت . . Cultured :

فمعناها : يحرث . يفلح . . و بخاصة حول النباتات Culture :.
المزروعة . .
يتعهد النبات . . بالعناية . . يهذب .. يصقل . . يرعى . . يُشجع ، يكرس نفسه لفن مثلاً

فمعناها:محروث .. متعهد.. منشأ بالعناية أو التعهد . . يهذّب .. Cultivated
مصقول
حراثة . تعهد ..تهذيب . . رعاية . .

إذا كان هذا المعنى في الإنجليزية . . فلو نظرنا في معانيها في اللغة الفرنسية لوجدناها أيضاً كما يلي :

تعني : زراعة . . فلاحة . . تربية . . ثقافة Culture
تعني : مزروعة . . مثقف . . مهذب . . . Cultive
فمعناها : زرع . . فلح . . حرث . . ربى . . . Cultiver

من هذا يتضح أن معظم المعاني تدور حول الزراعة و الفلاحة و التعهد بالتربية والتهذيب و الرعاية بالأرض و البستنة . . و الحرث للأرض و فلاحتها والتثقيف . . والتشذيب . . . و لو أمعنا النظر بعض الشيء حول الحراثة . . و الفلاحة . . والبستنة و الحرث للأرض و زراعتها و تنميتها لأدركنا العديد من المعاني التي تدخل تحت نطاق مفهوم الثقافة . .

فالفلاحة ، و الحرث ، و الزراعة تؤمن الحياة الغذائية للإنسان . .واعتماداً على ذلك . . فلو طرحنا سؤالاً : يا ترى هل المعاني الأخرى التي يحتويها مفهوم الثقافة فيها ما يتصل بالمعاني الحياتية تلك ؟ . . بالنسبة لي . . نعم . . فالزراعة والحرث . . و الحصاد . .

التنمية . . البستنة . . كلها تحمل معاني حياتية فالرسم . و الموسيقى . . و الرقص . . والأزياء و التي لا تتعلق مباشرة بالمأكل و المشرب كانت كلها تتعلق بأمور حياتية في العصور الوسطى . . فهذه الفنون الجميلة لو رجعنا بها إلى الوراء قليلاً لوجدنا أنها تتعلق بالعناصر الحياتية التي تعيش فيما تحت الشعور . . . كلها تتعلق بالرغبة في الحياة والنماء . . و الخوف . . و الموت . .

فأغاني المطر . . و الحصاد . . و دعاء الاستسقاء . . و الرقص حول الصيد والشواء ، أليست كلها أمثلة واضحة تبين تلك العلاقة التي بين الموسيقى و الزراعة و الحصاد ؟ . و دعاء الاستسقاء و تمني نزول المطر . . ألا يظهر العلاقة بين الدين و الفلاحة و النماء منذ القدم ؟.. و الدين .. ألا يهتم هو الآخر بميلاد الإنسان وتغذيته .. و تهذيبه .. و تشذيبه ..و حمايته .. و رعايته عن قرب ؟..

و لما كانت الزراعة تخضع للظروف الطبيعية و مرتبطة بها . . فإن بني البشر على مر الأجيال قد أضافوا من الفعاليات و الأنشطة ما يمكن أن يدخل في نطاق مفهوم الثقافة . .

فالمسكن .. و الملبس .. كل منهما يحمل أهمية بالنسبة للإنسان ، لا تقل عن أهمية الغذاء .. فالمسكن و الملبس مرتبطان أيضاً بظروف الطبيعة و شروطها .. فالشتاء .. والصيف .. و الخريف .. و الربيع .. و الجبال .. و الصحراء . .الثلوج والأمطار كلها عناصر تتحكم في نوعية الملبس و المسكن .. و لسنا في حاجة إلى تكرار ما يتعلق حتى بالألوان .. و الثقل .. و الخفة .. و الارتفاع و السمك و .. ما شابه ذلك ، فظروف الطبيعة و المناخ التي تؤثر في ملابس القرويين_ مما لا شك فيه_ تشكل نوعاً من " الفنتازيا " لأزياء . . و زينة سيدات المجتمعيات الراقية في المدينة . .

و ماذا عن تأثير الطبيعة في العمارة . .؟ فمسكن سكان الصحاري يختلف هو وملبسهم عن سكان القطبين في ملبسهم و مسكنهم . . و مباني الغابات _مما لا شك فيه _ تختلف عن المناطق الأخرى . . فبينما الأولى من الأخشاب ، فإن الأخرى من الحجارة والدبش و الآجر ..

و كما أن حياكة الملابس . . و إقامة المبنى . . وزراعة الأرض و فلاحتها تعتمد على عناصر مادية حياتية و تحتاج إلى التعليم ، و التدريب ، و التعلم ، و الآلة فإنها بنفس القدر في حاجة إلى مراسم . . و تشكيلات و تنظيم متدرج . .

و مع أن عناصر الفلاحة . . و البناء . . و الملبس التي اندرجت ضمن مفهوم الثقافة تعتمد في المقام الأول على المادة و عناصرها . . فإنها تهتم عن كثب بالمناسبات والعلاقات الاجتماعية و القيم المعنوية .

كانت كل المهن في العصور الوسطى تعتمد على فكرة الملازمة بين الأسطى والصبي ، وعلى العلاقات الاجتماعية التي تتحدد بين أهل و أرباب المهنة الواحدة . وكانت كلها تهتم عن قرب بالقيم الأخلاقية و الدينية . .

إن العادات ،و التقاليد ، و الأعراف تلعب دوراً مهماً في حياة البدو الرحل الذين يربون الماشية . . و الذي يحدد تلك العادات و الأعراف ليس الزرع و الحصاد بل الحيوانات و أعدادها . . فالبدو و الرحل يعرفون أنساب خيولهم و نوقهم و يفتخرون بها . . و قد أضافت إليهم قطعانهم مفردات و مفاهيم تتعلق بثقافاتهم .

إن البذور الموضوعة في الحقل تحتاج إلى صبر .. و دقة و رعاية و عناية . والقمح لكي يُصبح خبزاً على المائدة يحتاج إلى مجموعة كبيرة من الأنشطة .

و كل شيء يدخل إلى ساحة الثقافة كالشجر . . و الحجر . . الجلد . . و الوبر . . والمعدن . . و الصوت و الصدى و الفكر . . . كلها كالقمح ، تحتاج إلى غربلة ... و تنظيف و طحن ، و حفظ ، وعجن و أشغال توصلها إلى حالة مقبولة ، و مستفاد منها . . فبينما نبحث في دور الشاعر الذي نَظَم أبياتاً جميلة . . فنحن نقول : إنه صقل مفرادته واختارها بعناية كالصائغ الذي أجاد نظم عقوده " . . و الواقع أن نظم الشعر الجيد لا يقل في جهده عن منح الحديد أو النحاس أو الجرانيت شكلاً جمالياً . . فالشاعر ربما يقضي وقتاً أطول من النّحات ، أو المثّال في صياغة مقطوعته الشعرية

إن تعهد الإنسان لنفسه جسداً ، وروحاً . . و ذهناً . . بمختلف الوسائل و الوسائط يُسمى ثقافة أيضاً . . فكما أن بني البشر يتعهدون كل شيء يستخدمونه في حياتهم اليومية . . فإنهم أيضاً يتعهدون الفنون الجميلة و اللّغة و الآداب بالعناية والرعاية . . و جميعها نتاج الحاجة ، و الرغبة ، و الحب ، و الجهد و الدقة . . و كلما كانت الأعمال

الثقافية تلبي مطالب الإنسان المادية ، و المعنوية ، و كلما كانت جميلة ومفيدة . . فهي ذات قيمة . . و تنشئة إنسان مثقف ، و رعايته في تراثنا الإسلامي ، هذا بمثابة العناية ببستان ، أو حديقة غناء . . أو العناية بكائن جميل ذو قيمة تراثية . .

إن العنـــاصر التي تصنع الثقافة ، كلما كانت جميلة . . و نافعة . . و مفيدة ، و مغذية و حــامية . . و مُسعدة . . و مُعَظمّة يتـم حِفْظُها . . فتــقام لها المخازن و العنــابر ، و المحــلات . . و الأرشيــفات . . و المتــاحف . . و المعارض .. و الكتب و المكتبات ، و تملأ و تشحن بكل العناصر المادية و المعنوية التي يحتاجها الإنسان . . إنها تشكل أقيم الخزائن التي يمكن أن يخلّفها بني البشر و تتوارثها الأجيال . . جيلاً بعد جيل . . إن الأمم تكتسب قيمتها و مكانتها وفقاً لما تمتلكه من عناصر مادية ومعنوية ذات قيم ثقافية رفيعة . . فالأمم ذات العنابر المليئة و تكون بطونها شبعة . . وظهورها محميّة . . و تزداد قوتها كلما اكتظت مخازنها بالأسلحة و الذخيرة . . . والأمم ذات الأجسام و العقول السليمة هي أمم ذات قلوب ، و مشاعر وروح سامية مما لا شك فيه

إنَّ تعــداد العــناصر الثقافية التي تشملها معطيات الإنسان المادية و المعنوية و ما يترتب عليها من نتائج أمر في غاية الصعوبة . . و ما زاد من هــذه الصــعاب هــو تداخــل العناصر الحياتية في بعضها البعض . . و لكن مهما كانت الأمــور معقدة . و المشكلة صعبة . . فيمكن أن نقسم هذه العناصر الثقافية إلى مجموعتين ، دون أن نغفــل الترابط أو التداخل فيما بينهما ؛ فهناك العناصر الثقافية الماديــة . . و العناصــر الثقافيــة المعنوية ، فالعناصر المادية من مأكل و مشرب و مأوى و ما شابه ذلك من موجودات تغطي الاحتياج اليومي للإنسان هي ما نطلق عليه " الثقافة المادية " .. أما الــدين . . والفــن . . والأعراف . . و اللّغة . . و الأدب و العقيدة . . و القانون . . و العلم والفلسفة و بشكل عام الأنشطة و الفعاليات الثقافية التي تتعلق بالنواحي الروحية و المعنوية والخيالية فإنها تشكل " الثقافة المعنوية ".

وكـــما سبقت الإشارة فـــإنه من العســـير بمكان الفصل بين العناصر المادية و المعنوية في حياة بني الإنسان . . فالموسيقى مثلاً ، تدخل في نطاق الثقافة المعنوية أي الروحية .. لما لها من علاقة بالروح الإنسانية و لكن الموسيقى في نفس الوقت تنطلق في العناصر المادية الآتية .. مثل البيانو .. و الكامان .. و الناي و الإيقاع . . و هل يمكن أن نفكر في روح بدون جسد . .؟

مكونات الحضارة :

أما الحضارة و مكوناتها فدعونا أيضاً نَعُدْ إلى اللّغة ، فكلمة :- Civil ization ستعني الحضارة . . المدنية . . التّمدّن .. صيرورة الأمة متمدّنة . الشـــعوب المتحضــــرة .. رفعة في الذوق .. أو التفكير .. أو التصرف . .و مشتقاتها :

Civilize = يُحضـِّـر .. يُمـــدِّن .. يُثَقّف . . يُهـــذّب .

Civilized = مُتحضِّر .. مُتمـــدِّن .. لطيف .. مهـــــذب ..

Civilian = المثقف في القانون المدني .. المدني .. كل من ليس بشـــرطي أو عسكري ..مدني .. لطف .. كياسة ..

و في اللغة الفرنسية أيضاً :

Civil = تعني : مدني . . أهلي . . ملكي . .

Civilement = مدني . . بأدب ورقـــة . .

Civilisation = حضارة . مدنيّة . . تمدن . . تهذيب .

Civilise = متمدن . . مهذب . .

Civiliser = مدني . . مهذب . .

Civilite = أدب .. لطف .. مجاملة .. إكرام .. تحية .. احترام.

فمن هذه المعاني المطروحة نجد أن الحضارة . . أو المدنيـــة . . متعلقـــة بالحضـــر والمدينة . . و كل ما يتعلق بهما من نمط حياة أو تفكير . . و إذا كانت الثقافة تتعلق بالحرث و الزراعة . . فإن المدنية أو الحضارة تتعلق بالمدن و الحضر . و إذا كانت الثقافة قوميـــة محلية فإن الحضارة أو المدنية عقلية عالمية ... و لما كانت الثقافة تتعلق بتاريخ الأمة وترتبط

بمؤسساتها فإنها لا تقلد ... أساس الثقافة هو اللغةُ و لـما كـانت اللغة خـاصة بأمة مـن الأمم ؛ فإن عناصر الثقافة الأخرى كالرقص
و الرسم و الموسيقى هي كذلك من خواص الأمم ؛ كل على حده . . و في مقابل ذلـك فـإن العلم و عناصر الحضارة المعتمدة على العقل ، و هي التقنية يمكن نقلها بسهولة من أمة إلى أخرى ، و هكذا تظهر بين الأمم التي قبلت نظماً حضارية متشابهة مـا يمكـن أن نسـميه حضارة مشتركة .

فالعلم و التقنية التي تطورت في الغرب بعد عصر النهضة قد انتشرت في كل ربوع الكرة الأرضية و هكذا ظهرت .. و ترعرعت " حضارة صناعية " تتشابه كل مفرداتها فـي اليابان و الصين .. و الهند و روسيا ..و تركيا .. و مصر. . و مع أن هـذه الأمـم تختلف عن بعضها البعض في اللّغة و التـاريخ و الأعراف و المعتقدات و الأديان .. فـإنّ دروس العلم و مفرداته المطبقة في كل الميادين التكنولوجية كالعلوم الرياضية .. و الطبيعة و الكيمياء و الأحياء كلها واحدة تقريباً .. و حتى الآلات المعملية تكاد تكون هي نفسها في كل هذه الدول .. و كما حدث و أنطلقنا من مفردات و جذور كلمة " Culture فأود كذلك أن أنطلـق مـن مشتقات و مفردات كلمة " Civilization " فكلها تعني في المعاجم المعتمدة .. " الحضارة .. الإقامة في الحضر .. التمدن .. الثقافة .. التمكن من العلوم و الفنون و الآداب .. و المدنية .. الحضارة و اتساع العمران . . و تمدن فلان .. أي عاش عيشة أهـل المدن .. و تنعم و أخذ بأسباب الحضارة . . فهكذا .. إذا كان الحرص أي الثقافة متعلقة بحياة القرية فإن الحضارة أي المدنية .. متعلقة بحياة الحضر و المدن . و التي هي بطبيعتها أكبر من القرية .. و القرية تشكل محيطاً اجتماعيا أضيق كثيراً بالنسبة للمدينة .. في القرية الجميع يعرفون بعضهم بعضاً .. أما في المدن .. كلما كبرت المدينة تحولت العلاقات الاجتماعية بين البشر إلى جمود ، و خمول في العلاقات الإنسانية .. و يصبح الكل غريباً عن الآخر حتى و لو كانوا في عمـارة واحدة ؛ فكلما بعدت المدنية عن الطبيعة زاد الفرق والبون بين القرية و المدينـة .. و بينمـا القروي يؤمِّن مأكله و مشربه من الطبيعة ، فإن المدني يؤمن احتياجاته و متطلباته الحياتيـة من الأسواق التي هي بدورها تؤمنها من القرى عن طريق الوسطاء . أي التجار ..

إن الوسيط أو التاجر لا يعنيه كيفية الحصول على المحصول بقدر عنايته بالنقود التي يكسبها و يشتري و يبيع بها . . فالنقود هي المؤشر عن قيمة البضاعة المباعة أو المشتراة ..

وإذا كان الفلاح يعيش في تلاصق مع محاصيله ، و حيواناته و قطعانه ، فإن التاجر ربما لا يلمس بضاعته و ربما لا يراها حتى مجرد الرؤية .. هو بذلك يكون بعيداً كل البعد عن التعامل مع الطبيعة أو حتى الوقوف على العلوم و المعارف التي تسهل له التعامل معها.. فتعامله هنا تعامل مادي ..

و هكذا .. فإن التفكير المادي قد ولد في المدينة ، و ليس في القرية .. و هو يهتم بالحياة التجارية عن كثب .. فالتاجر .. أو الفاكهي .. أو البقال يهتم بالقيمة المادية للجمادات التي يتعامل معها كالسكر و الدفتر . . و القلم و التفاح و الخوخ و العنب . . إن ما يهمه هو القيمة المادية . .

فالمدينة تهتم بالحياة التجارية و الصناعية . . بينما القرية يكون الاهتمام فيها بالزراعة و النماء و تربية القطعان . . و في المدينة مهن لا يمكن أن نصادفها في القرى . . كالحداد . . و النجار . . و الترزي . . والمطبعي . . و المحاسب .

إن صانعي حضارة المدينة هم أرباب الحرف و المهن . . و ليس التجار و الوسطاء . . فهؤلاء أي أرباب المهن هم نقلة الحضارة . . هم الذين يحولون المواد الخام المستخرجة من الطبيعة إلى أشياء ذات قيمة ينتفع بها بنو البشر . . إن الحياة الحرفية والمهنية التي تنتقل من الأسطى إلى الصبي عبر " القلفة " تتشابه مع الفلاحين في الجانب المادي . . و لكن هناك فارقاً مهماً فيما بين الخامة التي يتعامل كل منهما معها . . فالحيوان و النبات الذي يتعامل معه القروي كالإنسان يلد . . و ينمو . . و يكبر . . ويتغذى . . كلها من ذوات الروح التي تعرف الحياة و الموت . . و العلاقة التي خلقها معها بنو البشر في القرى تختلف عن الحرفي أو المهني الذي يتعامل مع الجلد أو العظم أو الخشب . . فإذا كان الإنسان لا يتدخل إلى حد كبير مع ذوات الروح التي يتعامل معها في القرية . . فإن الحرفي أو المهني يستطيع أن يعطي المادة الخام التي تعامل معها في المدينة الشكل الذي يريده . . فقطعة الجلد يمكن أن تكون حذاءً أو شنطة . . أو جاكتَ . . يُقطّعها . . يمزّقها ثم يعيد تكوينها.

إن الحرفي . . أو التقني يكون أكثر حيوية و نشاطاً أمام الموجودات الجامـدة عنـد الرغبة في تشكيلها أو منحها شكلاً ما . . إنه لا يملك شعور القروي الذي يجد نفسه أسيراً في يد الطبيعة ، و خاضعاً لها . . إن بني جميع البشر على الرغم من أنهم لا يجدون في أنفسهم القدرة على تغيير القمح ، أو الشجر ، أو الحيوان . . فإنهم بالشكل الذي يمنحونه للجمـاد ، يستحدثون أعمالاً لا نظير لها في الطبيعة . . إن القروي الـذي يـزور المدينة لأول مـرة ، تتملكه الدهشـة و الحيرة أمام الأشياء و المباني التي يراها في الشوارع لأول مرة . .

إن الإنسان في المدن الكبيرة يُشيدّ عالماً مختلفاً تمام الاختلاف عن الطبيعة فالأعمـال الفنية و المعمارية و الهندسية التي يستنبطها من الجمادات التي حولنا هي من صنع يديـه . . إن تشكيل الجمادات ، و تصميمها كيفما نريد حوادث في غاية الأهمية . فكما هو الحال فـي الحدادة ، و الخراطة ، و النجارة فإن المواد الخام الجامـدة أمكـن تحويلهـا إلـى آلات . . ومعدات و ماكينات . . و بواسطة هذه الآلات يمكن تشغيلها بشكل ميكانيكي . .

إن الفنون الجميلة ، و المشغولات اليدوية تحمل بصمة و طـابـع من أبدعها ولكـن الأشياء التي تُصنع بالماكينة تكون جماداً . . مغايراً تمام المغايرة للإنسان .

إن الصناعات الثقيلة التي حلَّت الماكينات فيها محل البشر ، دفعت بالإنسان أن يعيش داخل عالم من الجمادات . . و دفعته دفعاً إلى التفكير المادي . . و الإنسان كما أنه هو الذي صنع المعدات التي تُرى . . و تنتج أكثر منه ، هو نفسه أيضاً الذي اخترع الإنسـان الآلـي الـذي لا يـنام ليـلاً أو نـهاراً . . و هـو الذي أوجد الآلات و الحاسبات التـي تفـوق قدرته . .

عندما تُذكر المدنية – في العصر الحديث – لا بد و أن يتبادر إلى الذهن الحياة فـي المدن الكبيرة ، و التي تطورت بفكر و عقل و خيال الإنسان . . و لكنها تطورت مع الـزمن بما يفوق قدرات الفرد وحده ، بل وربما المجتمع . .

إن الثقافة على الرغم من أنها تحمل ماهية التقريب بين الإنسان و الطبيعـة ، إلاَّ أن الحضارة المتولدة عن الوحدة و الاتحاد بين الفكر المادي و الجمادات تحـوز فـي طياتهـا خصوصيات و مميزات مخيفة ، و باردة ، و خطيرة و ظالمة . . ففـي المـدن الكبيـرة ، والمصانع العملاقة لابد و أن يشعر الإنسان بالدونية جنباً إلى جنب مع الدهشة و الانبهار .

و هناك من يربط بين الثقافة و الحضارة . . و لا بد أن تكون هذه الرابطة هي التي تربط بين الحس و العقل . . و تجعل من التعايش بينهما أمراً ممكناً ؛ فالعقل ينتج ما يجعل الحياة مريحة . . و التفكير هادئاً . . و المشاعر فياضة . . و لتصنع الحضارة ما شاءت من مفردات حضارية مادية . . إلاَّ أن الإنسان سيظل منذ أن ظهر على وجه الطبيعة و منذ أن تلده أمه و هو محمل بمشاعر الخوف . . و الرغبة و الحب . . و الشهوة . . و الرضا . . و الجشع . . إنها المشاعر و الأحاسيس التي تحتويها الثقافة .

رأي ويل ديورانت حول الثقافة و الحضارة :

و لنقرأ سوياً تلك السطور التي كتبها و يل ديورانت في مقدمة الجزء الأول من كتابه " قصة الحضارة " و الذي ترجمه د. زكي نجيب محمود و محمد بدران . . و فيها يحدد ملامح الحضارة التي يكتب قصتها : "... و هي أن أكتب تاريخاً للمدنية ، أردت فيه أن أروي أكثر ما يمكن من النبأ في أقل ما يمكن من الصفحات ، بحيث أقص في روايتي ما أدته العبقرية ، و ما أداه دأب العاملين في ازدياد تراث الإنسانية الثقافي . . و أن تكون قصتي مصحوبة بتأملاتي في العلل ، و وصف الخصائص ، و ما ترتب من نتائج لما أصابه الاختراع من خطوات التقدم .. و لأنواع النظم الاقتصادية ، و التجارب في ألوان الحكم .. وما تعلقت به العقيدة الدينية من آمال . و ما اعتور أخلاق الناس و مواصفاتهم من تغيرات .. و ما في الأدب مِنْ روائع .. و ما أصابه العلم من رقيٍّ .. و ما أنتجته الفلسفة من حكمة .. وما أبدعه الفن من آيات ...

الحضارة نظام اجتماعي يُعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي.. و إنما تتألف الحضارة من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية و النظم السياسية ،و التقاليد الخلقية ، ومتابعة العلوم و الفنون .و هي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب و القلق .. لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف تحررت في نفسه دوافع التطلع ،و عوامل الإبداع والإنشاء. و بعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهضه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة و إزدهارها ...؟؟ و الحضارة مشروطة بطائفة من العوامل هى التي تستحث خطاها أو تعوق مسيرها .. وأولها العوامل الجيولوجية .. فتيار الجليد .. و شيطان الزلازل ربما تطمس منشآت الإنسان بركام من ثلوج أو أحجار ..أو يبتلعنا في جوفه غير آبه .

و ثانيها .. العوامل الجغرافية : فحرارة الأقطار الاستوائية لا تهيئ للمدنية أسبابها ... والمطر كذلك عامل ضروري إذ الماء وسيلة الحياة .. و عليه فإن العوامل الجغرافية على الرغم من أنها يستحيل أن تخلق المدنية خلقاً ، فإنها تستطيع أن تبتسم في وجهها .. و تهيئ سُبل ازدهارها .

و العوامل الاقتصادية أهم من ذلك ؛ فقد يكون لشعب مؤسسات اجتماعية منظمة ، وتشريع خلقي رفيع .. بل قد تزدهر فيه صغريات ، كما هي الحال مع الهنود الأمريكيين ..وقد تكون قبيلة البدو على درجة نادرة من الفتوة و الذكاء . و قد تبدي من ألوان الخُلق أسماها : كالشجاعة و الكرم و الشمم ، لكن ذكاءها بغير – الحد الأدنى من الثقافة الذي لابد منه ، وبغير اطراد موارد القوت – ستنفقه من مخاطر الصيد و مقتضيات التجارة ، بحيث لا يبقى منه شيء لوشْيْ المدنية و هُدابها و لَطَائفها و ملحقاتها و فنونها و ترفها .. و أول صورة تبدت فيها الثقافة هي : الزراعة ، إذ الإنسان لا يجد لتمدنه فراغاً و مبرراً إلاَّ إذا استقر في مكان يفلح تربته و يخزن فيه الزاد ليوم قد لا يجد فيه مورداً لطعامه ؛ في هذه الدائرة الضيّقة من الطمأنينة ترى الإنسان يبني لنفسه الدور و المعابد و المدارس ، و يخترع الآلات التي تعينه على الإنتاج . و يستأنس الحيوان . .

إن الثقافة لترتبط بالزراعة كما ترتبط المدنية بالمدينة ..إن المدنيَّة في وجه من وجوهها رقة المعاملة ، ورقة المعاملة هي ذلك الضرب من السلوك المهذب الذي هو في رأي أهل المدن من خصائص المدن وحدها .. ذلك لأنه تتجمع في المدينة ما ينتجه الريف من ثراء و من نوابغ العقول . و كذلك يعمل الاختراع ، وتعمل الصناعة في المدينة على مضاعفة وسائل الراحة و الترف و الفراغ ..و في المدينة يتلاقى التجار حيث يتبادلون السلع و الأفكار ، و هاهنا حيث تتلاقى طرق التجارة ؛ فتتلاقح العقول ، يُرْهف الذكاء و تستثار فيه قوته على الخلق و الإبداع .. و كذلك في المدينة يُستغنى عن فئة من الناس ، فلا يُطلب إليهم صناعة الأشياء المادية ، فتراهم يتوفرون على إنتاج العلم و الفلسفة و الأدب و الفن ؛ نعم إن المدنية تبدأ في كوخ الفلاح، لكنها لا تزدهر إلاَّ في المدن .

و ليست المدنية أي الحضارة تتوقف على جنس دون جنس .. فقد تظهر في هذه القارة أو تلك ، و قد تنشأ عن هذا اللون من البشرة أو ذلك .. قد تنهض مدينة في بكين أو دلهي ، في ممفيس أوبابل .. فليس هو الجنس العظيم الذي يصنع المدنيَّة بل المدنيَّة العظيمة هي التي تخلق

الشعب ، لأن الظروف الجغرافية والاقتصادية تخلق ثقافته والثقافة تخلق النمط الـذي يصـاغ عليه ..

لا بد و أن يُضاف للعوامل المادية و البيولوجية أيضاً العوامل النفسية الدقيقة فلابد أن يسود الناس نظام سياسي .. ثم لابد للناس أن يشعروا شيئاً فشيئاً أنه لا حاجة بهم إلـى توقـع الموت أو الضريبة عند كل منعطف في طريق حياتهم ..و لا مندوحة كذلك عن وحدة لغويـة إلى حد ما لتكون بين الناس وسيلة لتبادل الأفكار .. ثم لا مندوحة أيضاً عن قانون خلقي يربط بينهم عن طريق الكنيسة أو الجامع أو الأسرة أو المدرسة .. و ربما كان من الضروري كذلك أن يكون بين الناس بعض الاتفاق في العقائد الرئيسة و بعض الإيمان بمـا هـو كـائن وراء الطبيعة أو بما هو بمثابة المثل الأعلى المنشود .. و أخيراً لا بد من تربية لكي تنتقل الثقافـة على مر الأجيال . فلابد أن نـورث الناشئة تـراث القبيلة وروحها ، فنورثهم نفعها ومعارفها . . و أخلاقها و تقاليدها و علومها و فنونها ، سواء كان ذلك التوريث عن طريـق التقليـد أو التعليم أو التلقين ، وسواء أكان المربي هو الأب أو الأم أو المعلم أو رجـل الـدين لأن هـذا التراث إن هو إلاّ الأداة الأساسية التي تحول هؤلاء النشء من مرحلة الحيـوان إلـى طـور الإنسان ..

و لو انعدمت هذه العوامل - بل ربما لو انعدم واحد منها – لجاز للمدنيَّة أن يتقـوض أساسها.. فانقلاب جيولوجي خطير ،أو تغير مفاجئ شديد أو وباء يفلت من الناس زمامه .. أو زوال الخصوبة من الأرض أو فساد الزراعة بسبب طغيان الحواضر على الريف .. أو استنفاد الموارد الطبيعية في الوقود أو المواد الخام .. أو تغيرٌ في طرق التجارة تغيراً يبعد أمـة مـن الأمم عن الطرق الرئيسة لتجارة العالم أو انحلال عقلي أو خلقي ينشأ عن الحياة في الحواضر بما فيها من منهكات ومثيرات واتصالات ، أو ينشأ عن تهدم القواعد التقليدية التي كان النظام الاجتماعي يقوم على أساسها .. أو انهيار قوة الأصلاب بسبب اضطراب الحياة الجنسـية ، أو بسبب ما يسود بين الناس من فلسفة أبيقورية أو فلسفة متشائمة أو فلسفة تحفزهم على ازدراء الكفاح أو ضعف الزعامة بسبب عقم يصيب الأكفاء ، و بسبب القلَّة النسبية في أفراد الأسرات التي كان في مقدورها أن توَّرث الخلَفَ تراث الجماعة الفكري كاملاً غير منقوص .. أو تركز للثروة تركزاً محزناً ينتهي بالناس إلى حرب الطبقات و الثورات الهدَّامة و الإفلاس المالي .. هذه هي بعض الوسائل التي قد تؤدي إلى فناء المدنيَّة ، إذ المدنيَّة ليست له مجبوله في فطـرة

الإنسان ، كلا.. و لا هي شيء استعصى على الفناء، إنما هي شيء لا بد أن يكتسبه كل جيل من الأجيال اكتساباً جديداً..،،

هذه هي خلاصة الآراء التي طرحها ول ديورانت في مقدمة كتابه الرائع قصة الحضارة .. و التي كان لابد و أن نشير إليها .. و نضيف أنه ربما فاتته بعض العناصر الأخرى التي تؤدي إلى سيادة حضارة ، و اندثار حضارة أخرى .. مثل الحروب .. و الاستعمار الطويل .. و محاولة سيادة جنس على حساب فناء جنس آخر كما حدث في حروب القرون الوسطى ، و الحروب الصليبية و الاستعمار الغربي .. وإفناء الهنود الحمر .. هذه كلها أمثلة صارخة على محاولة الحضارة الغربية أن تسود على حساب حضارات أخرى.

و يمكن أن نضيف إلى ذلك عملية الصراع الثقافي .. فالثقافة الغربية ممثلة في لغاتها الفرنسية و الإنجليزية و الأسبانية و الألمانية قد حاولت أن تسود و تُسيِّد ثقافاتها على حساب اللغة العربية في شمال إفريقيا . . و السنسكريتية و الأوردية في الهند .. واللغات الأفريقية في شتى بقاع القارة الأفريقية .

هذا ، و إن كان ول ديورانت قد عاد و أكد على وسائل انتشار الثقافة حيث يقول :".. و المدنيات المختلفة هي بمثابة الأجيال للنفس الإنسانية ،فكلما ترتبط الأجيال المتعاقبة ببعضها ببعض بفضل قيام الأسرة بتربية أبنائها ثم بفضل الكتابة التي تنقل تراث الآباء للأبناء .. فكذلك الطباعة ،و التجارة و غيرهما من ألوف الوسائل التي تربط الصلات بين الناس قد تعمل على ربط الأواصر بين المدنيات .. و بذلك تصون للثقافات المقبلة كل ماله قيمة من عناصر مدنيتنا.. فلنجمع تراثنا قبل أن يلحق بنا الموت .. لنُسلِّمَه إلى أبنائنا...،،

و نحن نقبل دعوة الباحث العظيم .. و لكن دعونا نرَ ماذا يجب علينا أن نفعل حيال هذه الدعوة .. و هل نلقّن لأبنائنا عناصر الحضارة.. أم عناصر الثقافة ؟.. هل نذوب في الآخر؟ .. هل نحتفظ بالأنا؟.. هل نغوص في المحلية ، أم نُحلق في الآفاق العالمية و نذوب بين فقاعات العولمة ؟..

إن المفكر التركي ضياگوك آلب "٢٣ مارس سنة ١٨٧٦ – ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤ م " بالرغم من أنه يفصل بين الثقافة و الحضارة و يفرق بينهما فإنه قد سعى نحو تأسيس علاقة فيما بينهما.. إنها بمثابة العلاقة بين العقل و الحس .. و لكن الواقع أنها محاولة للربط بين العقل المادي الراغب في منح شكل ما إلى المواد الميتة .. وإبعاد الإنسان بعيداً عن

العلاقات الاجتماعية و العواطف الدافئة المختلفة التي تربطه بالعالم المحيط به .. إن الإنسان بطبيعة الحال لن يستغنى عن المدنيَّة المريحة ، والرائعة . . و التي حصل عليها بجهود متراكمة عبر الأجيال . . و لكن المراد ، والمأمول هو أن يضيف إلى تلك المدنية بعضاً مما هو متوافر في عالم " الحرث"فلابد من الدمج بين المشاعر "الروح" و المادة ... و التوائم فيما بينهما بدلاً من التنافر.. أو التنازع .. و لا بد للإنسان أن يضفى على الحضارة المادية التي ابتدعها بجهده وعرقه شيئاً من المعاني و الملامح البشرية .. و لابد أنه سيدرك في يوم ما أن الحضارة المادية ليست غاية في حد ذاتها بل هي وسيلة من وسائل راحته و هدوئه.

و لكن إذا كان لابد من تحديد بعض الفوارق بين الثقافة و الحضارة ..فإن الفكر الإسلامي بخاصة ، و الشرقي بعامة يعتبر الثقافة قَوْمِيَّة مَشَاعَرَّية .. بينما الحضارة تحمل شخصية عَقْلانِيَّة عالمية .

و إن ما دفع هذه المنابع بأن تصف الثقافة بالقومية ، فلأنها مرتبطة بالكائن الاجتماعي المسمى بالأمة .. فاللغة التي هي إحدى المقومات الرئيسة للثقافة ، و الأدب الذي تفوح به هذه اللغة هما من خواص الأمة التي تتحدث هذه اللغة ... فكما أن اللغة و الأدب الإنجليزي ، والفرنسي و الألماني و الأسباني يخصان الإنجليز و الفرنسيين والألمان و الأسبان ، فإن اللغة العربية و الفارسية ، و التركية و الأوردية و آدابها تخص العرب ، و الفرس ، و الترك ، والباكستانيين و الهنود ، و الذين يتحدثون هذه اللغات .

و لما كانت اللغة مستخدمة يومياً – فإن هذه اللغة تحمل في طياتها الحياة اليومية .. والرؤية العالمية و المشاعر الحسية لمن يتحدثون هذه اللغة . و من هنا تنشأ الصعوبة عند الترجمة من لغة إلى أخرى .. و ينطبق نفس الشيء عند نقل أدب أمة إلى أمة أخرى ، لأن الأديب قد عبر في لغته عن مشاعر وأحاسيس و ثقافات أمته .. فالمحيط الاجتماعي ، و العائلة .. و المدرسة .. و الحارة..و القرية و المهنة ، أو الحرفة قد تَغلغل إلى أعماقه دون أن يدري ..

الثقافة ليست مثل العلم و التقنية .. إنها ليست ميكانيكية .. بل هي عضوية .. فكما أن الشجرة قد حققت كل الصفات الجينية التي تحتويها بذرتها وفقاً لمعطيات التربة التي تغذيها ، و الماء الذي يرويها .. و الهواء.. و الرياح.. و الشمس أي المناخ الذي يحيط بها .. فإن الأمم كذلك في حاجة لمعطيات تاريخها الذي يحمل عصارة تجاربها .. و جغرافيتها التي تحدد

ملامحها ، و اقتصادياتها التي تُتَوّع أنشطتها .. إنها في حاجة لكل ذلك لكي تطـور ظروفهـا الاجتماعية و السياسية والدستورية ..

و لما كان الكتاب الذي بين أيدينا يتناول صفحات من الثقافة و الحضارة التركية .. فهنا يمكن أن نطرح تساؤلاً .. هل الأمة التركية التي عاشت في أواسط آسيا ، و في شبة جزيـرة الأناضول وفقاً لظروف و عوامل متعددة .. متغايرة .. ووصلت إلى يومنا الحاضر .. فهل من الممكن أن تذوب و تنصهر في أمم أخرى؟ .. فكما أن تاريخها .. و شخصيتها فـريـدة ، فإن ثقافتها أيضاً فريدة .. إن مناراتها .. و طرز جوامعها التي تطالعك في إستانبول مـثلاً قلمـا تُصادفها في مكان آخر .. إنك ستصادف نوعاً من التفرد عندما تزور مزارات مولانا جـلال الدين الرومي " ٣٠ سبتمبر سنة ١٢٠٧ م = ١٧ نوفمبر سنة ١٢٧٣ م " في قونية ، و التـي زارها الملايين عبر السنين . . فإنك ستجد نوعاً من التفرد الخاص بالأتراك فـي كـل مـن بورصة . . و أدرنه بل في كل ربوع تركيا . . إنك ولابد أن تـرى بعـض الصـفات . . والسمات و الخصوصيات التي لا يمكن أن تصادفها في أي مكان أخر .. فلكل مكان تفرده ..

و مما لا شك فيه . . إن الأمم الأخرى لهـا تاريخهـا. . و لغتهـا . . و بلـدانها.. ومعمارها ، و ثقافتها .. فكما أن الفرد له ما يتفرد به ، فإن الأمم أيضاً لها خصوصياتها التي تتفرد بها .. و لما كانت مميزات الفرد هي ما تجعله يستحق التقدير و الاحترام فـإن الأمـم كذلك ، مميزاتها و خصوصياتها هي التي تجعلها تنال ما تستحقه من هذا التقـدير ، و ذلـك الاحترام .

في المقابل من ذلك ، فإننا نرى النتاج العلمي والتطبيقي متشـابهاً إلـى حـد بعيـد ، فالسيارة ، و الطيارة ، و البـاخرة ، و التلفاز ، و الحاسوب ، و ماكينات التصوير ، ومصانع الآلات كلها تعمل بنفس النظام ، و بنفس النُسق ، و وفقاً لنفس القواعد الهندسية .. كلها تعتمد على نفس النظريات العلمية و القواعد التقنية ..ربما هناك اختلاف في اللـون .. و الإخـراج الخارجي .. و بعض من البصمات الخاصة ..

و حتى هذه الخصوصيات البسيطة ، لو أمعنا فيها النظر ، ربما هـي التـي تجعـل المشتري للطائرة ..أو السيارة .. أو الباخرة يفاضل بين الفروق التي تبدو له بـين المنتجـات المتشابهة ؛ فالإمكانات الجغرافية ، و التجارب التاريخية ، و مراحل التطور ، و التقدم العلمي ، أو تخلفه .. و جدية العامل ، أو تهاون المهندس و الإداري و سمعة المصنع كلها من العوامل

التي تؤثر على رواج المنتج .. إن سبب ذلك مما لا شك فيه .. هو الإنسان الذي أوجد العلم والتقنية ، كما أوجد لنفسه الروافد الثقافية .. إلاَّ أنه لم يخترع لنفسه علماً أو تقنية خاصة به بل إنى اشترى معرفة في هذه الميادين من الآخرين الذين سبقوه فيها .. و من الممكن أن تتشابه..وربما تتطابق نفس المصانع ونفس المنتج و إن اختلفت الأمم .. و لكن .. حتى في مثل هذه الظروف من الممكن أن تكون هناك اختلافات في طرق العرض ، و الصيانة . . و الاستعمال . . والرعاية .. فالسيارة واحدة و لكن طرق استخدامها تختلف .. تختلف وفقاً للطرق وقواعد المرور ورعايتها .. الجرار الزراعي واحد في كل الأمم .. و لكن مَنْ غير الترك و المصريين يستخدمه في الريف في زفة العرس بعد تزيينه ..؟ و حتى لو تشابه الترك والمصريون في استخدام الجرار في الزفة ، فمما لا شك فيه .. تختلف الأغاني المصاحبة . والترانيم و الدرابكة ..

إن التقليد .. أو الأخذ عن الغير يجب ألا يُخيفنا .. بل لابد من ذلك .. و في نفس الوقت لابد أن نحافظ على هويتنا .. و على الأشياء الجميلة التي ننفرد بها.. يجب أن نأخذ عن الغرب .. و عن الشرق على حد سواء .. و لكن مع الحفاظ على كل ما يجعلنا نختلف عنهم في الأعراف و التقاليد ، و التاريخ و الجغرافيا و نمط الحياة الأسري و الاجتماعي فيما بيننا .. و الأمثلة على ذلك كثيرة و مدروسة •

فالترك مثلاً .. بالرغم من أنهم حاولوا – فيما يزيد على ألف سنة – الأخذ عن العرب و الفرس و تقليدهم ، إلاَّ أنهم ظلوا كما هم أتراكاً .. و لقد أخذوا عن العرب الدين الإسلامي و ثقافته ، وكل مؤسساته .. و عن الفرس الكثير من المؤسسات التعليمية .. و لكن لما كان لهم شخصياتهم القومية المستقلة ، و لهم بيئتهم . . وتاريخهم .. و عاداتهم .. و أعرافهم الاجتماعية .. و السياسية المستقلة ..وقد صبغوا ما أخذوه بصبغتهم الخاصة بهم ، و الذي يتضح فيه طرز معمارهم ، ومنمنماتهم .. وخطوطهم و أكلمتهم .. و حتى سجادهم .. و كما كانت لهم خصوصياتهم حتى في الخط العربي .. فقد أوجدوا لأنفسهم في العصر العثماني [١٢٩٩ / ١٩١٧ م] مؤسسات مدنية ، و حضارية مهمة كمشيخة الإسلام ، والقضاء، والمدارس العثمانية الخاصة بهم .

التغيرات الثقافية :

إن السمة الأساسية للتاريخ هي التغير.. و كما قال أحد الفلاسفة اليونانيين القدماء .. " لا يُغتسل في ماء النهر مرتين " .. فإلى أن يتم النزول إلى النهر في المرة الثانية ، تكون مياهه المتدفقة قد تغيرت .. فكذا روح الإنسان و جسده ..

إن فكر التغير هذا قد عبرت عنه الحضارة الإسلامية باقتدار و وضوح ، و الترك قد مروا بمراحل كثيرة و متعددة طوال حياتهم الثقافية .. و منذ كتابات أورخون التي تتضح فيها التأثيرات الخارجية إلى قبول الآخر العربي و العجمي و الإسلامي .. إلى الاتجاه إلى الغرب و الأخذ عنه .. إلى مرحلة التتريك والعَلْمانية .. و مع أن هناك استمرارية في الثقافة و الحضارة ، فإن كليهما تتواءمان مع مقتضيات الحياة و متطلباتها . وما يعتريها من التغيير .. ربما نشعر به .. و ربما يمر من بين ظهرانينا دون أن نلحظه .. أحياناً لتباطئه .. و أحياناً أخرى للسرعة الفائقة التي تم بها التغير .. فمن ناحية الدين هناك تغير .. من ناحية اللغة هناك تغير .. من ناحية النظام السياسي و الاجتماعي هناك تغير .. منذ مائة عام كان التركي يتفاخر بالطربوش والعمامة و هاهو .. الآن يُزين رأسه بالقبعة .. و يصطحب الزوجة إلى المراقص .. وتسبقه في شتى الوظائف ، و تولت عنه سياسة الحكم .. و كتبت معه بالحروف الحديثة .. و أصبحت معرفة الخط العربي وقفاً على دور الحفظ و المتاحف .. ملامح التغير نلحظها في كل مكان ، و بين كل الطبقات ؛ مئات الآلاف من المدارس . . والمصانع . . و المطابع وملايين الكتب و الصحف و المجلات . . و العديد من محطات الإذاعة وقنوات الإرسال ..

الحضارة و الثقافة القومية :

مع أن الأفراد يتفردون بخصائص تميز بعضهم عن البعض الآخر ، فإنهم في نفس الوقت يحملون سماتٍ مشتركة مع كل الجنس البشري .. إن الأمم هي كذلك .. فكما أن هناك تفرداً ، فهناك أيضاً عناصر مشتركة .. فإذا كانت الثقافة من تفردات الأمة ، فإن الحضارة تُشكل السمات المشتركة مع الأمم الأخرى .. ولهذا .. فإن الأمم تختلف عن بعضها .. و لكنها ليست متعادية و لا متضادة .. و لنبرهن على ذلك ..

إن اللغة إحدى العناصر المهمة في الثقافة ، و الناس الذين يتحدثون نفس اللغة يشكلون مجتمعاً مختلفاً يطلق عليه الأمة . . العربية . . و الإنجليزية .. و التركية .. والفارسية لغات

تختلف عن بعضها .. و الأمم التي تتحدث هذه اللغات منذ مئــات ، بــل آلاف الســنين قــد استحدثت لنفسها ثقافة خاصة بها .. و أدب كل منها مختلــف عــن الآخــر .. و كــل أمــة استخــدمت لغتها و أوجــدت لنفسها شعراً ، و روايــات و مســرحيات وأعمــالاً فلســفية وعلمية خاصة بها .. و هذا يُعد شيءٌ جميلٌ .. و كل الأمم المتحضرة ، تنقــل آثــار الأمــم الأخرى إلى لغاتها لتستفيد منها و هكذا تتشكل بين الأمم حضارة وثقافة مشتركة .. و لكن هذا لا يلغي وجود الأمم صاحبة الشخصية القوية ، بل على العكس .. كلمــا ازدادت الأمــة مــن الثقافات الأخرى ، ازدادت قوة و رصانة .. أليس الأفراد على هذا المنوال ؟.. فــإن كنــت صاحب لغة .. فأنت صاحب ثقافة واحدة أما إذا كنت من ذوي اللسانين ..فأنت مــن الــذين يحملون سمات الثقافتين .. و هكذا " إذا كان جسم الأسد مكوناً من الحيوانات التي أكلها ومــا الأسد إلا عدة خراف مهضومة ..." على حد تعبير الشاعر و المفكــر الفرنســي فــإن كــل الموجودات الحيَّة تأخذ غذاءها من خارج نطاقها .. فإذا أمعنا النظر ؛ فلسوف نجــد أن أكثــر الأمم تقدماً أكثرها ترجمة عن الأمم الآخرى .. و لكن بشرط ألا تشعر بالدونية .. و ألا تهمل منابعها و ثقافتها الذاتية .. فإذا ما انبهرنا باللغة الإنجليزية مثلاً . مدعين أن اللغة العربيــة أو اللغة التركية متخلفة و ناقصة .. ففي غضون مائة عام على الأكثر نكون قد فقــدنا وجودنــا القومي .. و هويتنا الثقافية .. و ما فعله الاستعمار في القرن التاسع عشر و النصف الأول من القرن العشرين ليس ببعيد .. و هذا أخطر ما يمكن أن تحدثه العولمة الثقافية.. فلغتنا العربيــة .. و التركية في ثراء الموسيقى الشرقية و هما من خصوصياتنا .. و مــا أن تعبــث أناملــك بالمذياع حتى تأتيك أصوات ، و نغمات عذبة ، دافئة .. إنها تحمل نسمات الوطن .. و أخــوة المواطنة مع من يترنم بهذه الكلمات الطلية ..

إذا كانت الموسيقى الشرقية تطربك .. تُحزنك .. تُثيرك.. تُسليك و تضحكك بل أحياناً ما تبكيك .. فلماذا تتركها.. و تراها متدنية ؟.. إن لغتك .. و موسيقاك وأدبك الخاص بــك .. وبأمتك هى شرف هذه الأمة .. هى في مقام الوطن و الأرض .. والأرض هــي العــرض .. ليس معنى هذا ألاَّ أطرب بالموسيقات الأخرى ، و ألاَّ أقرأ للآداب الأخرى..

إن أوطاننا الإسلامية ثرية .. مترامية .. جميلة .. ورثناها عن الأجداد عامرة محميةً . هي أمتنا . . نبع تاريخنا . . و حاملة كنوز ثقافتنا.. نصد عنها الأعداء .. ونقدِّم لها الدماء .. و لكن على الرغم من كونها و طناً لنا.. فإنها متوائمة مع قوانين الطبيعة العامة .. فهي كسائر

أوطان الدنيا.. تعيش تحت نفس الشمس .. و تحتوي على نفس المعادن و المواد الخام ..والمياه المتدفقة .. و جبالها .. ورمالها كالجواهر الثمينة فيها ، وحولها العديد من بحار العالم و أنهاره .. و الله وحده هو الذي يعلم كم هي أنواع الأسماك التي تحتويها ..!..و الاستفادة من علوم العالم ، و تقنياته لدراسة هذه الموارد .. هل فيها النفع لنا.. أم سيلحق بنا منها ضرر؟.. هو أمر محتم ..

إن نقل العلم أينما كان .. و حمله إلى أوطاننا.. فيه الرفعة و الثروة لنا.. ".. خذوا العلم ولو في الصين . ." . . العلم هو الحضارة .. فمن يكره أن ترتبط قرانا .. ومدننا .. وأوطاننا بالطائرات .. و الطرق .. و القطارات ؟.. مَنْ يكره الفنادق على الشواطئ .. و قمم الجبال .. و بطون الصحراء ؟.. لماذا لا تهتز ودياننا بالتغاريد .. والأهازيج.. و تمتلئ البطون..و تعمل السواعد؟.. مَنْ يكره أن يخلق لنا العلم مدناً جديدة في أعماق الصحراء .. والبيداء .. و تتخللها المصانع التي تحوّل رمالها زجاجاً.. ووديانها مروجاً.. لابد أن نطوّع العلم لنا و لمن سوف يأتي من بعدنا.. نطوعّه لعاداتنا و تراثنا .. و قيمنا .. أي نأخذ بكل أسباب الحضارة ، مع الحفاظ على كل مفردات الثقافة .. أي الأصالة .

إن احد معاني الثقافة هو العمل والتشغيل .. لابد من تشغيل اللّغة و الموسيقى والعمارة .. و الجبل .. و الصخر .. وقبل ذلك .. الإنسان . و لابد أن نصل به إلى أعلى الأعالي .. إن كل ما أنتجه العقل البشري من أدوات و معدات لنا فيها نفع و لنا منها منافع .. و لن نفقد هويتنا .. أو شخصيتنا إذا ما استفدنا بها .. بل على العكس تماماً نطور الهوية . . و نصقل الشخصية . و لكن بشرط أن نعض على الوطن . . و الأمة .. و التاريخ و كل مفردات الثقافة بالنواجذ.

ما هي الأسس التي تُقام عليها الثقافة ؟

إن كل ما أنتجته قريحة أمة من الأمم عبر التاريخ ووصل إلى أيامنا الراهنة سواء أكان مادياً أو معنوياً فإنه يدخل تحت نطاق مفهوم " الثقافة القومية ..

إن أهم خاصية للثقافة القومية هي أن تكون من خلق و إبداع و تنمية و تطوير هذه الأمة. و حتى تلك الأشياء التي استعارتها من الأمم الأخرى فهي ملك لها طالما أنها استوعبتها .. فأحبتها ..

إن المـــلابس التي ترتديها ، و الأشيـــاء التي تستخدمها . . وثـــروتك اللغوية و الكتب التي تقرأها هي مفردات عالمك الخاص بك .. فلا تستطيع أن تفصل بين الـــ " أنا " و عـــالم الثقافة و المادة التي تعيشها •

فالأنا .. أي الذات سواء أكانت فرداً أو أمة تنمو و تترعرع و تتطور بمـــا تحتويـــه . وتمتلكه من أشياء قد أضافتها إلى ذاتيتها ... فمثلاً جلال الدين الرومي ترك وطنـــه الأصـــلي وجاء إلى الأناضول .. قضى حياته بين الترك ، نشر طريقته المولويه في تركيا و حيثما وجد الأتراك .. استوعب أشعاره و موسيقاه الآلاف من الشـــعراء وعلـــى رأســـهم يـــونس أمـــره (١٣٢١/٢٥م) و تغذى على معارفه آلاف من رجالات الدولة، و المواطنون العـــاديون و قـــد كتب أعماله العرفانية ، و الأدبية و الفكرية باللغة الفارسية .. فهل نلقي به خارج نطاق الثقافة التركية لمجرد أنه كتب أعماله باللغة الفارسية ..؟

كما أن الأتراك الذين شيدّوا صرح الحضارة و الثقافة الإســـلامية فـــي كـــل ربـــوع الأناضول .. قد قبلوا من الإسلام الكثير من المفردات و المعارف التي درسوها عن العربية و الفارسية .. فهل من الجائز أن يُلقي جانباً بهذا التراث بحجة أنه أتى من منـــابع أجنبيـــة .. ألا نكون بذلك هدمنا ذلك الصرح الذي بناه الأتراك ؟.. إنهم قد أدخلوا مع الإسلام مفردات الجامع و القرآن ، و المكتبة و السبيل و السوق وغيرها من آلاف المفردات ؛ فهل يُلقي بها لمجـــرد أنها وفدت من اللغة العربية ؟ ..

لم يثبت التاريخ حتى الآن ، أن هناك أُمـــة من الأمم لم تستفد من حضارات ، وثقافات الأمم الأخرى في المدينة ، و الثقافة مثلما هو الحـــال في الفنـــون الجميلة والأعمال • الفنية ليس المهم هو العنصر أو المادة الخام ، بل المهم هو التركيب أو التشكيل الفني الذي يحتويه .. فمثلاً الشاعر التركي يحي كمال بيـــاتلي (١٨٨٤/١١/٢ - ١ / ١٩٥٨/٢ م) قـــد اســـتعار معجمه الشعري من اللغتين العربية و الفارسية.. و لم يعب عليه أحد صنيعه هـــذا.. لأن مـــا يخص يحى كمال هنا ليس الكلمات .. بل النظام ، و النسق ، و الجرس الموسيقي المتولد عن هذه الكلمات ..

يمكنك أن تقارن بين جامع عثماني ، و جامع عربي ، و جامع فارسي كجامع، فالثلاثة يشبه بعضها بعضاً .. و لكن مما لا شك فيه أن الطراز و الأسلوب مختلف .. و ما تزدان به مدينة كاستانبول من جوامع و مآذن هو على الطراز العثماني الذي لا نصادفه في مكان آخـــر

هو ما يجعل هذا الطراز ضمن عناصر و أسس الثقافة التركية العثمانية . كما أن مآذن القاهرة تحمل السمات الثقافية الفاطمية و المملوكية ..

إن أهم عناصر و أسس الثقافة القومية هي اللغة ، و كل ما تعبر عنه اللغة .. أو يُعبر عنه باللغة .. لأن تناول اللغة وحدها ، وبحد ذاتها يمكن أن يحيد بنا عن الطريق المستقيم.. فما أن تُذكر الثقافة حتى يتبادر إلى الذهن اللغة ، و ما أنتجته اللغة سواء أكان شفاهياً ، أو مكتوباً .. فالمخطوطات التي تكتظ بها المكتبات .. و دور الوثائق و المحفوظات .. و أرشيف المحاكم و الوزارات و الهيئات .. كل هذه أشعة تلقي الضوء على التاريخ القومي و المساهمات الحضارية . كما أن ما يتردد في القرى و الكفور و النجوع من ضروب الأمثال . . والأغاني ، و الفوازير و الألغاز .. والأشعار و الحواديت و الأساطير و النُكت .. والفكاهات و اللطائف والمُلح كل هذه المفردات تدخل بين نطاق الثقافة ؛ كالنسق المعماري . . والنغم الموسيقي . . والرقص الإيقاعي ، و المشغولات اليدوية .. و الأكلمة و الأبسطة والسجاد اليدوي كلها عناصر ثقافية تحرص الأمم المتقدمة.. و المحتضرة على عرضها والتشهير بها في دورها .. و قصورها .. و متاحفها.. و مبانيها.. و متاجرها و معارضها .. بل وتخصص لها المناسبات .. و الفتارين .. و الصالات..

ليس هذا فحسب .. بل عادات ، و أعراف و معتقدات .. و مراسم واحتفالات الأمم لمما يدخل ضمن تراثها الثقافي .. فما يفكر فيه المواطن في القرى أو الحضر .. و طريقة اللبس و الأكل و سمات البخل أو الكرم . . . . و مراسم الزواج أو الدفن .. و التفاؤل والتشاؤم حيال عناصر الطبيعة أو ما يأتي به القدر .. كلها فصوص ثمينة يشملها العقد المرصَّع حول جيد الأمة .. و معصم كل فرد من أفراد هذا الوطن . .

تكامل الثقافة القومية و مميزاتها :

لما كانت اللغة و طريقة نظرتها إلى الحياة اليومية ، و التعبير عنها هي من أسس وعناصر الثقافة القومية .. فيجب القول منذ البداية أن اللغة العربية هي إحدى مقومات الوحدة الثقافية بين كافة مجتمعات الأمة العربية ،كما أن اللغة التركية هي التي قامت عليها فكرة الوحدة الطورانية التي تجمع بين كافة شعوب الأمة التركية . . ولتأكيد هذه المعاني لابد من

دراسة النتاج اللغوي ، و الأدبي .. و الموسيقي و الفنون الجميلة والأعراف و المعتقدات والمراسم على ضوء الوثائق و الموروثات المتاحة ..

على الرغم من أن الأبحاث التي جرت ، و تجرى مازالت في مراحلها الأولى إلاَّ أنها أثبتت أن اللغة العربية تشكل عنصراً توحيدياً بين كل الأمة العربية على امتداد الساحة العربية .. و يكاد يكون نفس الشيء متطابقاً على الشعوب التركية رغم اختلاف اللهجات ، و اللكنات . . فاللغة العربية واحدة رغم اللهجات في المغرب و شمال أفريقيا و الصومال و السودان و مصر و الجزيرة العربية و المشرق العربي .. كما كانت اللغة التركية هي الوسيط المشترك بيني و بين التركي في المجر ، وبلغاريا ، و الأناضول ، و قزوين و تركستان و طشقند وباقي المدن في أوزبكستان .. ورغم اختلاف اللهجات فإن الوسيط كان ناجحاً .. و لم تحل هذه اللهجات دون الترجمة عن الأذرية و الأوزباكية و التركمانية .. فالأصول واحدة و إن تشعبت المنابع و الجداول.. فتمتعنا و استمتاعنا بالغناء المغربي و التونسي و المشرقي والخليجي ، و النغمات الحلوة و الترانيم المقدسية و اللبنانية . . وعذوبة الترتيل والإنشاد و التواشيح المصرية .. كلها عناصر عذبة .. في عذوبة النيل ، عميقة كعمق اللغة العربية التي وفَّرت وحدة المشاعر و الأحاسيس و الوجدان .. و نغمات الموسيقى التركية التي تُشنف الآذان من قازان .. و أفغانستان .. و تركيا .. و إيران و أذربيجان .. و سائر الساحة التركية على امتدادها.. فمما لا شك فيه أن الأصول اللغوية الواحدة هي التي أمَّنت وحدة تلك الأنغام والترانيم.

إن الأقوام العربية.. شأنها شأن الأقوام التركية.. قد عاشت عنعنات عقائدية.. ومراحل تاريخية متعاقبة.. عرفت كلتاهما مرحلة ما قبل الأديان السماوية.. ثم استقرت جموعها على الديانة الإسلامية ، لما وجدته فيها من تقارب في الأعراف و العادات ، و تهذيب و تشذيب للسلوك و الميول ..و الرغبات و أصبح من الصعب أو المحال أن تفصل بين ثقافة الإسلام وثقافة الإنسان في وسط آسيا .. أو الأناضول أو المشرق عبوراً لأرض الجزيرة مروراً بمصر وصولاً إلى المغرب...

إن العرب العاربة و المستعربة .. و الفرس و الأتراك بعدما قبلوا الإسلام واءموا بين البناء التحتي و البناء الفوقي في الثقافة .. أبقوا على ما لديهم مما يتواءم مع الدين الجديد .. ففكرة التوحيد عند المصريين أبقوا عليها ، صهروها في بوتقة الإله الواحد .. غير الترك

شخصية رجل الدين الشاماني و ركزوها حول شخصية الرسول " صلى الله عليه وسلم " ثــم أمير المؤمنين و الخليفة و شيخ الطريقة .. و كرامات الولي بدلاً مــن نفحــات الشــاماني .. والبدوي العربي .. و المُرتحلون الأتراك الذين كانوا يعيشون فــي الخيــام و بيــوت الشــعر ويحملونها إينما رحلوا ..بعد أن قبلوا الإسلام نقلوا زخارف و نقوش الخيام إلــي المــآذن .. والمنابر للجوامع و المساجد .. مثل هذا التغير الثقافي يمكن أن نلمحه ، بل و نلحظه بين كــل شعوب الأمة الإسلامية .

إن شعوب الأمة الإسلامية قد مزجوا مزجاً فريداً بين شخصية البطل و الغازي .. في السير و الملاحم .. و عنترة .. وامرؤالقيس .. و الزبير .. و الســپــاميش .. وكــل أوغــلان وكورأوغولان.. أصبحوا علي بن أبي طالب .. و خالد بن الوليد و جعفر الطيــار و طــارق وأورخان .. و سليمان و الفاتح .. فالبطل و الغازي هما القوة المادية التي تفــتح الحصــون وتحميها . و يسيران جنــباً إلى جنب مع أمــير المؤمنين والخليفة و الــولي و العــالم همــا اللذان يفتحان أبــواب العالم الآخــر . . بينما البطل و الغازي هما اللذان يفتحان العالم المعاش .. و من هنا كانت مكانة الشهيد و الولي لا تضاهيها مكانة أخرى .. و كلتا الشخصيتين تنالان ما تستحقه من احترام و تبجيل في التراث الثقافي و الإسلامي .

إن الدفاع عن الدين و الوطن من أعلى المراتب قدسية و إجلالاً عند الأمة الإسلامية .. من هذا المنطلق يحتم الارتباط بالدولة و مؤسساتها التي توفر لها الحماية و الرعاية ، و التــي تجعله يرتبط بها ، و يدافع عنها عند الكوارث و المحن .. فالأرض هي العرض و الدفاع عن الأرض بالروح والدم و المال من أسمى مراتب الأخلاق وهذا ما يخلق في المواطن عزة النفس .. و الوقار و الحيثية و تدفعه إلى حب الخير والكرم و التضحية و احترام حق الغير و الدفاع عن المظلوم ، و مساعدة الضعيف والصغير و الفقير .. و إجلال الكبير و توقير المسن .. هذه كلها من سمات الشخصية التي تتمحور حولها العناصر و الأسس الثقافية . و التي تدفعها إلــى استحداث مؤسسات الخير و الصدقات الجارية و التي هي بدورها التجلي المــادي للخصــال الحميدة . . وراء الجــامع ، و السبيل ، و الكتــاب ، و الحمــام ، و المدرســة ، والخــان ، والمشفى روح صافية .. و مشاعر سامية .. و ما هذه المجسمات إلا فنون جميلة تُزين جبــين الوطن وتسمو بالمواطنين .. فالروح الذكية هي التي توقف الأوقــاف .. وتبنــي دور الأيتــام

والخيرات .. هذه كلها مفردات الثقافة المحلية التي تجعلنا نلتف حول بعضنا البعض عند الكوارث و المحن و تعديات الآخر المعتدي .. و العدو المتربص ..

من هنا تنشأ الحاجة إلي الاهتمام بهذه المفردات و صيانتها و ترميمها و إعادة ما تهدم منها .. نحن في أمس الحاجة إلى إعادة الحياة و النماء إلى قصورنا ، وسراياتنا .. لا لكي نجعلها بيوتاً للضيافة .. بل قصوراً و متاحفَ لكل المفردات الثقافية من فنون و كنوز .. ورقائق و تحف ومخطوطات و لوحات خطية و زيتية . كما أتمنى أن نرى سراي عابدين كله متحفاً .. و ينضمم إليه سراي القبة .. و قصر الطاهرة و كل القصور التي تحولت إلى إدارات حكومية و حزبية في كل ربوع الوطن نحن في حاجة إلى أن نعرف ثقافتنا المحلية في المدن الكبرى .. و المحافظات .. كم أتمنى أن تعم المتاحف و المعارض و قصور الثقافة ، وساحات الفنون الشعبية و محاكي القرى و أن يتحول دوار العمدة إلى مشغل للصناعة اليدوية .. و أن يكون هناك ركن في كل النوادي و مراكز الشباب ، و الساحات الشعبية للألعاب والرياضات التراثية . . لماذا لا نعمم رياضة التحطيب ؟ و مسارح خيال الظل .. والمداح .. و تمثليات مواسم الحصاد . ؟ لماذا لا نطور الاحتفال بمجيء فيضان الخير و خروج المحمل .. و عودة قافلة الحج .. و مسيرات الزهور .. و مواكب الحرف .. نعيدها .. نطورها .. نستخدم فيها أشعة الليزر .. و نكرم المبدعين فيها ..

إن دخل متحف " طوب قابي سراي " في استانبول قد أمن وحدة الملايين من الدولارات اللازمة لإقامة مبانٍ جديدة للضيافة .. و الإدارة .. و لم يسمح طوال التاريخ باستخدامه إلاً في هذا الغرض ؛ ألا و هو عرض و تشهير مفردات الثقافة التركية الإسلامية .. لماذا لا تحول بيوت الزعماء و الشعراء .. و الأدباء وكبار المطربين الذين شكلوا وجدان الأمة إلى متاحف . ؟ كم سعد الناس بمتحف الفنانة الخالدة كوكب الشرق أم كلثوم .. و بتمثال الشهيد المرحوم البطل عبد المنعم رياض .. لماذا لا نبني مقراً ثابتاً لرئيس الجمهورية .. و رئيس الوزراء .. لا يتغير بتغير الرئيس بل يتغير الرئيس و يبقى قصر الرئاسة فهناك "البيت الأبيض".." و الكرملين "..."والمستشارية ".. " وداوننج ستريت "هذا هو التحديث .. و المعاصرة .. مع الحفاظ على التراث والأصالة ...

استمرارية الآثار الثقافية و حمايتها :-

إن مسودة النوتة الموسيقية . . و قصيدة الشعر . . و مخططات الكباري والسدود . . و خطب الزعماء ، و خطاباتهم . . و مذكراتهم هي كقطع البرلنته ، و فصوص الماس .. وعقود اللآلئ .. و أساور الذهب و أقراط الفضة و تماثيل البرونز ومسلات الجرانيت .. ومعابد الفراعنة، وممياواتهم و الكنيسة المعلقة . . و جامع عمرو بن العاص .. و أحمد بن طولون .. و الأزهر الشريف.. و جامع الظاهر بيبرس .. و حديقة شجرة الدور.. وحديقة الأندلس و الأعتاب المبجلة لسيدنا الحسين .. و السيدة زينب .. و السيدة نفيسة .. والسيدة سكينة .. و الإمام الشافعي .. و جامع الفتح .. وجامع النور.. و برج القاهرة.. ومقياس النيل .. و قلعة صلاح الدين ، وقلعة قايتباي .. هذه كلها كنوز لا تقل في أهميتها عن الهرم و المتحف المصري ،و دار الأوبرا و دار المحفوظات ، ودار الكتب المصرية .. ومعهد الموسيقى العربية . . هي كورق البردي . . و معبد الكرنك و المسلات الشامخة.. و مقابر الدير .. و أبي الهول .. كلها تنادينا.. علينا أن نصونها.. نوقرها .. نبجلها .. نرصد لها .. ثم نأخذ منها ..

إن متاحف تركيا التي كانت قصوراً . . و سرايات .. و قصور شاهات إيران وأباطرة الصين و اليابان .. و متحف اللوفر.. و المتحف البريطاني .. و متحف الفنون و الهرميتاج .. و المزارات السياحية الثقافية في ايطاليا و الأندلس و اليونان .. كم أدخلت من الملايين لخزائن دولها.. و قدَّمت لمواطنيها من مقومات القومية و العزة و الفخار..!

إن الذين أُتيحت لهم الفرصة لزيارة دول الغرب و الشرق المتقدمة لابد أنهم قد رأوا كيف تحولت قصورهم و عماراتهم الجميلة إلى متاحف..و صالات عرض لمقتنياتهم التي لا تقاس بما لدينا .. و لو أفرغت متاحفهم مما ينتسب إلينا .. لبقي القليل ، و لكنه مبجل و نادر، وموثق ..

إن دول الغرب لم تهتم بالأعمال التاريخية المادية فقط.. بل عالجوا المخطوطات .. ورمموا الوثائق و الأوراق .. و شيدُّوا لها المكتبات . و حفظوها في الخزائن ..إن المكتبات في قدسية دور العبادة ؛ لها الرعاية و الصيانة و الترميم والعناية .. أحاطوها بكل صنوف التوقير و التبجيل و القداسة فتحوا أبوابها للآلاف ، بل لملايين الكتب الوافدة .. و تسامحوا مع

كافة العقول التي تبغي التنوير و الاستزادة .. صنَّفوها .. فهرسوها .. رمموها .. جعلوها في متناول الجميع في لمح البصر .. لا تسويف .. و لا أعذار مختلفة .

و الارشيفات .. كنوز العقول .. و زخائر الأمم .. صنفوها هي الأخرى .. احتفظوا بالأصول ، صوروها و جعلوا التناول و التداول لهذه المصورات . فالأصول ميراث الأجيال التالية .. و أحاطوا مبانيها بالحدائق و الميادين الواسعة و الشوارع النظيفة و المنمقة ..

إن الحفاظ على الأثر التاريخي .. أو الكتاب .. أو الوثيقة ليس غاية في حد ذاته .. بل هم احتفظوا به، و حافظوا عليه .. لكي يكون وسيلتهم للتعرف على الإنسان في عصوره الماضية ..فالإنسان هو هدفنا .. و غايتنا .. نتعرف على حياة الجدود .. لنعرف أسرار الإنسان ..كما نُحاول دائماً البحث عن أسرار الكون و الطبيعة .. فإذا كانت البذرة سليمة .. والظروف ملائمة فلابد أن تخضر الشجرة .. و تُزهر .. ثم تُثمر .. فالحفدة يجب أن يكونوا أكثر قوة ، و تقدماً من الآباء .. و لن يتم ذلك إلاَّ إذا عرفنا كيف كان الأجداد يفكرون .. يجربون .. كيف بنوا المعابد .. و حنطوا الأجساد و اخترعوا الورق . هذه ليست جمادات ميتْة .. أشياء بلا معنى .. بل هي أجزاء مكملة لبني البشر .. لو عرفنا أسرارها فلن نفرط فيها .. لن نبيعها بأطنان الذهب .. لن ندعها تتفرق .. أو تتغرب .. بل نضعها في حدقة العين .. و فوق الرأس .. و قاع اللاشعور ..

إن الأمم التي لا تُبجل تراثها .. أو توقر تاريخها .. و التي ينظر إنسانها إلى تراثه المعماري ، و أعماله التاريخية على أنها " موضة " قديمة قد عفا عليها الزمن ، و أنها ليست سوى أشياء [كهنة] يجب التخلص منها ، أو التفريط فيها ، أو بيعها بأبخس الأثمان.. هي أمم قاصرة .. تحكم على نفسها بالزوال أو الذوبان.. إن الأمم الشرقية التي تنظر بهذه النظرة إلى تاريخها .. ووثائقها التاريخية .. قد فرطت في بعض من وثائقها .. و تماثيلها و تحفها الفنية – التي لا تدرك قيمتها – بثمن بخس .. بل قدمتها كهدايا في كثير من الأحيان .

إن الشاهد على ذلك ما تحتويه الميادين ، و المتاحف . و المكتبات من آلاف القطع الفنية .. و ملايين الكتب و المخطوطات و النفائس .. و عشرات المسلات والتماثيل الشرقية البديعة .. إن هذه القطع و النفائس إن لم يعد في الإمكان إعادتها .. فعلى الأقل نُعرِّف الأجيال بها .. و نخلق نحوها شعوراً.. و حنيناً تاريخياً . يجب أن تكون لنا نظرتنا ،و فلسفتنا التاريخية التي تمنح النفائس قيمتها و تربط الأجيال بها .. ليس المطلوب أن نتفرج على

الأهرامات ، أو المعابد، أو الشواهق المعمارية فقط .. بل المطلوب أن نعرف أيضاً الفلسفة التي تكمُن خلف هذه المعابد و الشواهق..

إن هذه الآثار التاريخية ، و النفائس الفنية ، و الوثائق الاجتماعية تحمل قيماً عالية بالنسبة لهؤلاء الذين يعلمون أهميتها ، و المعاني التي تحملها من وجهة نظر حياة الإنسان التاريخية ، إذا كنَّا نود أن نحفظها ، فيجب علينا أن نقص على أجيالنا الصاعدة معنى التاريخ و أهميته . . و إن كان مثل هذا الشعور لا يتكون بقص و حكاية الوقائع التاريخية فقط ، بل كذلك لابد من التركيز على العلاقات التي تربط بين التاريخ و الإنسانية .. و بين التاريخ و الأمة .

إن الغرب قد كوَّن لنفسه عدة أطروحات فلسفية للتاريخ متمثلة في النماذج العديدة المنبثقة عن طرز نظرتهم لهذا التاريخ.. وللأسف لم يبدأ لدينا مثل هذا الاتجاه الفلسفي . . وقد ترتب على ذلك ، أنه بالرغم من أننا نعيش في بلد يمتلك أغنى و أثرى ما يمتلكه العالم من مفردات التاريخ ، فإنه لم يتولد لدينا بعد الرغبة الملحة في الاهتمام بالقيم و المعاني التي يحملها هذا التاريخ.

إذا كان من كل ذلك قد اتضح لدينا مدى التداخل أو التباعد بين الثقافة والحضارة ، فمن الجدير أن نُشير إلى بعض من الكلمات التي يمكن أن تتعلق بها من قريب أو من بعيد .. فمثلاً ؛

ما الفرق بين" الوطن "و "الأمة "و" وطني" و" قومي" و" الوطنية " و " القومية " فهناك تداخل في المعني .. و خاصة عند الحديث عن الثقافة القومية . فمعنى كلمة " قومي " أوسع وأشمل من كلمة " وطني " . فالوطن هو الأرض التي تعيش فوق ترابها الأمة ؛ فالوطن العربي ، هو الأرض التي تعيش عليها الأمة العربية .. إن الوطن هو منبع الحياة بكل ما تحمله هذه الكلمة من معاني ؛ فما نأكله .. و ما نشربه .. و ما نلبسه .. وحتى الهواء الذي نتنفسه هو منبعه. فبيتنا .. و حقلنا .. و حدائقنا.. و بساتيننا.. و مدارسنا.. و مصانعنا.. وملاعبنا و مرتع طفولتنا .. و نمو و ترعرع الشباب فينا .. هذه كلها لبنات في بناء الوطن ، و الوطن هو ذاته كل هذه اللبنات .

إن الوطن بترابه .. و رماله .. و مائه .. و هوائه .. بزرعه .. و ضرعه .. ونمائه .. بقراه .. و مدنه .. بشتائه و صيفه و ربيعه . . بزهوره . . و براعمه . . و أطفاله ، قد كوَّن في داخلنا و أعماقنا منذ الطفولة روابط خفية .. حتى أنه يُصعب فصلها عنَّا أو فصلنا عنه .. و بمعنى آخر .. الوطن هو الذي كوَّننا .. خلق شخصيتنا .. و نحن بدورنا . بفكرنا . . و جدنا . . و عرقنا . . و قوة الإبداع و الكد فينا . . و بالمشاعر المتأججة في داخلنا نضيف إليه في كل يوم ، بل يمكن أن يكون في كل لحظة ما يجعله يسعد بنا .. إن مكانة الفرد ، الذي هو عبارة عن قطرة في بحر الوطن ، و نشاطه و كده .. إذا لم يُر بالعين المجردة .. إلاَّ أنه لا يمكن إنكار القطرة .. فبداية الغيث قطرة .. و بداية الطريق خطوة .. وتباشير الربيع زهرة.

إذاً .. عندما نقول " وطني " فنعني الصفات الخاصة بالوطن ، و عندما نقول " قومي " فنعني الصفات و الخصائص الخاصة بالقوم .. بالأمة ..بالفرد الخلاق المبدع .. ؛ و لهذا فالأمة تتقدم بلغتها .. ودينها ..و ثقافتها .. و مدنيتها .. فالعرب قبل أن يهاجروا إلى مصر .. و الترك قبل أن يصلوا إلى الأناضول .. كانوا أقواماً .. كانوا أمماً .. فالعرب قد حملوا ثقافتهم .. و حضارتهم إلى مصر .. و الترك بعد أن استوطنوا الأناضول حملوا إليه ثقافتهم وحضارتهم السابقة .. و كلاهما .. أي العرب و الترك حافظوا على الثقافة و الحضارة الخاصة بالبلدان الجديدة التي استقروا فيها و استوطنوها ..و مع تغيُّر الزمان و المكان .. فمما لاشك فيه أن الثقافة و الحضارة الجديدة ، تختلف عن الثقافة و الحضارة السابقة ، و إن كانت استمراراً لها في بعض من وجوهها ..

و لكن عندما نقول " قومي " فإننا نقصد الصفات ، و القيم و الآثارالتي تكونت قبل المجيء إلى هذه الديار و بعده . . فـ " الطيبة " و صف " قومي " مصري " و الشجاعة " و صف قومي تركي .. فهذه صفات أو أوصاف يشترك فيها كل الأفراد الذين يعيشون فوق نفس التراب ، و يتنفسون نفس الهواء .. و يعيشون نفس المحيط الجغرافي و الاجتماعي .. فالطيبة صفة مشتركة بين كل المصريين ، و البطولة صفة مشتركة بين كل الجنس التركي .. و رغم استيعاب المصريين للثقافة العربية فإنهم لم ينسلخوا عن طباعهم السابقة ..

فالمشتركون في الصفات المادية ، و المعنوية يمكن أن نطلق على هذه الصفات صفات " الوطن " .. و يشترك كل المواطنين في هذه السمات أو الصفات الوطنية لأنهم

يعيشون على نفس الأرض ، و يتنفسون نفس الهواء .. و يشربون من نفس الماء .. و يتغذون على نفس الزرع و الضرع الذي ينمو فيه و يتطور تحت هواء و شمس نفس الوطن .. فالذين يعيشون في نفس الوطن هم جميعاً كركاب نفس السفينة تهزهم الأمواج جميعاً.. و تصادفهم جميعاً نفس المخاطر ..فتتولد بينهم الصداقة .. و يتم بينهم التعاضد و التعاون .. حتى و إن اختلفت فيما بينهم اللغة ..أو الدين .. أو اللون .. أو العادات و الأعراف.

إننا إن كنا في حاجة إلى المهندس ليعلمنا الهندسة .. و الطبيب ليداوي مرضانا والبناء و النجار . . و الحداد . . فإننا بنفس القدر في أمس الحاجة إلى الفيلسوف والأديب و مَنْ يُلقننا التاريخ .. إن قيم الثقافة القومية التي تنساب إلى أعماقنا دون وعي أو قصد منًا كالهواء الذي نتنفسه من البيئة الجغرافية ، و الاجتماعية والعائلية .. أصبحت موضوعات تعالج في المدارس . . و يفكر فيها في شتى المحافل التربوية والتعليمية .. و الذين يقومون بهذا الدور هم أرباب الفلسفة ، و الأدب ، و التاريخ ومدرسو هذه المواد.

إن معنى كلمة "الشعور القومي " في غاية الوضوح .. إنها تعبر عن تصرف ذي شعور تجاه الوجود و القيم القومية ..إن الأمي .. أو رجل الشارع يستشعر القيم الثقافية ويستشفها من المحيط الاجتماعي الذي يعيشه ، و اللغة التي يعيش بين حناياها.. و لكنه هنا يُشبه الغرس .. أو النبت الذي يتغذى على التربة ، و الماء والهواء ،و الشمس .. لا بد أن هذه حادثة مهمة .. و لكن التفكير أو الشعور هو الذي يُبيِّن مدى قيمة أو عدم قيمة الأشياء .

إن كل طور يتخذه بنو الإنسان تجاه الحياة .. لا بد و أنه يعتمد على عقيدة وإيمان ما .. هذه العقيدة يُعبر عنها .. كما هو مشاهد في الأساطير و الحواديت والأعراف و العادات بشكل مشخًص ، ليس بشكل مجرد ، و الفلسفة هي التي تسمو به إلى مستوى الفكر محوّلة إياه من التجريد إلى التشخيص .. إنها عملية تُشبه التعبير عن حكمة أو مثل يحمل المجاز بكلمات واضحة و مختارة .. فعندما نقول : تفسد السمكة من رأسها أولاً .. أو .. " من أجل الورد يُسقي العُلّيق " أو " تنحني الشجرة و هي طرية .. " فهذا يعني أن الفساد يبدأ من أعلى .. وأن الإنسان في الصغر يمكن تشكيله و تكوينه .. و هذا المثل يحمل نظرية تربوية مهمة ألا و هي الاهتمام بالنشء أي بمدارس الحضانة قبل المرحلة الثانوية و الجامعية .

إن الدور المنوط بالفيلسوف .. هو التأسيس و التقييم معتمداً على التفكير العلمي حتى و لو عبرَّ عنه بالأساطير، و الحواديت ، و المُثُلِ المجاز الشعبي .. فأفلاطون أكبر فلاسفة العالم قد وصل إلى أفكار مازالت تحمل قيماً رفيعة حتى اليوم ، و كان منطلقه فيها هي الحكايات الشعبية ، و المجاز و الاستعارة ·

فكما أن للمصريين أساطيرهم ، وملامحهم ، و حكاياتهم و عاداتهم .. وأعرافهم ، فإن للأتراك كذلك هذا النتاج المتنوع .. و كشف الفلسفة التي فيه ، وكيفية النظر إلى العالم من خلال هذا التراث أمر يقع على عاتق الفلاسفة ..

أما دور التاريخ و الأدب في حياة أي أمة من الأمم ، فلا مراء فيه .. فالتاريخ يعتمد على الظروف و الأسباب التي تتولد عنها الوقائع و الأحداث ، وما يترتب على ذلك من نتائج و أحداث أُخَر .. و على مدرس التاريخ الذي يشرح هذه الأحداث بشكل علمي للشباب أن يؤجج فيهم الشعور القومي الذي يمكن استخلاصه من روح هذه الأحداث ·

ليس معنى هذا أن " درس التاريخ " يجب أن يكون قصائد فخر قومية.. فكلمة شعور نقصد بها هنا " العلم و المعرفة " و ليس " المدح و الفخر ".. فهناك في التاريخ أحداث فيها أتراح ، و أخرى فيها أفراح .. و أحداث يجب أن تُنتقد و تُنقد .. وأخرى يجب أن يُشاد بها ، و تُستخرج منها العبر .. و على مدرس التاريخ أن يذكر كل ذلك لطلابه ، و أن يُبين الأسباب .. و يستخرج النتائج .. فتحويل درس التاريخ إلى مجرد درس مدح ، و افتخار يتنافى مع " الشعور القومي " الذي يعُبر عن اليقظة ، كما يتنافى بنفس الدرجة مع العلم .. والتفكير العلمي .

إن أطفال أي أمة و شبابها يجب أن يعرفوا ويتعلموا تاريخ أمتهم بكل جوانبه.. و إن أمكن بكل تفرعاته .. فبهذا الشكل فقط .. وبهذه المعرفة يمكن أن نمنحهم الشعور القومي .. و هذه المعارف مما لا شك فيه سوف تؤثر على تصرفاتهم ..

أما تلقين المشاعر و الأحاسيس فليس دور الفلسفة و التاريخ ، بل هذا الدور منوط بالأدب و بمدرسي الأدب .. إن الأعمال الأدبية ، على العموم تُعبر عن مشاعر الإنسان وهمومه ، أي عما يحب أو يكره .. عن خياله و نزعاته بأسلوب جميل ، وبطرز مؤثرة .. أن أشعار عنترة .. و امرئ القيس .. و النابغة .. و أبي نواس .. والبحتري و من قبلهم المعلقات .. و من بعدهم العذريات و شعر العرفان و السير .. كلها تعبر عن البطولة

والجسارة ، و الحكمة .. و النظرة إلى العالم . و لدى الترك فإن ملحمة أوغوز قاغان .. تُعبر عن شجاعة جد الترك أوغوز قاغان و جسارته ، ونظرته إلى حكم العالم .. بعده جاء يونس أمره (٢٠/١٣٢١م) فعبر في أشعاره عن إنسانية متدفقة . ثم كانت أشعار فضولي (١٤٩٥ – ١٥٥٦ م) و باقي (١٥٢٦ – ١٦٠٠ م) و نامق كمال (١٨٤٠ – ١٨٨٨م) ويحي كمال (١٨٨٤ – ١٩٥٨ م) و جاهد صدقي و أورخان سيفى .. و ناظم حكمت (١٩٠١ – ١٩٦٣ م) و نجيب فاضل (١٩٠٥ – ١٩٨٢ م)و سزائي قره قوج (١٩٣٣م- ....) و غيرهم من الشعراء و الأدباء الذين عكست أشعارهم ؛ الفكر التركي و خيالاته .. فمما لا شك فيه أنها أثرت الشخصية التركية .. و أنقذتها من الوحدة الضيقة التي كان من الممكن أن تلم بها .

و يصر علماء التربية على أن الأعمال الأدبية و الفنية لما كانت تخاطب المشاعر والأحاسيس و الأخيلة فإن دورها في التربية القومية أكثر تأثيراً من التاريخ و الفلسفة .. فالإنسان في أمس الحاجة إلى المشاعر و الأخيلة عند إجراء العملية التعليمية .. و يتحقق هذا بالأعمال الأدبية و الإبداعات الفنية . فالمسيطر على خيال ومشاعر الأجيال الجديدة و الشابة يمكن أن يدفع بهم إلى الموت أو يزج بهم إلى أتون الحرب وهم نشاوى . فالحس و الخيال يلعب دوراً أكثر قوة و فاعلية من العقل في التحركات الاجتماعية .. و من هنا ، فإن الأمم المتقدمة تُعطي قيمة عالمية لآدابها و فنونها القومية . كما أن الفنون و الآداب تمنح أصحابها من القيم الرفيعة ما تنحني أمامها الجباه .

إن عالمنا العربي .. و الإسلامي يتعرض منذ بدايات القرن العشرين إلى حرب ثقافية شعواء .. و قد ازدادت ضراوتها في السنوات الأخيرة .. و تنوعت أساليبها .. و فنونها لدرجة أننا أصبحنا نحن الذين ندعو الأعداء بمحض إرادتنا لكي يأتوا إلينا ، و يقضوا على قيمنا القومية بأيدينا نحن ..و ها نحن قد سلّمنا إليهم مقاليد الأمور – تقريباً – في كل مؤسساتنا..

الآن في مصر .. كما هو الحال في تركيا .. كل المدارس و السينمات .. والمسارح .. و الإذاعات .. و التلفاز و القنوات تتسابق في نقل الآخر بثقافاته إلينا .. و إدخاله حتى في غرف نومنا ..إن أجيالنا الحالية تعرف عن أمريكا، و فرنسا ، وإنجلترا ، و ألمانيا أكثر مما

تعرف عن السودان أو المغرب .. و لا نقول عن أندونسيا .. أو ماليزيا أو جـزر القمـر أو الصومال أو نيجيريا وتنـزانيا .. إن شبابنا قد تربى منذ حكم محمد على باشا في مصـر ، والتنظيمات و الآتاتوركية على " الموديل الأوربي " .. و الآن على " الحلم الأمريكي " فبلادنا قد اكتظت بالمدارس التي تعلم اللغات الأوربية منذ الحضانة و حتى نهاية التعليم الثـانوي .. بل الأفضلية الآن للجامعات ..و الأكاديميات الأجنبية . و أصبحت لغة التعامل فـي الدعايـة والتجارة .. و الإعلام .. و السيطرة البنكية و الاقتصادية لغير العربية .. لقـد نَسَـيْنا .. أو تناسَيْنا .. أو نُسِّينا لغاتنا .. و ثقافتنا .. و حتى مسمياتنا .. و أسماء الثقافات الأخرى بـدأت تزاحمنا .. بل تقطع الطريق علينا.. و تسلبنا أعز ما نملك . و لكن .. إن المتصدي الحقيقـي لهذا التأثير الأجنبي الطاغي .. هم الطبقات الشعبية مبدعة الثقافة القومية ، وحامية حماها ..

إن وسائل الغزو الثقافي ، فكما هي علينا .. وضدنا الآن .. يمكـن أن تكـون أدوات وأسلحة في أيدينا .. و نحن نُعيد إحياء و تقييم و تقويم تراثنا الثقافي القومي ، يجب أن تكون " الوسائط " فاعِّلة ..فالمهام المنوطة بها كبيرة و خطيرة .. و أهمية هذه الوسائط و الوسائل لا تكمن فيها في حد ذاتها .. إنما تكمن في العقول و الأيدي التي تستخدمها .. و البرامج التـي تُعد لها .. و الآثار و الأعمال التي تُختار لنشرها .. فالأيدي إذا ما عرفت طريقها .. والعقول إذا ما أدركت خطورة مهامها .. تتحول نفس الوسائل ، و الوسائط في الأيدي التي تعرف ماذا تفعل ، و ماذا ستفعل إلى وسائط طيِّعة في إعادة الوعي ، و البحث عن الثقافة القومية .

على الرغم من أن فكرة العولمة .. و الصراع الثقافي المحتدم قد جعلت الوضع أكثر فداحة .. و الصورة أكثر تعتيماً .. فإننا لا يمكن أن نفقد الثقه أو نعدم الإيمان في أنه ليس من السهل القضاء على ثقافة أمة من الأمم .. فالثقافة مثلها مثل البـذرة تمامـاً..إذا مـا كانـت الظروف مواتية .. و الأيدي التي ترعاها أمينة وواعية .. فلابد أن تنبت الشجرة .. و تورق الأوراق .. و تتفتح الأزهار .. و تنضج الثمار .. فالكنوز المصرية الفرعونية التـي ظلـت آلاف السنين غائبة في غياهب الجب .. ومدفونة في ظلمات باطن الأرض ما إن تولتها أيدي مدربة حتى طافت أرجاء الأرض و جاءتها ملايين الأفواج .. و ضخت من أجلها مليـارات الدولارات.. ليس هذا فحسب .. بل يجب علينا نحن أولاً أن نحيطها بالتبجيل . . و نشـملها بالرعاية . ونجعلها نماذج تُحتذى .. فبدلاً من ناطحات السحاب .. و الفيميـة .. وواجهـات

الزجاج .. فلماذا لا تكون عماراتنا هرمية .. أو إسلامية ؟.. و أن تكون رغم المستحدثات متوائمة مع ظروفنا البيئية .. و المناخية .. و مستوحاه من تراثنا..

إننا لكي نجعل وسائل الاتصال ، ووسائط النشر و الإعلام في خدمة ثقافتنا القومية لا بد أن ننمي معارف القائمين عليها بمنابع و مفردات الثقافة القومية و نكسبهم المهارات اللازمة ، و الطرق الكفيلة لنشرها بين الشعب .. إن الذين لا يحبون الثقافة القومية .. و لا يُعجبون بها .. و لا يتحمسون لها .. و لا ينفعلون .. أو يتفاعلون معها و لا يعرفون طرق الاستفادة بها .. لا يمكن أن ينشروها ، أو يقدّموها إلى الشعب بالشكل المأمول .. و ربما حتى لا يسعون إلى تقديمها على الإطلاق ..

إن المهام الرئيسة المطلوبة من الذين يودون نشر الثقافة القومية ، لا بد أن تبدأ بالكشف عن منابع التذوق ، و الاستمتاع بالثقافة القومية .. و التقاط الخيط الرفيع في أرواحهم ، ووضعه على أول الطريق .. إن قصيدة . أو أُغنية .. أو موّال .. أو قصة أو رواية واحدة .. أو تمثال فريد يكفي لالتقاط هذا الخيط .. ثم يتلو ذلك الانكشاف الكلي لمنابع الإبداع .. فمثلاً .. إذا كان باب الجامع يوقظ فيك تأثير الجمال .. فيمكنك الولوج من الباب إلى الكمال.. لأن الشيء لا يمكن أن يعُبِّر عن نفسه بنفسه .. فباب الجامع يوجب الإيمان بالجامع ، و معماري الجامع .. و عمَّال الجامع ، ومجتمع الجامع .. و الإيمان .. و الإيمان بالله .

إن العاملين في المؤسسات الإعلامية إذا ما أعطوا الثقافة القومية ما تستحقه من تقدير .. فيمكنهم أن يجدوا فيها ما لا يُحصى أو يعد مما يمكن تقديمه إلى الشعب والتعريف به بوسائطهم .. فالحبُ يُعلمهم أيضاً الطرق التي يستطيعون بها أن يحببوا الآخرين فيما يحبونه .

ما هي الوظائف المنوطة بالفرد و الدولة في تطوير الثقافة ؟

إذا ما ذكرت الأمة .. فليس المقصود هو تجمع بشري لا محتوى له .. بل نقصد التجمع البشري الغفير .. الدائم المبدع ، الخلاق الذي يمتلك لنفسه نمط معيشة .. و حياة .. و الذي اكتسب على مر التاريخ شخصية ناضجة و معطاءة .. له لغته وشعره و فنونه .. و موسيقاه .. و تماثيله .. و أشغاله اليدوية .. و أعرافه .. ومراسيمه .. ورسومه .. أما الدولة

فهي جميع المؤسسات التي شيَّدتها الأمة من أجل الحفاظ علـــى وجودهـــا .. و إعاشـــتها .. وتطويرها ..

إن أول ما يتبادر إلى الذهن عند ذكر الدولة و يأتي في المقدمة .. هو الجيش الـــذي تكوَّن بهدف حماية الأمة من العدو الخارجي .. و التشكيلات الأمنية التي تؤمن النظام الداخلي و الهيئات القضائية و العدلية التي تحسم المشاكل القانونية والقضـــائية بـــين المـــواطنين .. والمؤسسات التي تربي الجيل الجديد و تعلمه.. و تنظم أمور النقـــل و التجـــارة و الصـــحة والمعارف التي تقدم التنوير للشعب .. ثم تأتي المؤسسات التشريعية التي تعلو الجميع ، والتي تسعى لكي تجعل جميع هذه التشكيلات تعمل من أجل صالح الأمة و نفعها .. و تمثـــل إرادة الأمة في أجلي معانيها..

و في هذه المؤسسات يسعى المئات .. بل الآلاف .. و مئات الآلاف من البشر لكـــي يحققوا و ينفذوا الأعمال الموكولة إليهم في ساعات عمل محددة و في أماكن معينـــة ووفقـــاً للقوانين و اللوائح المنظمة لدواليب العمل ..

إن الروح القومية .. و الشعور القومي المسيطر على كل هذه المؤسسات هـــو الـــذي يؤمن حيوية الأمة .. و يوفر نشاطها .. إن هذه الروح القومية .. و ذلك الشعور القومي ينتقل من فرد إلي آخر ، و من جيل إلى جيل عبر الأعمال الثقافية.

إن كل فرد يعمل في إحدى مؤسسات دولته .. و داخل نطاق أمته يجب أن يدرك أن عمله هذا الذي يدين له بوجوده المادي و المعنوي قد أضاف لذاته شيئاً ما .. فكيفما لا يمكـــن الفصل بين البحر و موجاته .. فيجب كذلك عدم التفكير في الفصل بـــين الأمـــة و الأفـــراد والمؤسسات المنبثقة عنها.. فكل فرد هو نقطة داخل محيط الأمة.

إن الدولة يجب أن تمنح الشعور القومي لكل المؤسسات التي توفر بقاءهـــا وتضـــمن استمرارها، و كذا للأفراد الذين يعملون بها .. و هي التي يجـــب أن تقـــص علـــيهم معنـــى وجودهم .. فإن الفرد الذي يعمل بإحدى المؤسسات إذا أدرك أنه يخدم أمته بالعمـــل الـــذي يؤديه ، فإنه بذلك يمنح وظيفته بعداً مقدساً.

إن أهم مؤسسات الدولة من الناحية الثقافية ، هي مؤسسة " وزارة التربية والتعليم .. مؤسسة الثقافة " وزارة " و مؤسسة الإذاعة و التلفاز .. يجب على الدولة أن تعض على هذه المؤسسات بالنواجذ .. لأن الثقافة القومية تخرج من هذه المؤسسات إلى كافة طبقات المجتمع

.. و هي التي تؤمن جمع و حفظ ، و توزيع ونشر و إذاعة كل العناصر المتعلقة بالثقافة القومية .. إنها تُشبه السنترالات والمحولات الكهربائية الفخمة و التي توزع القوة و الحركة الكهربائية على آلاف القرى و المدن و المزارع و المصانع .. فكتاب يوزع من قِبل وزارة التربية و التعليم ، فكما أنه يمكن أن يُفْسد مئات الآلاف من العقول ، فيمكنه أن يلقن تلك العقول الأفكار و المعارف الجيدة .. ومن هنا تلزم الدقة المتناهية في اختيار النماذج والنصوص التي تنشر و يعاد نشرها العديد من المرات ...

في الواقع ... إن كل شيء يبدأ عند الفرد المبدع للقيم .. و هو الذي يُكثر وينمى القيم التي أبدعتها مؤسسات الدولة : ينشرها بين الجميع ، و هو الذي يمنحها صلابة الخرسانة المتينة .. إن نموذجاً جميلاً لدائرة حكومية أو لمدرسة .. أو لمكتبة إذا ما تكرر في مئات المحافظات ، و المراكز و كبرى القرى فإنه يُكسب هذه البلاد وجهاً جميلاً خاصا بها .. إن الشخصيات الخلاّقة التي تُبدع نماذج الفكر و الإحساس و الحياة ، يمكنهم أن يمنحوا شكلاً معيناً لحياة الملايين من رجال الأعمال ، و الفكر و الفنون . إن شخصيات مبدعة معينة هي التي اكتشفت السيارة .. و الراديو.. و الطيارة .. و لمبة الكهرباء .. و ما أن انتشرت هذه المكتشفات ، و انتقلت إلى ربوع المعمورة ، حتى تغيرت طرق التفكير .. و نمط الحياة ومشاعر الناس .. و لهذا .. فإن على من يعمل أو يهتم بالثقافة القومية أن يجعل من كل ما يحبه ، أو يكتشفه أو يبدعه .. مفيداً لبني البشر عامة بقدر فائدته لأمته خاصة .. فخيركم خيركم للناس .. و من هنا تتفوق بعض الثقافات و تتحول من ثقافة محليّة إلى حضارة عالمية تتخطى الحدود و تعمل علي سعادة البشرية جمعاء .. و لا شك أن لهذه الثقافات دوراتها .. كما هو الحال للحضارات .. فلكُلٍ دَوْرَة ومَرْحَلة .. تسود فيها ثم تعتريها بعض وسائل الضعف فيخبو لمعانها .. و تُنَكّس راياتها .. مفسحة المجال لحضارات .. أو ثقافات أخرى تطبيقاً للقاعدة الحضارية التي تقول " ما طار طير و ارتفع إلاّ كما طار وقع .." فهيا بنا لنحلق مع طائر الحضارة التركية و نرى كم قدمت للغرب و للعالم من مفردات ثقافية و حضارية .. و كم كانت مشاركة الترك قُبيل الإسلام في بناء صرح الحضارة العالمية ؟

المبحث الأول

أتراك ما قبل الإسلام ودولهم

١- * الهـــــــــــون

٢- * الآوار

٣- * الگوك تورك

٤- * الأويغـــــور

٥- * التـــــرك البلغـــــار

٦- * القـــــارلـــــوق

٧- * خاقانية الكيمك

٨- * البچنـــــــك

٩- * القومانيين / القبچاقيين

﴿ المبحث الأول ﴾

أتراك ما قبل الإسلام ودولهم

الاسم :

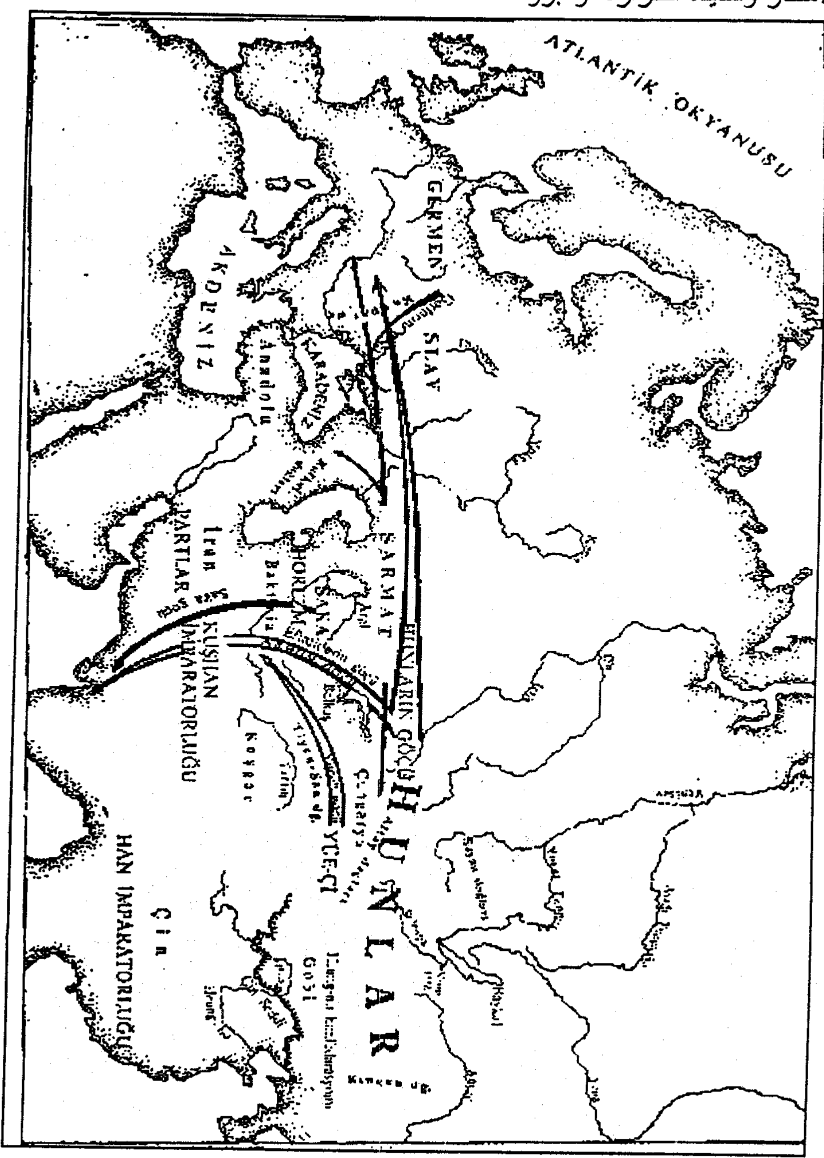
لم يُطلق اسم "الترك" Türkفي العصور الأولى على مجتمع معـين أو بعينـه ، بـل يُستخدم كمصطلح سياسي للتدليل على المنتسبين للمكان .وأول ما نُصادف هذا الاسـم كـان تعبيراً عن دولة الـ" گوك تورك" Gök Türk ،ثم أصبح اسماً مشـتركاً لكـل التجمعـات البشرية التي في هذا النطاق . ومع مرور الزمن أصبح اسماً مشتركاً لكل التجمعات المنحدرة من صلب وسلالة الترك٠

تطلق المصادر المختلفة معاني مختلفـة لكلمـة"تـرك". فبعضـها يعطيهـا معنـى "التكامل".والمؤرخون بصفة عامة يقبلوها على أنها مرادف للقوة والمتانة .وبعض المصـادر الأخرى توضح أن هذه الكلمة تعتبر "لقباً" لمن ينحدر من سلالة"الخاقَانات" ثم صارت تُطلـق على الأقوام الذين يشتركون في الموقع الجغرافي و المنشأ العرقي . الأتـراك مـن الأقـوام الطورانية ذات العرق الأبيض٠

المكان:

تمتد المساحة الجغرافية التي ظهر عليها الأتراك في التاريخ من الحـواف الشـمالية والغربية لسلسة جبال"طانرى دغلرى Tanrı Dağları والممتدة نحو بحيرة الآرال Aral إلى أواسط آسيا الشاسعة . هذه المنطقة هي الموطن الأول للترك . ويعرفها الـبعض الآخـر على أنها المنطقة الممتدة من بحيرة الآرال حتى سلاسل جبال آلتاى Altay وجبال طـانرى وتشمل ضمن ما تشمل بحيرة [بالقاش] Balkaş هذه المنطقة لا تطل على أى بحار مفتوحة ؛ بل هى منطقة بها مناطق ترتفع عن سطح البحر جداً..ووديان تنخفض عن سطح البحر جداً ، فارتفاع جبال"طانرى" ٧,٣٠٠ متراً فى الجنوب..ويقل هذا الانحـدار كلمـا اتجهنـا نحـو الغرب.يصب نهري جيحون وسيحون فى بحيرة الآرال.وفى الشمال نجد نهـر رتـش Irtiş وفروعه.أما نهرى ينيسى Yenisey وسلنغوز Selengöz فيصبا في "بايقال" Baykal وينبع

نهر طاريم=Tarım من جبال قراقوروم Karakurum . هذه المساحة الجغرافيـــة الشاســعة بالرغم من أننا نرى بها أنواعاً مختلفة من الأقاليم المناخية فإن الصفة العامة المميزة لها أنها قليلة الأمطار وشديدة الحرارة والبرودة.



خريطة توضح توزيع الأقوام التركية و هجراتهم

أول ظهور الترك :

تُرجع كل المصادر المعتمدة على الحفريات الأثرية تاريخ ظهور الترك على مسرح التاريخ إلى خمسة آلاف أو أربعة آلاف سنة قبل الميلاد.ولكن هذه الاكتشافات الأثرية لا يمكن أن تكون كافية لتكوين موقف معين تجاه تطور الوضع السياسي والثقافي في المنطقة . وإن كانت السجلات الصينية تتحدث بصراحة عن حكام مناطق الإستيب أى" البوزقير" اعتباراً من عام ١٧٦٦ق . م . وإن كانت هذه المصادر الصينية قد قبلتهم على أنها دول تركية فإنها لم تقدم عنهم معلومات وافية .إن أول تشكيل سياسي تركي معروف هو دولة" صاقا"التي ظهرت في القرن الثامن قبل الميلاد وكان مركزها في وسط جبال"طانري" وامتدت حدودها من الصين حتى أطراف أوروبا . وأول تاريخ مكتوب ومعروف هي تلك الأحداث التي جرت فيما بين أعوام ٦٢٥-٦٢٣ ق . م ومتعلق بدولة الصاقيين .. فقد كانت هذه الكتل البشرية لديها قابلية فائقة في الفزوسية وسياسة الخيل مما مكنها من فرض سيطرتها وسطوتها على القبائل والأقوام المنتشرة في هذه المساحة الشاسعة ٠

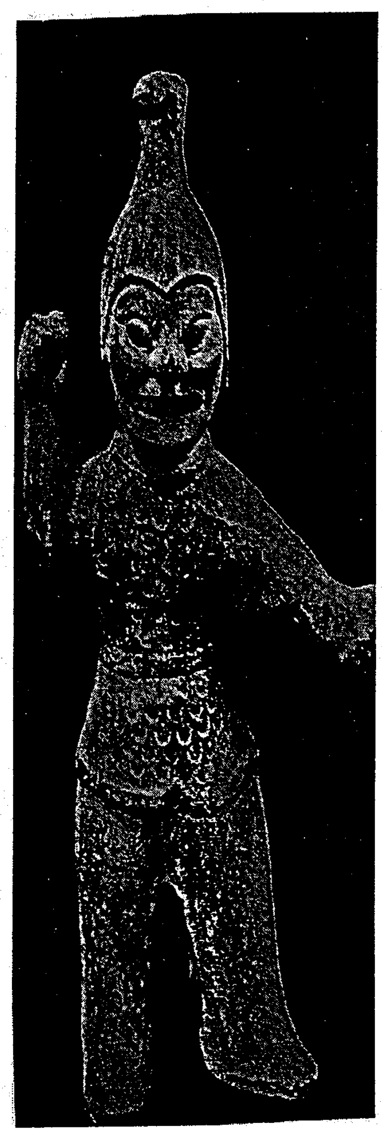
إن حاكم الصاقا الذي يُطلق عليه الإيرانيون "آفرسياب" ما هو إلاَّ [آلب _ أر _ تونجا] Alp-Er-Tunga الذي أدار حروباً كبيرة مع حكام إيران في العصر الآخامينى ..وعاش عصوراً طويلة في ذاكرة الأتراك بملاحمه البطولية الكبيرة .

ثم فيما بعد اضطر هؤلاء الـ" صاقا "إلى الانتشار فى أطراف آسيا وأوروبا تحت ضغط الـ" هون ".. وحافظوا على وجودهم كعنصر مؤثر فيما بين أقوام الإسكيت٠

- الـــــهــــــــــــــون

كانت آسيا الوسطى مسرحاً للعديد من الحركات الثقافية طوال قرون عديدة قد شهدت إزاحة الستار عن الغموض الذي شمل حياة الهون فيما بين القرنين : السابع والثامن قبل الميلاد كما شهدت هذه الساحة تشكيل أول إمبراطورية تركية وتوسعاتها الكبيرة و سيطرتها على كتل بشرية عديدة ٠

إن أول من تحدث التركية هم هؤلاء القوم الذين يُطلق عليهم المؤرخون الغربيون " هون Hun " بينما يطلق عليهم الصينيون [هيونج – نو] . و تُرجع بعض المراجع تاريخ الهون أو آل [هيونج – نو] إلى ما قبل القرن الثاني



تمثال صغير من الفخار لمحارب من الهون يعود إلى القرن الثاني بعد الميلاد و تم العثور عليه فيما بين الحفريات التى تمت فى شمال الصين

و أن موطنهم الأول كان ممتداً فيما بين مغولستان الحالية و جبال ألتاى . وهناك معلومات مفصلة عنهم منذ القرن الثامن قبل الميلاد . و أنهم قد وصلوا حتى نهر [هوانج – هو] في أعماق الصين و كان الصينيون يطلقون على حكامهم [طان خو] Tan hu و لما كان هؤلاء الحكام لهم مكانة دينية عالية فقد كان الشعب يلقبهم بابن السماء Hengrikut Göğünoğlu ابن السماء = ابن الإله .

و مجتمع الهون قد تشكل على أساس نظام أرستقراطي معتمد على الترك ؛ في نطاق هذا النظام الأرستقراطي التابع للخاقان ، كانت العناصر المهمة في أيدي الأمراء المنتسبين للعائلة Teginlerالحكام ، و إلى الذوات أو البكوات Beyler و أصحاب المراكز العسكرية الهامة و هم بدورهم لم يخرجوا عن العائلات التركية الأصلية . وكان قواد الجيش المكون من أربعة و عشرين تومانا (*) و الذي كان في حالة استعداد للحرب دائماً – من المنتسبين للعائلة الحاكمة . و كان هذا المنصب يتوارثه السلف عن الخلف . و كان بين المجتمعات التي تكون دولة الهون فوارق طبقية واضحة . وتوضح المصادر الصينية أن بعض الجماعات المنتسبة إلى الهون كانت تشكل طبقة مميزة بين الألتائين . و ما دونهم هم الذين كانوا يمثلون الطبقة الدنيا في المجتمع . وهذا يوضح أن العبودية عند الأتراك الهون كانت جماعية ، أو طائفية بدلاً من العبودية الفردية . إن مجتمع الهون كان قد تشكل على أساس مجموعات حربية محترفة أو على أساس جيش . و كان كل فرد في هذا المجتمع المتحرك محارباً . كانت مهارة الفرد تُقاس بمدى تثنيته للرماح الصلبة . و كان يُطلق على المصوِّب الحاد [صفر نشان] و كان محاربو الهون يستخدمون إلى جانب القسي و الرماح ، المزارق و السيوف و الخناجر في القتال المتلاحم – و هذه القتالية التي اتسمت بها حياة الهون كانت نتيجة طبيعية لحياة القنص التي كانوا يحبونها .

و في الأزمنة التي ظهرت فيها العشائر التركية على حدود الصين كانت القوات الصينية تمتلك عربات حربية ذات مقدرة فائقة على المناورة بأسلحة الحرب المعروفة آنذاك ؛ و هي القوس و المزارق ، كما كانت تتعامل بالتكتيك الحربي الصيني المتقدم .

وقد كان المحاربون الصينيون لا يضاهون في استخدام وسائل الحرب هذه ، وقد ظل

---

* – كان التومان عند الهون يتكون من عشرة آلاف فارس .

الصينيون حتى القرن الثالث ق . م مرتبطون بفن الحرب و أصولها التي وضعها سلالة شانج Sang الصينية . كما أن المصادر التاريخية تثبت أن أسرة كوف Cov الصينية إلى جانب أنها كانت تمتلك ألف عربة حربية ، فقد كانت صاحبة قوى حربية لم يتصورها عقل في عهودها الأخيرة . و قد كان في كل عربة ثلاثة أفراد ، الميمنة يقوم باستخدام المزارق والميسرة يستخدم القوس ، أما من بالوسط فقد كان يقوم بالقيادة ،و يأتي خلف كل عربة من المشاة فرقة مكونة من اثنين و سبعين محارباً علاوة على خمسة و عشرين مرافقاً آخر يقومون بتلبية كل ما يحتاج إليه هؤلاء المحاربون . و هكذا كان خلف كل عربة حربية وحدة مقاتلة مكونة من مائة شخص وكانت في البداية تقوم بأكثر مما كان متوقعاً منها أو منوطاً بها ، و لكن مع تقدم الزمن و سيطرة الطبقية على الجيش بدأت مساوئ هذا العدد غير المتجانس طبقياً تطفو على السطح. و فسد فن الحرب الذي كانوا يطبقونه ، و فقدت تلك العربات مقدرتها الحربية الضاربة و المخترقة . وأضحت هذه القوة غير قادرة على مواجهة الهون القادمون من الشمال ، و خاصة من منطقة "أوردوس " Ordos و محاربتهم . ومن هنا شعر الصينيون ضرورة تغير تكتيكهم الحربي دون ضياع للوقت ، و هكذا ، فبينما قد شكل الهون مرحلة في تطور العسكرية الصينية فإنهم أي الصينيون قد تركوا هذا المجتمع المتحرك تحت التأثير الثقافي و الفني للكتلة الصينية المستقرة .

و فجأة فقدت "العربة الحربية " التي كانت أقوى وسائل الحرب في عصرها كل أهميتها ، لأنها لم تعد تساوي شيئاً في الصرع أمام القدرة الفائقة على المناورة والخفة لفرسان الفيافي . و لم يعد أمام الصينيين من حل لمواجهة الهون إلاَّ أن يتعلموا منهم و يأخذوا عنهم الكثير ؛ فكان على الإمبراطور " ويو– لنج " أن يبدأ حركات الإصلاح فيما بين سنوات ٣٢٥ – ٢٩٨ ق .م " أولاً . و أن يأمر جنوده بارتداء ملابس فرسان فيافي الهون . و أن يتعلموا ركوب الخيل و فروسيته . ونتيجة لإصلاحات (ويو – لنج) هذه فقد كان ركوب الخيل وسياستها ، بدلاً من قيادة العربة الحربية . و ارتداء الجاكيت و البنطلون اللاصق للجسد أثناء الحرب ، بدلاء من الملابس الفضفاضة ، و حذاء الفروسية الطويل المصنوع من الجلد بدلاً من الخف الصيني اللين من أوائل و أهم هذه الإصلاحات .

تعتبر المراجع الصينية الخاقان [طويو – ماو] أو [تيومان] حسب النطق التركي ؛ هو أول إمبراطور للهون ، و قد وصل إلى السلطة حوالي ٢٢٠ ق . م ، وهو الذي حاول

جمع الترك تحت علم واحد . و ألقى الأسس أو اللبنات الأولى في بناء إمبراطورية كبيرة .
وفي سنة ٢٠٩ ق . م انتقلت السلطة إلى [مته] ابن [تيومان] الذي يطلق عليه الأتراك [بهادر] و قد قام هذا الخاقان بهجمات متتالية لمدة خمس و ثلاثين سنة خلال " ٢٠٩ - ١٧٤ ق .م " حتى وصل إلى مركز القارة الصينية . و امتدت حدود الإمبراطورية في عهده من المحيط إلي بحر الخزر ، و من سيبريا في الشمال إلى الهمالايا في الجنوب . و قد أثبت المؤرخون أن [مته] هذا ما هو إلاّ أوغوزخان] في الملاحم التركية . و قد نجح في أن يحول العديد من الجماعات الرحل إلى حياة منظمة مستقرة . و أن يشكل منهم جيشاً منظماً مضيفاً تطوراً جديداً في فن الحرب . و يتضح من الخطاب الذي أرسله الخاقان الشاب إلى إمبراطور الصين أنه قد نجح في هزيمة جيوش ست و عشرين دولة و توحيد أكثر من خمسين إقليماً مسلحاً في آسيا الوسطى . وأن يجعلهم يعيشون في سلام و طمأنينة تحت حمايته . كما أن الرواة و شعراء الهون لم يملوا قط التغني بالملاحم و الأساطير التي صاحبت اعتلاءه العرش . و أن تلك الأساطير قد وجدت طريقاً ممهداً لاختراق سد الصين العظيم ، وتستقر في صفحات التاريخ التي أعدها المؤرخ الصيني [جيبو - مارش] فبينما كانت أصول الوراثة عند الهون توجب اعتلاء [مته] للعرش خلفاً لوالدة [تيومان] غير أن الوالد - لأسباب لا يعلمها الابن - قد ورَّث العرشَ لابن آخر. و قد أعد خطته بدقة و مهارة فائقة حتى لا يتسبب في عصيان أو ثورة ؛ لدرجة أنه قد وضع في هذه الخطة احتمال قتل ابنه ، إلاّ أن شجاعة و مهارة الأمير كانت تنقذه دائماً من مثل هذه الخطط ، حتى وصل الأمر بوالده أن أرسله رهينة لدى عدوه اللدود " يوه - جي " بموجب الاتفاقية الجديدة التي عقدت بينهما .

و قد كان [يوه - جي] في نزاع مستمر مع الهون في المناطق التي يقطنونها بالقرب من مناطق [طون يولنج] على الحدود الغربية للصين . و قام تيومان باختراق واضح لهذه الاتفاقية عقب تسليم الابن كرهينة . إلاّ أن الأمير الشجاع قد استشف الأمر ووجد لنفسه الوسيلة التي جعلته يعود إلى وطنه سالماً .

وقد تعمد الأب إهمال الابن و جعله يعيش في شبه عزلة وسط ألف فقط من الأتباع إلاّ أن [مته] كان يدرِّب من في معينه على طريقته الخاصة . و في كل يوم وهم يتجولون على ظهور خيولهم ؛ كان يأمرهم أن يصوبوا سهامهم حيث يوجه هو قوسه ، و كان في

البداية يوجه سهامهم إلى الحيوانات المتوحشة كما كان لا يتردد في قتل أو إعدام من يصوب سهمه نحو هدف لم يعينه هو شخصياً له ٠

قد دفعه الظلم و الغدر و الإهمال الذي عاش فيه إلى التعامل بالمثل حتى إنه – لكي يعوِّد أتباعه على النظام و الطاعة العمياء و تصويب الهدف إلى حيث يُريد هو شخصيا لا إلى حيث يريدون هم – لم يهتز عندما أمرهم بتصويب سهامهم إلى حصانه المفضل و من بعده إلى زوجته المحبوبة ٠

فقد كان يريد الطاعة و عدم الرحمة . و بعد هذا الإعداد المتقن لم يتوانَ عن قتل أجود جياد والده ، و أصبح يثق ثقة كبيرة فيمن معه . و في النظام الذي دسَّه فيهم . و لهذا استغل أول فرصة واتته عندما خرج إلى الصيد مع والده ووجه قوسه نحوه وأطلق سهمه ، وفي أقل من لمح البصر كان سهام كل من في معيته موجهة نحو نفس الهدف . و قتل والده . و أصبح [مته] خاقان الهون ، و لم يتراجع لحظة واحدة عن قتل أقرب المقربين إليه أو من تسول له نفسه التدخل فيما يجري و حوّل الكتل المرتحلة المتنقلة إلى جيش منظم مدرب وأضاف إلى ذلك الجيش تكتيكاً متطوراً إلى جانب تكنيك الحرب بحيث لم يعد أي محارب حراً في إطلاق سهمه كيفما و أينما يشاء . بل أينما و كيفما يشاء قائده ، و أصبحت وحدات الفرسان تُدار من قِبل قوادها، كما كانت تستخدم السهام التي تصدر صفيراً معيناً لتحديد الاتجاه أو الهدف المقصود طبقاً لتكنيك الحرب المدارة ٠

إن الدراسات التركية تعد [مته] Mete هو أول من أرسى مبدأ : [إن الأرض هي أساس بناء الأمة] عند التحدث عن المبادئ القومية و بناء الأمة ، كما أن صفحات التاريخ تبين أن[مته] هذا بعد أن تمكن من إلحاق هزيمة ساحقة بـ [طيونج – هو] نجح أيضاً في القضاء على أقوام [يوه – جي] و أخضع كثيراً من عشائر شمال الصين لنفوذه كـ [تنيج – لنيج] و [سين– لي] و[كيين – قو] و[ولو – سون] إن من بين ما تحتويه النقوش والمتروكات الصينية صوراً تبين أن فرسان الهون كانوا يستخدمون إلى جانب القسي والرماح الحراب الطويلة ، كما كانوا مهرة في الاتجاه إلى الخلف و إلقاء سهامهم على الأعداء عند الانسحاب من أرض المعركة و قد انعكس ذلك على الرسوم و الفنون التركية حتى عصر العثمانيين ٠

إن الدراسات التاريخية الحديثة تبين أن عائلة [تي – سين] الصينية قد عانت كثيراً في مواجهة هجمات فرسان الهون المتكررة ، و أن هذه المعاناة كانت تدفعهم إلى التفكير في وسيلة لوقف هذا الهجوم المتدفق . و نتيجة لهذا التفكير قد أعادوا تعمير السور الذي كان قد سبق أن أنشأته الأسر الصينية المتطاحنة فيما بينهم ، و لكنهم اتحدوا فيما بينهم و أعدّوا مشروعاً لسدهم العظيم الذي ظهر إلى الوجود بعد ذلك بفترة و جيزة . و كان طوله ٢٤٥٠كم و ارتفاعه ١١ م و عرضه ٧,٥ م إلاّ أن هذا السد العظيم لم يحد من هجمات الهون و أن [مته] بجيشه المنظم و بفرسانه المهرة قد شنوا العديد من الهجمات على ذلك السد الكبير و قد اتسعت إمبراطورية الهون التي كانت تتكون من أربع و عشرين عشيرة بعد هزيمة [يورْجي حوالي سنة ١٧٧ ق .م] حتى و صلت إلى التركستان الصينية غرباً ، بل هناك من الحفريات الحديثة التي تفيد أنهم قد و صلوا قازاقستان و قيرغيزستان ، و مازال خبراء الحفريات القيرغيزية يقومون بدارساتهم على مدافن الهون التي وجدت في تلك المدافن.

إن الإمبراطور الصيني [ويو- تي] (من ١٤٠ / ١٤٧ ق . م) قد سعى سنة ١٣٩ ق . م لإيجاد حلفاء ضد الهون ، و قد كلف أحد رجاله المقربين بمهمة الاتصال بحاكم الـ " يوه – جي "الذين كانوا قد استقروا في Boktriya أي أفغانستان الحالية . و لكن سفيره وقع في أسر الهون .وعندما نجح بعد عشر سنين من الهرب لم يوفق أيضاً في تحقيق مهمته لأن الـ " يوه – جي " كانوا قد رحلوا إلى أفغانستان و لم يكن يعرف موطنهم الجديد . إننا نجد أن صراع الهون و الصين قد استمر إلى القرن الأول بعد الميلاد و إن كان التصدع قد بدأ يصيب إمبراطورية ، الهون فقد اتحدت الأسر الصينية ضد الهون و قد ساعد على ذلك أيضاً النزاع الذي نشأ بين أفراد الأسرة الحاكمة . إلاّ أن المؤرخ " إبرهارد " Eberhard . يسجل أنه رغم ضعف إمبراطورية الهون و تشتتها ؛ فقد نجحت بعض جماعاتهم المتوطنة داخل حدود الصين من تكوين دول خاصة بهم و أن سلالة خان الهون قد استمرت في الصين حتى القرن الخامس بعد الميلاد .

هذا ومازالت الأبحاث التاريخية منذ القرن الثامن عشر تجرى لإيجاد روابط بين هون آسيا و الهون في أوربا ، و قد كان رائد هذه الدراسة هو الباحث الفرنسي [دجيونيه] Deguines الذي درس المصادر و الحفريات الصينية و كذا النقوش اللغوية الصينية القديمة

و تعقب [لفظ الهون بينها لكي يدعم نظريته القائلةً بهذا الترابط المشار إليه]. كما قام كثير من الباحثين الغربيين بدراسات مستفيضة عن مادة [هون] أو [خون] أو [قون] لكي يصلوا إلى رأى قاطع في هذا المضمار. بل هناك من يربط آتيلا و الهـون و يُرْجـع كثيـراً مـن الهجرات الكبرى التي اجتاحت الغرب ووصلت إلى أوروبا و المجر و نهر الطونـا و مـن ناحية أخرى إلى الهند و بحر الخزر و سيرداريا إلى هؤلاء القوم ، و أنهم سنة ٤٨٤ م قـد هزموا فيروز الإمبراطور الساساني هزيمة منكرة و أنهم نفس القـوم الـذي اتحـد خسـرو أونوشيروان الساساني مع خاقان الـ [گوك تورك] زيزابـول سـنة ٥٥٠ ضـدهم . و إن الـگوك تورك هم الذين قضوا على نفوذ الهون البيض في الهند .

قد انقسمت إمبراطورية الهون إلى قسمين سنة٥٣ ق.م ؛جيجى خان في التركسـتان الغربية .وبانهيار هذا القسم حدث نوع من التوقف في نمو إمبراطورية الهـون.إلاَّ أن سـنة ١٣ق.م شهدت صحوة جديدة للهون،فقد انطلقت قوة الهون وتطورت من جديد فى الغرب فيما بين ٤٦ _ ١٧ ق.م . والمصادر الصينية هي التي تنير هذا الجانب.وتبين أن القلاقل الصينية هي التي أفسحت المجال لتطور هذه الدولة.

وخلال عام٣٨ بعد الميلاد كان هناك تبادل للسفراء بين الصين والتركسـتان ..وقـد طلب سفير التركستان مساعدة الصين ضد الهون . إلاَّ أن إمبراطـور الصـين لـم يحقـق للتركستان هذه الأمنية.

وكما تسجل المصادر التاريخية القديمة فإن الهون حاولوا أن يخلقوا نوعاً من الوحـدة العرقية بين سكان أواسط آسيا من بنى جلدتهم وأن يحافظوا على استقلالهم.

وعندما ضرب الجفاف بلاد الهون سنة٤١ بعد الميلاد ،وعقب وفاة إمبراطور الهـون في نفس السنة وتوالى الآفات الطبيعية ، وتحت ضغط أقوام المغول في منـاطق أورخـون ، ونزاع الأبناء على العرش بعد وفاة الأب اضطر الهون إلى النزوح نحو الغرب فى تكـتلات بشرية كبيرة ، وتوجهت موجة كبيرة منهم نحو جبال آلتاى . ونجحوا فـي عقـد اتفاقيـات تجارية وتفاهمات سياسية مع دول الجوار، مما مكنهم من الإبقاء على هـذه السياسـة حتـى عام٧٢ بعد الميلاد.

بعد هذا التاريخ ، وبعد أن قويت شوكتهم استطاعوا أن يهددوا العواصم المجـاورة ، وأن يسيطروا على طريق الحرير ويفرضوا عليه نفوذهم. وهذا بالطبع أوجد العديد من القلاقل

مع الصينيين الذين كانوا يودون أن يعيشوا في سلام مع هؤلاء الهون . إلاّ أن الصينيين لم يجدوا مفراً من الزج بأعداد كثيرة من جنودهم وخيرة جنرالاتهم نحو أواسط آسيا .. مما اضطر الهون إلى ترك عواصمهم للصينيين وانسحبوا بعيداً.. وتوالت أعمال الكر و الفر بين الأمتين إلى أن تمكن الصينيون من الزج بأفواج جديدة من الجند فيما بين٨٩-١٠٥ بعد الميلاد، وأجبروا الهون على الانسحاب من جديد نحو الغرب ..ولكن أيضاً..بعد انسحاب الصين ..ظلت أواسط آسيا تحت تأثير الهون حتى ولو لم تقم لهم قائمة بعد ذلك٠

القائد آتيلا وهون أوروبا:

تُؤيد المصادر التاريخية ظهور أقوام الهون فى أوروبا اعتباراً من القرن الثاني للميلاد .و أول من أسس دولة للهون في أوروبا هم [خانات آتيلا].ويظن بعض من المؤرخين أنهم امتداد لهون آسيا٠

إن الهون بعد أن نجحوا في فتح [آلانيا] لم يعد أمامهم سوى بدء هجماتهم على الولايات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية٠

ولقد تعرفوا على مكونات ثراء الأناضول عند فتوحاتهم فى إيران ، ومن هنا فإنهم فيما بين أعوام٣٦٣-٣٦٥م دخلوا إلى بلاد آرمنيا مروراً ببلاد قافقاسيا ومن هناك تقدموا إلى ميزوبوطاميهMezopotamya أي بلاد ما بين النهرين .وحاصروا [أورفه] ، وتعرفوا على الديانة المسيحية من السريان المقيمين في [أورفة] آنذاك. ثم تابع الهون زحفهم حتى دخلوا بلاد المجر نحو الغرب .وبذلك أصبحوا جاراً للإمبراطورية البيزنطية .وقد دخل عدد ضخم من الغوط الغربيين إلى الأراضي البيزنطية هروباً من الهون . ولقد تمكن الهون من تهديد حدود روما نفسها .وإن كانوا لم يحولوا أنظارهم بعد عن الأناضول٠

عاش هون أوروبا أيضاً حياة التنقل والترحال في السهول الممتدة بين نهري الطونا Tuna وتيسا Tisa في المجر .ووجدوا أنفسهم في نفس الوقت يسيطرون على موقع إستراتيجي يسيطر على كل الطرق المؤدية إلى أعماق أوروبا. ونجح الهون في استخدام الغوط في السيطرة على البلدان الآنجلوسكسونية. وبلغت حدود إمبراطورية آتيلا حتى حدود هولندا والدنيمارك . ولم يكتفوا ببسط نفوذهم السياسي على هذه المناطق بل كانوا يعينون بعض رجالهم في النقاط الاستراتيجية المهمة٠

و اعتباراً من القرن الخامس الميلادي بدأ الهون يهاجمون الأراضي البيزنطية في تركيا و شبه جزيرة البلقان . و كان الإمبراطور البيزنطي في كل مرة يُقدِّم الضرائب الكبيرة لهم طلباً للصلح معهم و بعد أن استقل آتيلا بالحكم عام ٤٤٥م . أعاد تخطيط الحدود مع بيزنطة و فرض ضرائب جديدة . و أجبر إمبراطور بيزنطة الشرقية على حسن استقبال سفرائه . و بعدها حوّل جل اهتمامه نحو روما أي نحو إمبراطورية روما الغربية •

يعتمد الهون على الرعي " و تربية الماشية ، و يرتبطون بحياة وثيقة مع قطعانهم . يتغذون على ألبان حيواناتهم و يعوضون نقص اللحوم بصيدهم حيث كانوا يبتعدون عن ذبح قطعانهم . كانوا يفضلون العيش في الخيام . حتى آتيلا نفسه كخاقان كان يُفضل العيش في الخيام أو في قصور من الأخشاب .. رويداً .. رويداً اعتادوا على مأكل و مشرب الأقوام المتوطّنة .. و حسب ملاحمهم فإن الهوني يعيش فوق ظهر حصانه .. يأكل و يشرب .. بل هناك قرارات مصيرية قد اتخذها الهون من فوق ظهور جيادهم •

يتصفون بصفات المحارب الممتاز .. فرسان يجيدون امتطاء الخيل وتسييسها خيولهم صغيرة و لكنها خفيفة الحركة سريعة الجري . أسلحتهم تعتمد على الرماح والسهام و الأقواس و يعتبرون من أمهر الشعوب في هذا الصدد ، و كانوا جميعاً من طبقة المحاربين•

تنتقل السلطة – حتى في البيت – من الأب إلى الابن . و مَنْ يظهر تفوقاً في الحروب و ميادين البطولة ينتقل من طبقة العوام إلى طبقة الأرستقراطية العسكرية . وتراعى المرتبة الاجتماعية حتى في الأسرة ؛ فالكبار على ميمنة الرئيس أو رب الأسرة و البقية يجلسون على يساره •

كان الهون معتادين على التعدد في الزواج ، و الزوجة الأولى هي ربة البيت و ما بعدها كأنهنَّ جواري . و أبناء الزوجة الأولى للإمبراطور آتيلا هم الذين تولوا العرش من بعده . و هذا ليس معناه عدم احترام النسوة الآخرين ، بل كانت لهن أماكن اقامتهن و حتى قصورهن الخاصة بهن . حتى الآن يصعب تحديد اللغة التي كانت سائدة بين الهون ؛ فشأنهم شأن كل الإمبراطوريات الكبيرة كان من الصعب آنذاك سيادة لغة واحدة •

و لسوف نتحدث عن ميراثهم الحضاري المادي عند الحديث عن الفنون والحضارة •

خاقانية الهون العظماء

لقد شهدت أواسط آسيا صراعات دامية و مستمرة حتى القرن الثالث قبل الميلاد فيما بين القبائل و الأقوام التركية ، وأحياناً فيما بينهم ، و أحياناً أخرى مع الأقوام المجاورة . و قد كانت الأسباب السياسية أو الاقتصادية سبباً رئيساً في هذه الحروب كما كانت سبباً في توحيد هذه القبائل و البطون و الأفخاذ أحياناً و في أحيان أخرى كانت تُؤدي إلى تمزيقهم . و خلال هذه الأثناء ، أقامت الصين سدَّها العظيم لتتقي به الهجمات المتتالية و الشديدة المراس من قبل الأقوام التركية

لقد شهدت سنة ٢٢٠ ق .م نجاح تيومان يابغو في توحيد العشائر والأقوام التركية في وحدة سياسية تحت مسمى الهون ، بهذه الوحدة السياسية بزغت خاقانية الترك العظماء . هذه الخاقانية العظيمة التي تُمثل السيطرة السياسية الواسعة على عالم الترك ، قد حافظت على قوامها المسيطر حتى و إن إختلفت العائلات و المسميات إلى نهاية الأسرة العثمانية ·

لقد شهد مسرح التاريخ قيام دول تركية قوية ، كانت تعتبر أقوى الدول في عصرها . كما كانت هناك دويلات صغيرة .. بل و حتى قبائل و بطون لم تنجح في تشكيل حتى إمارة أو دويلة ، و نجحت في الحفاظ على قوامها القبلي ، و إن ارتبطت بالعائلات الكبيرة التي نجحت في تشكيل دول عظيمة ، و حملت اسمها و تعاونت معها في الحفاظ على كيانها واستمرارها ·

إن الهون من أطول الدول التي أسست أسرة و دولة بين الترك ، و لم يزد عليهم سوى العثمانيين . ففي عام ٢٠٩ ق .م بتولي [متَّه] Mete الابن مكان والده تيومان يابغو . وكان هو نفسه من كل الملاحم [أوغوزخان] . في عصره تم توحيد ما يزيد عن مائة قبيلة و عشيرة تركية في وحدة سياسية واحدة تحت مسمى [الهون] و تلقَّب [متە] بلقب [طاكري قوط] أي ابن السماء . واستطاع أن ينجح نجاحاً كبيراً في الميدان العسكري . و ينجح في بسط نفوذه و سيطرته و بسط الأمن على طريق التجارة الذي اشتهر بمسمى " طريق الحرير " .. و بعد شهرته كقائد عسكري ينال شهرة كبيرة كرجل سياسة و زعامة . من هذا المنطلق نجح في أن يمد نفوذ و سلطة الهون من حدود بحر الخزر حتى المحيط الكبير ·

اشتدت الهجمات و الغارات على الصين بعد مئة .. ووصل الهون حتى سراي الإمبراطور الصيني عام ١٦٧ ق. م .. و لم يفت في عضدهم سوى السياسة التي اتبعها الصينيون (فرّق.. تسد) .. ففي الوقت الذي كانوا يحاولون صد هذه الهجمات كانوا يسعون إلى خلق نوع من التفرقة و النزاع بين القادة و الأمراء الأتراك .. ورويداً .. رويداً بدأت القلاقل و حركات العصيان ضد السلطة المركزية حتى إن " التابغاج " الذين قويت شوكتهم انتقلوا إلى مهاجمة الهون أنفسهم . و ما أن حلّت سنة ٤٨ ق .م حتى انقسمت إمبراطورية الهون إلى قسمين : هون الجنوب و قد دخلوا تحت سيطرة النفوذ الصيني ، و هون الشمال و قد امتد نفوذهم و ثقلهم نحو الشمال الغربي و انتقلوا نحو ضواحي قازاقستان الحالية .

و كلما زاد ضغط التابغاج كان الهون يتجهون نحو الغرب حتى إن عدداً كبيراً من قبائلهم انضموا إلى [جيجي يابغو] في صحاري قازاقستان و الذي يعتبره المؤرخون جدهون أوروبا . و قسم آخر من هذه الأقوام التركية ظل ملتفاً حول التابغاج الذي تزداد سطوته و نفوذه يوماً بعد يوم .

مفهوم الوطن عند الهون :

نُطلق كلمة وطن على الأرض التي نعيش عليها و نؤسس فيها دولة . هو قطعة من الأرض التي عُجِنَتْ بدماء أبنائها . و لقد رأينا في كُتب التاريخ خاقان الهون يقول " أنا لا أسلم الأرض التي تركها لي الأجداد إلى آخرين " كما ذُكِر في نقوش أورخون تعبير [أرض الترك و مياههم] من هذا يتضح معنى الوطن . و حتى الوقت الحاضر ؛ فإن الوطن هو أرض عائلاتنا و موطنهم . و يعتبرالوطن مباركاً و مقدساً . و جميع الأديان سواء الوضعية منها أو المنزّلة ؛ فإنها تحض على الدفاع عن الوطن والتضحية بالنفس و المال في سبيله . و كان الأتراك يؤمنون بـ [الأرواح التي تحمي الوطن] . و تلك الأرواح لم تكن هي التي تجلب الخير و البركة فقط ؛ بل هي الروح التي تحمي العائلة و الأرض و المياه التي تخص العائلة . كما أن هذه الأرواح؛ هي التي تحمي الدولة و الأمة التركية متمثلة في النظام الذي ارتضته لنفسها، فهناك فرق بيّن الدولة و الأمة .

مفهوم الأمة عند الهون :

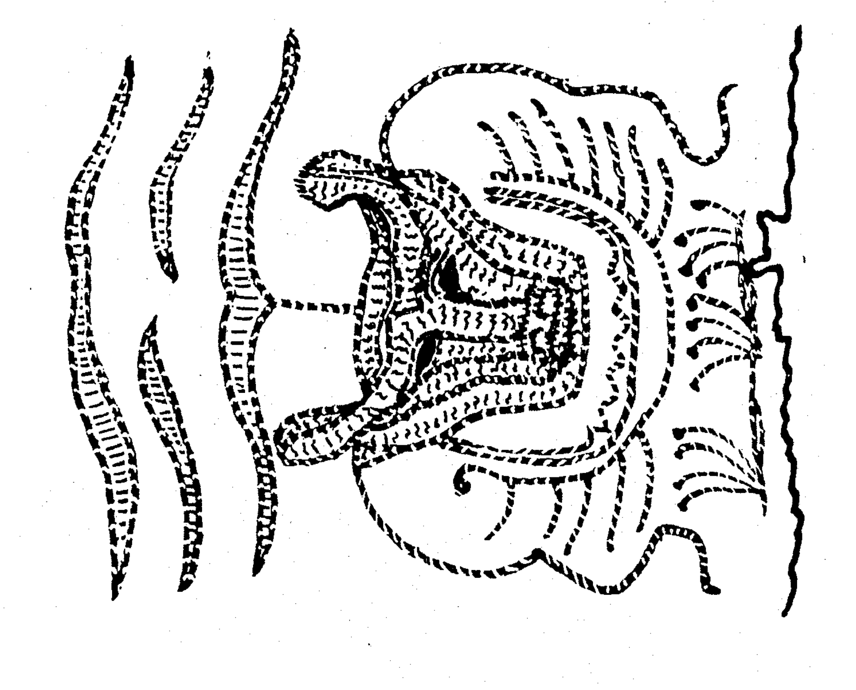
الأمة ليست تجمعاً بشرياً فقط ، بل هي ذلك التجمع الذي عاش معاً طوال القرون التي عاشها ، و ذاق معاً لذة الانتصار و حسرة الانكسار .. هي ذلك التجمع الذي يعيش معاً حلم المستقبل و الرغبة في التطور . إن مجتمع أمة الهون عاش معاً مائة عام من الصراع مع الصين ؛ بدأ بسنة ١١٩ ق .م و تحمل معاً نقمة الجفاف . وهذا مما زاد من تماسك الهون و تعاضدهم . و تعاونهم أمام نفوق حيواناتهم وخيولهم. و بالرغم من كل تلك الشدائد كان الهون يخوضون المعارك وهم يتغنون بأهازيج النصر و نشوة الانتصار .

و في خطاب كتبه متّه إلى إمبراطور الصين عام ١٧٦ ق.م يقول : [.. إن القوم الذي يمسك كل منهم في يده رمحه و قوسه قد تجمعوا جميعاً تحت اسم الهون] .. و جعلهم جميعاً أمة واحدة تفاعلت مع بعضها و انصهرت معاً في بوتقة واحدة.

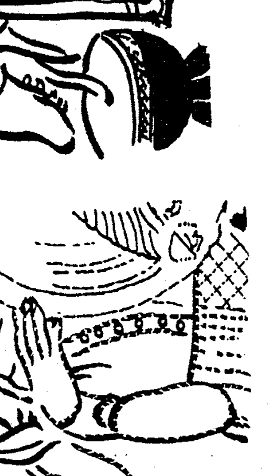
" الأسرة " كانت هي أساس دولة و أمة الهون :

يجب على كل من يتصدى لدراسة التاريخ التركي أن يقف باهتمام حول مفهوم " الأسرة " أي العائلة ، فإن العائلة هي النموذج المصغر لمفهوم و نظام وتشكيلات الدولة ، أو بتعبير عكسي فإن الدولة تستمد نظامها و تشكيلاتها من وحدة المجتمع الأولى و هي الأسرة .... و يذكر متّه أيضاً في الخطاب الذي بعث به إلى إمبراطور الصين تعبيراً مهماً بهذا الصدد حيث يقول :" إن كل الهون كعائلة واحدة " . رغم اختصار هذه الجملة إلاّ أنها تُجسد الامتزاج بين الأسرة ← و الأمة ← والدولة .

و حسب العنعنات الهونية فإن للكبار احترامهم ، فهم مقدمون في المجالس ، مفضلون في الملبس و المأكل و المشرب .. يُطاع أمرهم مهما كان . لم تعرف أمة الهون " الرهبنة " أي وظيفة " الراهب " بل كان الحاكم هو المرشد .. هو الزعيم لكل الأمة . و كان الحاكم موجوداً على رأس الاحتفالات العظيمة .. و كانت الاحتفالات الصغيرة تتم في سراي الحاكم ".. و كانت تقدم الأضاحي لخمسة أشياء؛ إلى الأجداد .. و السماء .. و الأرض .. و الأرواح ..و الإله الأكبر في السماء .. كان لكل قبيلة أو لكل مجموعة شعبية حدودها المحدّدة . و لها مواطن إقامتها الخاصة بها .. و يتم في موسم الخريف عمل تعداد عام للمواطنين و الحيوانات بعد انعقاد مؤتمر عام يعقد كل عام.



الذئب المقدس وطبقات السماء عند الهون (على جلد الماعز)



الذئاب المقدسة في احتفالات دينية

٢-التابغـــچـــيون = الآوار

خلال أعوام ٢٢٠ ق . م تنتقل السلطة و الخاقانية إلى قادة التابغـــچ .. و مـــع أن الهون الذين ظلوا في أواسط آسيا قد دخلوا تحت نفوذ التابغـــچ ، فإنهم استطاعوا أن يحافظوا على كيانهم ووجودهم حتى إن يابغو الهون قد نجح في الاستيلاء على عاصمة الصين عـــام ٣١١ مما اضطر الصينيين إلى نقل عاصمتهم إلى مدينة أخرى . و يسيطر الهون على مناطق شمال الصين .

لم يتمكن التابغـــچيون من توسعة نفوذهم السياسي طوال عصور وجود الهون .. و لـــم يتمكنوا من بسط نفوذهم الكامل على مناطقهم الغربية . و يبقى ثقلهم ونفوذهم محصوراً فـــي مناطق الشمال و الشرق ، حتى النفوذ و التأثير المغولي .

يشهد عام ٣٩٤ م ظهور يابغو الآوار علـــى المســـرح السياســـي بإســـقاطه أســـرة التابغـــچيين و اعتلاء عرش خاقانية الترك العظام . و اعتباراً من هذه المرحلة بدأت الأســـر الحاكمة تستخدم لقب "قاغان" أو " خاقان " بدلاً من يابغو . و بسط خاقان الآوار نفـــوذه مـــن بحيرة " بال قاش " Balkaş حتى الأوقيانوس .

٣-إمبراطورية الــگوك تورك : (٥٥٢ : ٧٤٥ م) :

ظهور الگوك تورك :

رأينا أن نهاية الهون كانت على أيدي الــگوك تورك . فمن هم هؤلاء القوم ؟ و كيف ظهروا ؟ و أين وجدوا على ظهر هذه الأرض ؟

هناك احتمال كبير أن اشتقاق الاسم قد نبع من العبارة التي كان يرددها " بــــلگـــــه قاغان " Belgekagan التركي " مؤسس نقوش أورخون " و التي كان يقول فيها :

" أنا بلــگـــه التركي الذي خُلِق في السماء مثل إله السماء " فإذا وضعنا في الاعتبار أن معنى التسمية هو أتراك السماء = أتراك الله = قوة الله . فإن هذا الاحتمال يكون وارداً .

و هناك احتمال آخر ؛ أن يكون هذا الاسم كان لأحد عشائر " أبناء إجبنيــا " الــذين أسسوا إمبراطورية الهون السابقة و التي رأينا أنها كانت تتكون من أربع وعشرين عشيرة ٠

و على أي حال فإن أول نقش يحمل هذا الاسم هو " نقــوش أورخــون و توضـــح المراجع الصينية انهم كانوا يعيشون في المناطق الغربيـــة مـــن مقاطعـــة [بيـــنج- ليـــانج Pingleang] الصينية . و أن رئيسهم كان يحمل اسم [آجينيا] أما نقوش أورخون – التـــي تُعد المرجع الأول و القاطع بالنسبة لتاريخهم ، فتوضح أنهم ظهروا على مسرح التاريخ في أواخر القرن الخامس الميلادي ، و أنهم كانوا يعيشون آنذاك في منطقة في شمال الصـــين ، وأنهم اضطروا تحت وطأة هجوم صيني إلى اللجوء إلى الآوار مؤسسين دولة مستقلة تحـــت حماية الآوار هؤلاء و قد سمح لهم الآخرون بالتوطن في منطقة بالغرب من [كين – شان] " التون داع " و كان حاكمهم آنذاك ألوغ يابغو [Yapgulug] الذي ينحدر إلى ســـلالته " أولاد آجينا " وإنه كان يتحمل هذه الحياة بمشقة جمّة ، و يتحين الفرصة للخلاص منها و بعد وفاة " أولوغ يابغو " تولى مكانه ابنه " بومين " Bumin = تيومان = و أصبح يـــابغو Yabgu = مدار = حاكم – أي حاكماً . قد اتفق مع أخيه [استه مي Istemi] (٥٥٠) على ضـــرورة الإعداد لحرب تحررهم من هذه التبعية ، و لكن لم يكن هذا بالأمر الهين . أمام [الأوار] أي المغول في ذلك العصر ٠

هذا وقد فكر " بومين " في الاستفادة من الحرب التي كانت تنشب من حين لآخر بين [الأوار] و العشائر الصينية التي كانت تناصبهم العداء ، و في نفس الوقت يتقرب من إمبراطور الأوار ، فما كان منه إلاّ أن طلب يد ابنه الإمبراطور إلا أن الأخير اعتبر ذلك إهانة و رد على طلب بومين قائلاً :

{ لن أعطي ابنتي التي تنحدر من سلالة الأوار الأصلي إلى رئيس جماعة لا توازينا نسباً و يعيش تحت حمايتنا } .. و تزوج " أو – نا – هوائي " O – Na-Hoei إمبراطور الأوار ابنة إمبراطور الصين سنة ٥٣٣ تدعيماً للصداقة و درءً لمخاطر القبائل الصينية الأخرى .

حروب الـگوك تورك الاستقلالية :

و قد بدأت حركات الـگوك تورك الاستقلالية ضد الأوار سنة ٥٥١ م فاستمرت حتى سنة ٥٥٢ و كانت هذه الدولة في نظر الأوار – الذين ظلوا يسودون مسرح التاريخ ١٥٦ سنة – دولة تابعة و لا يمكن أن تضاهيهم قوة و عدداً ، إلاّ أن مجريات الأحداث جعلت نهايات الأوار على أيدي الـگوك تورك إذ تمكنوا من هزيمة الجيش الأواري المكوَّن من مائتى ألف مقاتل . و كانت هذه الهزيمة مهمة ؛ ليس بالنسبة للمغول وحدهم بل أيضاً للصينيين و للدويلات التي كانت تابعة للأوار آنذاك . و يموت الأو – نا – هوئي " . و يتلقب " بومين بـ " قاغان " و يصبح هذا لقباً للـگوك تورك من ذلك الوقت فصاعداً .

و بعد أن استقرت الأمور للكوك تورك اتفق كلٌ من " بومين و ايستامي " على تقسيم الدولة إلى قسمين :

(أ) القسم الشرقي " تولس " و يكون حاكمه " بومين " .

(ب) القسم الغربي " طاردوش " و يحكمه " ايسته مي " تابعاً للقاغان الشرقي وكلاهما سيكون مرتبطاً و متمسكاً بتقاليد " سلالة " أولاد [أ – جي – نا]. و قد كانت الدولة الشرقية محاطة من الجنوب بالصين و التبت و الهند و في الجنوب الشرقي بالأويغور و الغز و في الشرق بالتتار و في الشمال بالقيرغيز و المانـچو طونغوز ، أما القاغانية الغربية فقد كان يجاورها القارلوق و التوركش و العجم الذين يحملون أسماء " الصغد [و آلالاما] و يسكنون [سمرقند] و[بوخارا] و[مرو وبلخ] . و بالرغم من العداء الذي كان يسود بين هاتين

الدولتين و بين جيرانهما فإنهما استطاعا أن يحافظا على استقلالهما و استمرارهما لمدة ناهزت السنة الثالثة والتسعين بعد المائة . و قد حاولت بعض الدول المحيطة أن تدعم صداقتها بهذه الدولة التي ظهرت سريعاً و تألق نورها ، حتى إن إمبراطور الصين أرسل ابنته إلى بومين سنة ٥٥٣ كما أن[خسرو أنو شيروان] شاه العجم قد تزوج بابنة " ايسته مي" سنة ٥٦٣م . و اتسعت دولة الـ [الـگوك تورك] اتساعاً كبيراً حتى عبرت من الغرب جبال الأورال ووصلت إلى نهر الفولجا و من الشرق تخطت شمال كوريا إلى البحر المحيط ، و ضمت تركستان الغربية ، و أصبح " سد الصين " هو الحدود الجنوبية لها. و كان هذا الاتساع السريع يمثل خطراً و تهديداً كبيراً لكل الدول المحيطة ، مما جعلها وإن كانت تخطب و دها علناً فقد كانت تعمل ضدها سراً .

و توالي الأبناء الحكم بعد وفاة أو قتل الآباء في كلتا الدولتين الشرقية والغربية كما كان ينشب الشجار من حين لآخر بين الأبناء و عَّمالهم على الحكم مما كان يضعف من شوكة الدولة ، كما حدث في عهد [چورقاغان = مو] هو الذي يُمثل الإمبراطور السادس للـگوك تورك – و قد استمر الصراع بينه و بين أخيه " إشار قاغان سنة ٥٨٧ م و عقب قتل " چورقاغان " سنة ٥٨٨ م نشب الخلاف و الانقسام على أشده بين أبناء مؤسس دولة [الـگوك تورك بومين وايسته مي] فاستقل أبناء " ايسته مي " بـإدارتهم للقسم الغربي ، ورضي أبناء " بومين " بهذا الوضع مكتفين بإدارة ما تحت أيديهم من المناطق الشرقية .

أدى الانقسام إلى تجديد الأطماع الصينية و سعيها إلى استرداد المناطق التي فقدتها في السنوات السابقة . و قد ساعدها على ذلك أيضاً ما كانت تتمتع به من تأثير اجتماعي و ثقافي بين الأتراك وما كان لها من عيون و نفوذ في بلاط الـ " قاغان "، بل و في فراشه أيضاً عن طريق زيجاتهم من الصينيات و ما كانوا يسعون إليه من تغييرات في السمات و الصفات الفسيولوجية للأتراك .

و قد أثمر هذا النفوذ و أينع في غضون خمس و عشرين أو ثلاثين سنة على الأكثر ، فقد أصبح الأمراء الذين ولدوا من زيجات صينية في مراكز القيادة و النفوذ . ساعدهم في ذلك من كان قد استقر من الأسر الصينية بين الأتراك .

و إن كان هذا لا يعني على الإطلاق أنه لم تكن هناك مقاومة تركية لهذا النفوذ ، بل إن المراجع الصينية ذاتها تفيد ما يؤيد و جهة النظر بوجود هذه المقاومة ؛ فمثلاً عندما طلب "

شي قاغان " المساعدة من إمبراطور الصين حتى يتمكن من إعادة توحيد قسمي الشرق و الغرب أرسل إليه [قا – أدن – صو] إمبراطور الصين خطاباً يعده بالمساعدة إذا ما حقق الشروط التالية :

١) على الـگوك تورك أن يحذوا حذو الصين في جميع المجالات السياسية والاجتماعية و الثقافية ، و سيطبق القانون الصيني بدلاً من القانون التركي ٠

٢) إن اللُّغة الصينية ستكون اللُّغة الرسمية و الخاصة أيضاً بين الـگوك تورك ٠

٣) سيحلق الـگوك تورك شعورهم كالصينيين ٠

٤) إن الـگوك تورك لن يخيطوا أو يعتمدون مقدمات ملابسهم من اليمين إلى الشمال بل العكس من الشمال إلى اليمن كالصينيين ٠

٥)إن مسميات المدن و القرى و الأشياء بل الحيوانات في بلاد الـگوك تورك ستكون صينية و ليست تركية ٠

٦)إن الـگوك تورك سيتعلمون الصينية لكي يستطيعوا القراءة و الكتابة بالصينية ٠

و أنهى الإمبراطور الصيني خطابة قائلاً " لو تعهدت بتنفيذ الشروط السابقة فإنني سأكون مستعداً إلى حوار عقد الصلح ، مع مساعدتكم بالسلاح و العتاد والملابس و الرجال لتمكينكم من إخضاع خاقانية الـگوك تورك الغربية لنفوذ وسيادة خاقانية الـگوك تورك الشرقية ، " و لكن " شي قاغان " خاقان الـگوك تورك الشرقية رد على خطاب الإمبراطور الصيني بما يلي : { إن ولدي الآن في قصركم لتقديم رسالتي هذه إليكم ، إنني أستطيع أن أعدكم بتقديم الجزية من سلالات خيولي الأصلية ، و أستطيع أن أعدكم بنذر حياتي على طاعتكم ، و لكن فيما يختص بحل مقدمات ملابسنا ، و قص شعورنا ، و تغير لغتنا و مسمياتنا و الخضوع لقرابينكم فإن أحداً حتى اليوم لم يقدر عليها أو على واحدة منها لأنها متأصلة في عاداتنا وتقاليدنا وتنبع من عصور بعيدة جداً كما أن جميع الـگوك تورك يحملون قلباً واحداً }

و على هذا فقد تجددت الحروب الصينية – الـگوك – توركية و بينما الـگوك تورك على وشك الاستفادة من ظروف الضعف التي طرأت على الصين ، إلاَّ أن " شي قاغان " توافيه المنية " ٦١٩ " فيعتلي العرش أخوه [چولوق قاغان] وبدأ چولوق قاغان حكمه

بالتقرب الواضح للصين و الصينيين بزواجه من أميرة صـــينية . إلاّ أن الزوجـــة الصـــينية بتكليف من ساداتها في الصين قتلت زوجها بالسم بعد سنة ونصف السنة فقط مـــن الحكــم "٦٢١ م "، و لــم تتـــورع على الإقدام من الزواج من أخيه " كيلـــي قاغـــان " الـــذي لقبـــه الـــگوك تورك "بالقاغان الأسود لفعلته هذه و لكن لم يكن الآخر بأقل من أخيه في التقرب من الصين ، مما جعل البلاد في شبه خضوع كامل للصين لدرجة إحلال العلم الصيني محل العلم التركي. و استمرت هذه الفترة ما يقرب من خمسين سنة تقسمت بلاد الـــگوك تورك إلى ست ولايات ؛ عُيِّن على كل منها قائدٌ صينيٌ إمعاناً في استمرارعملية " تصيين" لبلاد أي تحويلها إلي بلاد صينية .

و لكن في نهاية هذه المدة قيض الله من رجالات الترك من حاول رفع راية العصيان ضد النفوذ الصيني ، و كان ذلك الأمير [تكين] الذي تولى الحكم سنة ٦٨٠ م ، و نجح في تجميع من تشرد من بني نسله و بدأ يناصبهم العداء و يشن عليهم الحملة تلو الأخـــرى . و يخلص بعض المناطق من نفوذهم حتى لقبه القوم " أيل ته ريش " .

إثر تشتت دولة الأوار ؛ هجر البعض إلى الصين ، و توطن البعض الآخر بـــالقرب من جبال القفقاس ، و لجأ البعض إلى دولة بيزنطة عاشوا في استانبول " كجنـــود مرتزقـــة " لإمبراطورية روما الشرقية . أما البقية الباقية في الإمبراطورية المتهاوية فقد خضع الـــگوك تورك . و هكذا ظهرت على مسرح التاريخ سنة ٥٥٢ أول دولة تركية تحمل اسماً تركيـــاً و علماً أزرق اللون " و شارتها " رأس الذئب .

عصر آيل ته ريش قوتلوق قاغان (٦٨٠ : ٦٩٣)

كان أول عمل شغل فكر أيل ته ريش هو إعادة توحيد البلاد ، و قد نجح بالفعل فـــي إخضاع الخاقانية الغربية لحكم الخاقانية الشرقية التي يتولاها هو شخصياً ، و عَيَّن عليهـــا [أجينة تورجه قاغان] و عينّ لمساعدته في الشئون العسكرية أميراً يلقب [بشـــاد] و حكيمـــاً يلقب بـــ [يبَغوُ] و أصر على أن يعود التقليد التركي الذي يحتم أن يتولى "القاغان = الخاقان " أي السلطان قيادة الجيش أثناء الحرب . و يترك تسيير الأمور إلى " الشاد " و ليبغو أثنـــاء غيابه . وقد أَمَّن هذا النظام تغلب الـــگوك تورك على أعدائهم حتى من العشائر = الأقـــوام التركية الأخرى كالـــ[دوقوز اوغوز] و [القيرغيز] و الـــ [أون أو يغور] و غيرهم من

الأقوام التركية التي كانت تعيش في شبة اتحاد فيدرالي مع الــگوك تورك خلال فترات القوة " ٥٥٢ / ٦٣٠ "وانفصلوا عنهم خلال فترة الخضوع للصين . و كما تذكر نقوش أورخون ، فقد أوفد [أيل ته ريش قاغان] سبعاً و أربعين حملة على هذه الأقوام التي ناصبته العداء ، كان من نتيجتها إعادة توحيد أو إخضاع هذه الأقوام لسيطرة الــگوك تورك ، و ساد نفوذهم على مساحة تزيد عن ١٨ مليون كم و استمرت ثلاث عشرة سنة هي مدة حكم " أيــل تــه ريــش قاغان " الذي مات ، سنة ٦٩٣ م .

فترة حكم قاباغان قاغان (٦٩٣ : ٧١٦ م)

تولى قاغان أخو " أيل ته _ ريش قاغان " عقب وفاة أخيه سنة ٦٩٣ ، فكان علــى قاباغان أن يتم ما بدأ به أخوه من تحرير للسيادة التركية و كان يتحين الفرصة لتحقيق ذلك .و قد واتته تلك الفرصة عندما أعلنت العشائر المغولية خيطاي ="قيطان " الحرب ضد الصين . فما كان من قاباغان إلاَّ أن أرسل سراً إلى إمبراطور الصين يعده بالمساعدة ضد المغــول إذا هو وعد بتحرير بقية العشائر التركية . و قد وافق إمبراطور الصين عن رضا و سرور على هذا العرض . و تم الاتفاق الذي على إثره سيَّر قاباغان جيوشه ضد الخطاي و ألحــق بهــم هزيمة أخضعتهم لنفوذ الصين ، ودعمت الصداقة الصينية الــگوك توركية ظاهرياً .

وفي إمبراطور الصين بوعده ، ورفع الوصاية الصينية عن العشائر و الأقوام التركية التي كانت خاضعة لنفوذه ، بل لقد أرسل إلى " قاباغان قاغان " يخطب عروساً من أميــرات الــگوك تورك [قو _ نجوى] إلى ابن أخيه . إلاَّ أن رفض الخاقان التركي لهذه الزيجــة و تعليل ذلك الرفض لعدم تكافؤ الأسرتين – حيث كان يري في نسبه علواً لا يضــاهيه نســب إمبراطور الصين – جعل الإمبراطور يكتم غيظه كمداً ، ويتحين الفرصة بالرد علــى هــذه الإهانة .

جَمدت الصين علاقاتها السياسية و الاقتصادية بالــگوك تــورك و شــمل الصــمت والريبة العلاقة بين البلدين لفترة بددها الهجوم المفاجئ للصين على بلاد الــگوك تورك ، إلاَّ أن جو الصداقة عاد و شمل المنطقة لمدة ثمان سنوات من حكم [قاباغان قاغان]. خلال هذه السنوات الثمان كانت الصين تُعد سراً لحرب ضروس تقضي بها على الــگوك تورك تماماً ، إلاَّ أن الرياح تأتي بما لا تشتهي السفنُ ، و قد كانت نتيجة الحرب لصالح الــگوك تــورك و

فرضت شروط الصلح على الصين بعد أن دخلت عاصمتها الجيوش الغازية . و بناءً على هذا الصلح يتم السلام ، و تنسحب جيوش الـــگوك تورك من العاصمة ، و تعود الصداقة و السلام بين العائلتين و تقدم الصين للـــگوك تورك ما صُرف خلال الحرب ، علاوة على ذلك تُقـــدم الصين سنوياً خمسين ألف حمل من الملبوسات و المأكولات إلى الـــگوك تورك مضافاً إليهـــا مائة ألف قطعة ذهبية .

إلاَّ أن الصين سعت إلي إفساد المجتمع التركي من الداخل مستفيدة من معاهدة الصلح هذه . فأشاعت الفساد بين الأمراء و دست الفتنة بين العشائر و الأقوام ونشرت دعاياتها بـــين طبقات الشعب ضد الخاقان العجوز ، و قد ساعدها و مهد لها في ذلك ظهور مناوئ خطيـــر للـــگوك تورك على مسرح الأحداث التاريخية آنذاك ذلكم هم العرب بعـــد ظهـــور الـــدعوة الإسلامية . و بدء نشرها في ربوع آسيا . لقد صادفت هذه الفترة بدء انتشار الإســـلام ممـــا تسبب في صدام بين بني أُمية و الـــگوك تورك " مما جعلهم في موقف الدفاع ضد الهجمـــات العربية و قد أنهكت هذه الهجمات قواهم ، وكانت أهمها هي تلك التي حدثت سنة ٧٠٧ و سنة ٧١١ م و تسببت فيما يمكن أن نسميه تجاوزاً للحرب الأهلية بين الـــگوك تورك . و قد كان [تورك بلـــگـــه تكين] و أخوه [گوك تكين] يساعدان عمهما في هذه الحرب. و كان مقتـــل [قاباغان قاغان] في ساحة الوغي يوم ٢٦ يوليو سنة ٧١٦ م على يد جاسوس صيني بعد مدة حكم بلغت اثنتين وعشرين سنة عن عمربلغ إحدى و خمسين سنة مما فـــتح الطريـــق أمـــام الصراعات العائلية للوصول إلى العرش .

عصر تورك بلكة قاغان (٧١٦ : ٧٣٤ م)

ترك قاباغان بعد مقتله ثلاثة أبناء ؛ كان أكبرهم [بوغو] أشد المطالبين بـــالعرش إلاَّ أن تورك بلـــگـــه [قاغان] الذي كان قد ترك العرش لعمه المقتول رأى أن من حقه العرش في ذلك الوقت ، خاصة و أن رجالات الدولة و قواد الجيش الذين عرفوه في ســـاحة القتـــال كانوا يؤيدونه في هذا المطلب . كما كان يدعّمه في ذلك قيامه بإدارة المنطقة الغربية من البلاد باسم عمه لمدة تسع عشرة سنة . و كان تورك بلـــگـــه خان هذا قائداً لجيش الـــگوك تورك أثناء المعارك التي دارت بينه و بين العرب خلال سنتي ٧٠٧ و ٧١١ م و نجح إلى حد مـــا في وقف المد الإسلامي مما زاد من كفته في الصراع على العرش ، كما كان له دورٌ بـــارزٌ

في حروب البلاد مع الصين و إيران و في إخماد الحرب الأهلية . إلاّ أنه- لأسباب مازالت مجهولة - استطاع [بوغو] أن يصل إلى العرش ، فاندلعت الحرب الأهلية من جديد و زحف [گـوك تكين] على العاصمة [أوتو كانِ] و تمكن من قتل [بوغو] و تولى [تورك بلـگـه] العرش و أصبح قاغانا أي خاناً سنة ٧١٦ م.

كانت المهمة العاجلة للحاكم الجديد هو إعادة الأمن إلى البلاد و تخليصها من الحروب الأهلية ، و كان له ما أراد ، ثم أعقب ذلك بإعادة تنظيم الجيش حتى يكون قادراً على مواجهة هجمات الصين و الـ " دقوز اوغوز" ، فعيَّن أخاه " گـو ل تكين " قائداً عامـاً للجـيش ، و حماه مستشاراً للبلاد . و لما رأى أن " دقوز اغوز " لم يكفوا عن المناوءة اضطر أن يسـير هو و أخوه إليهم و أنزل بهم خسارة فادحة اضطرتهم إلي توقيع صلح يفرض عليهم الخضوع الكامل لـ" تورك بلـگـه " خان سنة ٧١٩ م و يقدِّم بمقتضاه قوافل الجزية كل عام ٠

إلاّ أن الصين لم تكن لترضى عن ذلك ، فلم تكف عن إشاعة الفتن و تأليب الدويلات التركية الأخرى ضد الـگوك تورك ، مما اضطر [تورك بلـگـه قاغان] إلى شن حـرب جديدة ضد القارلوق سنة ٧٢٠ م أخضعهم على إثرها لنفوذه التام . ولكنه كان يدرك أن هـذه القلاقل لن تنتهي ما لم تضع الصين حداً لتدخلاتها و لن تكف الصين عن هذا التدخل إلاّ بعـد حرب ، فاستشار أخاه و رجالات الدولة و أشاروا جميعاً بإعداد جيش لوقف التدخل الصيني ، و قامت الحرب بين الدولتين . و رغم الخسارة الفادحة إلاّ إنهـا انتهـت بالصـلح لصـالح الـگوك تورك سنة ٧٢٠م ٠

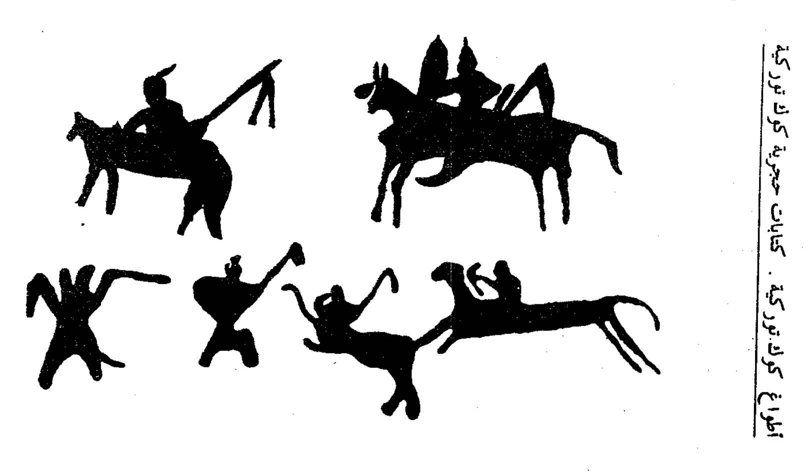
ساد البلاد شيء من الهدوء حتى سنة ٧٣١ م و لم يتخلل هذه المـدة " ١١٠ سـنة " سوى حربين داخليتين لم تتركا أثراً واضحاً في مجريات الأحداث . أما عن سنة ٧٣١ م فقـد شهدت ميلاد حرب ضروس من جديد . فقد أعادت دولة الـ " الطقوز أغوز " بناء جيشـها . ودون سابق إنذار شنت هجمات مفاجئة على عاصمة الـگوك تـورك و أعملـوا السـهام و المزارق في الأهالي ، و أوشك الـگوك تورك بقيادة گوك تكين " على صد الهجمات و ردها إلي بلاد الطقوز أوغوز لولا استشهاد القائد أثناء الحرب في ٢٧ فبراير سـنة ٧٣١ م ممـا جعلها تنتهي لصالح الطقوز أوغوز . وبالرغم من أن هذه الحرب لم تكن الفاصلة إلاّ أنها ، - ومع موت القائد العام - قد دفعت بالبلاد إلى طريق النهاية . عاشت البلاد في هدوء و سكون

لمدة ثلاث سنوات أخرى لم يتخللها أي قلاقل أو حروب ، حتى كان مقتل الخاقان [تور بلگه قاغان] على يد أحد المكلَّفين بحراسته في ٢٥ نوفمبر سنة ٧٣٤ م . فلم تستطع الإمبراطورية أن تعيش بعده سوى ثمان أو عشر سنوات كانت مخضَّبة كلها بالدماء . تولى " بلگه قوتلوق " العرش بعد مقتل والده ، و لكنه كان صغير السن قليل الخبرة مما أفسح المجال أمام والدته في التدخل في شئون البلاد و في إدارة دفة الحكم ٠

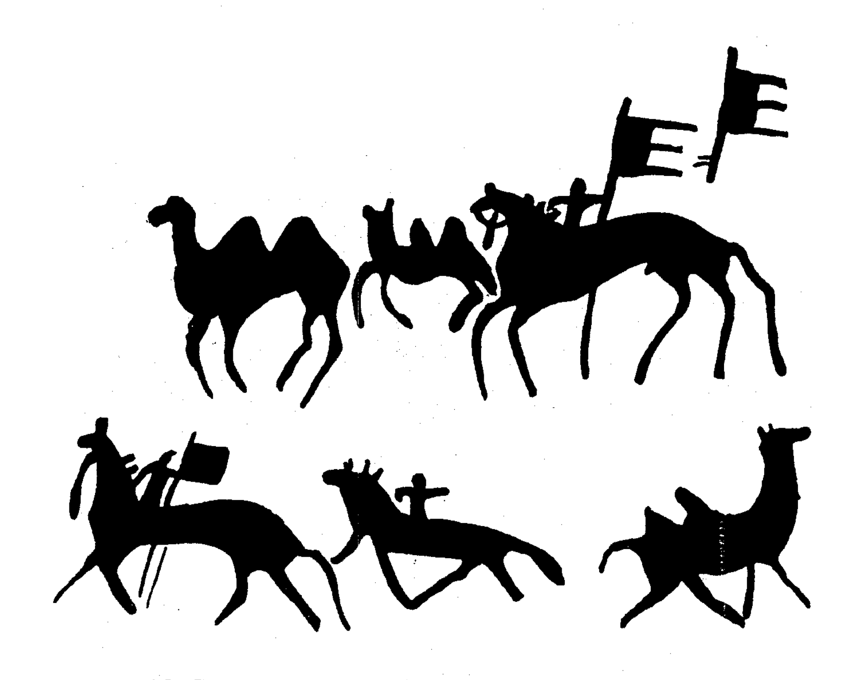
و تصادف أن قتل أيضاً حاكم بلاد الگوك تورك الغربية مما فتح المجال أمام فوضى شملت البلاد في قسميها الشرقي و الغربي حتى وصلت هجمات المناوئين إلى العاصمة [اتوكن] و نجح الموالون للصين في أن يجعلوا الحاكم الشاب – دون علم والدته – يوقع طلباً للمساعدة و حق اللجوء إلى الصين ٠

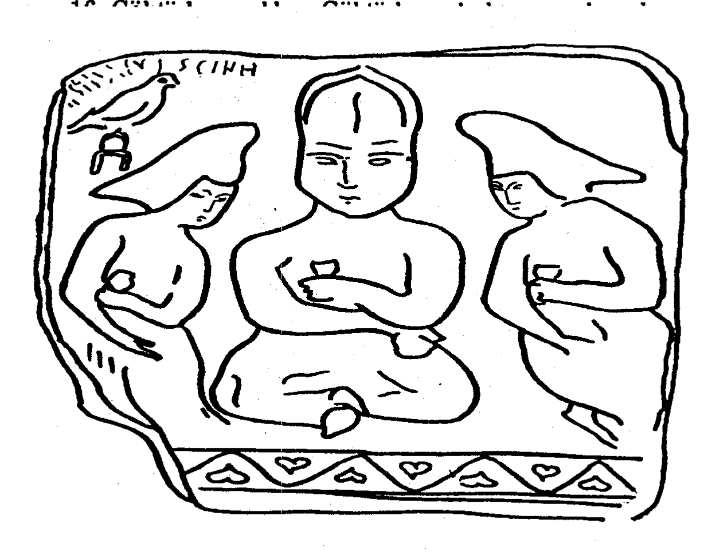
و خلال فترة وجيزة انتشر هذا الخبر بين الشعب ، و اعتبرها الجميع إهانة قومية لابد من الرد عليها فرفع قواد الجيش راية العصيان ضد القاغان . و أثناء حركات العصيان هذه قتل [بلگه قوتولوق قاغان] ، و نشب الصراع من جديد بين سلالة القاغان ، كلٌ يُريد العرش لنفسه .و خلال هذه الفرصة لم تتأخر الصين لحظة واحدة عن اغتنامها لإزالة إمبراطورية الگوك تورك تماماً من الوجود فدعَّمت الأقوام التركية التي كانت تعيش خاضعة لها و داخل حدودها مثل الـ [باسيل] والـ[قارلوق] و عشائر الـ [أون أويغور]٠

و كان الـ [أون أويغور] أقوى هؤلاء الأقوام جميعاً فكان بإمكانهم إعداد جيش قوامه ٢٠٠ ألف مقاتل من تعدادهم البالغ أربعمائة ألف نسمة . و لم يطل الوقت طويلاً حتى شهد المسرح التاريخي ميلاد دولة الأويغور ٠



أطواغ كوك تورك كية . كتابات حجرية كوك تورك كية





أطواغ كوك توركية . كتابات حجرية كوك توركية

٤- دولة الأويغور

الوضع التاريخي لمجتمع الاويغور:

لم ينجح الأيغور في تكوين دولة مستقلة بهم منذ ما قبل التاريخ ؛ فقد عاشوا منذ مـــا يقرب من ألفي سنة تحت سيطرة الهون و الصين و الأوار " المغول " و الـــگوك تورك ثـــم الصين فالقيرغيز و القراخيطاي " مغول " ثم الصين من جديد .

إن الأويغور الذين لم تستقل هويتهم القومية قط ، لم يؤمنوا بديانة الترك "گــوك ديني " ذو الإله الواحد بل اعتنقوا المعتقدات المغولية البدائية . ثم ارتبطوا فيما بعد بديانة إيـــران المانية " Manchnizm " ثم البوذية من بعدها ، و لما وصلت المسيحية إلـــى تلـــك الـــديار اعتنقوا المذهب الناسطوري ، ثم قبلوا الديانة الإسلامية وظلوا عليها .

و إلى جانب هذا التبديل و التغير من دين آخر ، فقد نتج عـــن اخـــتلاطهم الجنســـي بالمغول و الصينيين جنسٌ خليطٌ بين السمات الصينية و المغولية .

و على الرغم من أن الأويغور ينتمون أصلاً إلى الأتراك فإن الصفة التـــي ميـــزتهم كمجتمع هي بعدهم عن السمات أو الصفات التركية في التفكير ، و الاعتقاد والعادات و التقاليد و انضمامهم إلى العشائر و الأقوام التركية الأخرى التي ناصبت الـــــگوك تـــورك العـــداء كالطقوز أوغوز و القيرغيز و القارلوق و الباسميك ، و كذلك التوركش الذين اتضحت هويتهم القومية بعض الشيء أثناء المناوشات العربية التركية خلال الفتح الإسلامي لتلك البقاع .

لقد ظهر الاويغور على مسرح التاريخ في بادئ الأمر كإمارة متحدة تدور في فلـــك الصين ، و كانوا يحملون اسم " جيوش " التي تعني " مهاجري الشمال الحمراء " و قد انسحبوا إلى مناطق الاستبس في القرن الثالث قبل الميلاد ، و عرفوا آنذاك بالـــ [چـــيليس] .

أما في عهد عائلة " واي Wei الصينية التي حكمت الصـــين (٢٢٧ -٢٦٤ م) فقـــد كانوا يعرفون بـــ " ڨاو – جه " و عند انضمامهم إلى إمبراطورية الهون فقد كانوا يتكونـــون من خمس عشرة قبيلة متحدة عرفت في المصادر الصينية باسم [أيو – كير] = [أيو – غير] .

و عندما نجح الـــگوك تورك في القضاء على دولة الآوار و أزالوها مـــن الوجـــود التاريخي كإمبراطورية ، خضع الأويغور – مع غيرهم من المجتمعات التركية – إلى سيادة

الكوك تورك و سيطرتهم (٥٤٥ – ٥٥٢ م) و لكن الكثرة العددية لإمارة الأويغور المتحدة كانت تقلق إمبراطورية الـگوك تورك و تجعلها تتوقع أي شيء من هؤلاء القوم الذين يبدلّون كل يوم من دياناتهم و هوياتهم القومية ويجعلون التهجُّن هو السمة المميزة لعرفهم ٠

و لقد فكر الأويغور في رفع راية العصيان في أول فرصة سمحت لهم .إلاَّ أن " شي قاغان " استغل هذه الفرصة و سيَّر جيوشه على بلادهم سنة ٦١٥ م فاستثار الأويغور حمية القبائل الأخرى لرفع راية العصيان أملاً في الحصول على السيادة والاستقلال ، إلاَّ أن قاغان الـگوك تورك " أتبع سياسة القمع الفورية . وقتل العديد من رجالات [سيه – ين] و [طـو – يو] الذين يشتركون في اتحاد إمارة الأويغور المتحدة ٠

و لكن هذا الحدث شحَذ من همم هذه العشائر و جعلها تصر على استمرار الحرب ضد الـگوك تورك ، و لقد نجحوا – بعد حرب استمرت عدة شهور – في إعلان استقلالهم عن الـگوك تورك سنة ٦١٦ م . و إن كانت نهاية الحرب بهذا الشكل قد هزت كيان الـگوك تورك ، فإنها في نفس الوقت قد أسمعت أواسط آسيا أنباء الأويغور لأول مرة في ذلك العصر . و قد حاول " صدقون شيكه " حاكم الأويغور آنذاك من تشكيل دولة على ضفاف نهر " سلانـگـه " و عقب وفاته تولى الحكم بعده [يو – صا] الذي أظهر تفوقاً و مقدرة كبيرة أثناء القتال (٦٢٩ م)٠

و كانت والدة ملك الأويغور الجديد [يو – صا] سيدة فاضلة نالت شهرة كبيرة بعلمها و خبرتها في إدارة شئون الملك ، و لم تبخل على ولدها بل كانت له نعم المساعد و المُعين ٠

و على الرغم من أن الاويغور قد كسبوا استقلالهم عن الإدارة الـگوك توركية فإنهم كانوا يسيرون في فلك إمبراطورية الصين ؛ يقيمون معها علاقات وطيدة في شتى المجالات ، كما كانت الصين تضع كل ثقلها و تستخدم كل قوتها العسكرية ضد أعداء الأويغور ، و قد كانوا هم أيضاً أي الأويغور – يعتبرون البعد عن الـگوك تورك و السير في أفلاك الصين شرفاً يسعون إليه و يحرصون عليه ، بل جعلوا سياسة السعي إلى إزالة دولة الـگوك تورك التي ينتهجها الصينيون مبدأ أسياسياً يسعون هم أيضاً إلى تحقيقه ٠

و طوال فترة الصراع التي امتدت إلى خمسين عاماً (٦٣٠ – ٦٨٠ م)بين الصين و الـگوك تورك و التي كانت نهايتها لصالح الصين ؛ كان للأويغور دورٌ كبيرٌ في هذا

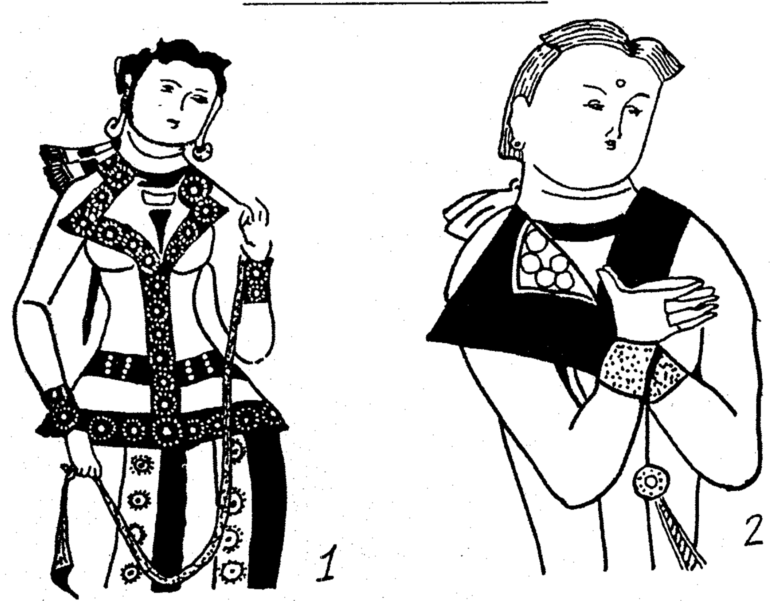
الصراع ، كما كانوا كغيرهم من الأقوام حريصين على صداقة الصين أكثر من حرصهم على علاقتهم بإمبراطورية الـكوك تورك المتهاوية ، و لم تتأخر الصين عن تقديم العون للأويغور ليحلوا محل الـكوك تورك ؛ فما كان منها إلاّ أن قامت بتعبيد الطريق المؤدي إلي بلاد الأويغور وزودته بالكثير من النُزُل " كروان سراي " كنوع من إظهار حسن النوايا ، كما أنشأت العديد من (مراكز البريد) داخل البلاد لتدعيم الروابط بين البلدين .

إن الأويغور الذين يتابعون هجماتهم على الـكوك تورك بتأييد من الصين قد نجحوا في تشتيتهم ، و إخضاع الأقوام التركية الأخرى لنفوذهم . و كتقليد لدولة الـكوك تورك المنهارة فقد بدأ حكامهم يتلقبون بالـ [قاغان] و أقروا هذا اللقب بالقانون حتى و إن كان اسم هذا القاغان اسماً صينياً [طورس – طو] الذي حكم البلاد فيما بين (٦٤٠ / ٦٥٢ م) .

و عقب مقتل هذا القاغان سنة ٦٥٢ م فقد عيَّن مكانه ابنه [بويون = Boyun] تنفيذاً لأوامر إمبراطور الصين و رغبته . و إن كان بون هذا قد حكم البلاد لمدة ثمان سنوات ، فقد أعقبه في الحكم [بيلير قاغان Bilir Kagan] . ثم [طوق – قايت – س] [Tok – Kayit –Si] من (٦٦٠ – ٦٨٠ م) خلال هذه الفترة كان الـكوك تورك تحت قيادة [قوتلوق تكين Kutluk Tegin] يعيدون تنظيم أنفسهم استعداداً لحرب تعيد إليهم الحرية و تعيدهم إلى مسرح التاريخ من جديد . و بالفعل بدأوا في شن هجماتهم من جديد في أواخر أيام [طوق – قايت – س] على كل من الأويغور و الصين في وقت واحد ، و نجح الـكوك تورك في إنزال هزيمة بكلا الجيشين ، و استمرت هذه الهجمات حتى اضطر " بوغداي حاكم الأويغور – بعد موت [طوق – قايت – س] إلى اللجوء إلى بلاد الصين مع رجاله عشيرته .



تجار في زيارة قاغان الأويغور " من طورفان "



35. İki Uygur portresi: Daha eski çağların tesirleri vardır.

وجهي اثنين من الاويغور و يتضح التأثير القديم

٥- دولة الترك البلغار
BULGAR TÜRK DEVLETİ
دولة البلغار الترك

ينتسب البلغار الأتراك إلى نفس قبيلة [الأويغور] . و يرجعون إلى أقوام [تــنج – لنج] المرتبطين بدورهم بإمبراطورية الهون العظمى منذ عصر [متّــه Mete] ٢٠٩ – ١٧٤ ق . م . و لقد انفصل التنج – لنج عن [الغز Oğuz] ، في العصور الســابقة عــن الميلاد . ولقد توطنوا جنوب روسيا و تسموا هنالك بالــ [أوغور] . وبســبب التغييــر و التبديل الصوتي بين الــ [ر] و الــ [ز] فقد تغير الاسم من (أوغوز) إلى أوغور .

و اللغة التركية التي يتحدثها البلغار هي نفسها التي يتحــدثها قــوم [الـــچوواش çuvaş] و هي التركية الــچوواشية القديمة . وبهــا العديــد مــن القواعــد و التراكيــب والمفردات من التركية الغزية .

كان الأويغور و المجريون يعيشون معاً في القرن الخامس بالقرب من جبال قافقاسيا ، ويُعتقد أنهم كانوا موجودين داخل القسم الشرقي لإمبراطورية هون أوروبا .

و يظن بعض الباحثين أن اسم الــ [بلغار Bulgar] مشتق من المصــدر التركــي [Bulgamak بولغامق] ، الذي يعني .. الاختلاط أو التوحد . و أول مرة يصادف فيها اسم [بلغار] مكتوباً كانت في التاريخ البيزنطي سنة ٤٨٢ م .

عندما سيطر الآوار على المنطقة في القرن السادس دخــل البلغار تحت نفــوذهم ، إلى أن هــــزم الــگوك توركــُ الآوار، فقويت شوكة البلغار وكوّنوا وحدة بلغاريــة قويــة تحت إدارة [قوبارت Kubart] فيما بين (٥٨٣ – ٦٤٢) . و اتسعت حدودهم . و بعــد موت قوبارت توزع البلغار إلى ثلاث إدارات يديرها أولاده .

دخل بعضهم تحت نفوذ دولة الخزر ، و تمكن قسم آخر من الوصول إلــى منــاطق الطونا Tuna و كوّنوا دولة البلغار الترك في البلقان عام ٦٧٩ . و هكذا أصــبح هنــاك دولتان للبلغار الأتراك . أ- (إتيل İtil) . ب – طونا .

أ- دولة ترك بلغار إيتل :-

تمكن الإتيل من تشكيل دولة البلغار ، و حملت عاصمتهم نفس اسم [بلغار]، و كان يقطنها خمسون ألف نسمة .

نجح هؤلاء في أن يمدوا حدودهم حتى قازان [Kazan] . و دخلوا تحت النفوذ الثقافي للـگوك تورك .ثم الخزر و عندما وصلوا إلى قمة نفوذهم وصلت حدودهم من حواف جبال أورال إلى نهر أوقه [Oka] و ينابيع [صارمارا Sarmara] . ثم قضى عليهم الهون الغربيون عام (٣٦ / ١٢٣٧ م).

الثقافة : من الناحية الثقافية ؛ فلقد حملت دولة بلغار إتيل ثقافتها معها عندما وصلوا إلى منطقة قازان . وهم الذين نشروا الثقافة المتعلقة بالسيف و الزرد و أدوات الزينة والأزيار ليس إلى قازان فقط بل إلى روسيا و أعماق سيبيريا . و رغم أن بلغار إتيل قد تأثروا بالثقافة المجاورة للمجريين و البيزنطيين و القفقاس المحليين و الفنلنديين والجرمان فإنهم لم ينفصلوا قط عن ثقافة أواسط آسيا . بل شكلوا عنصراً مهماً في الحياة الثقافية و الحضارة التركية الرفيعة في أواسط آسيا .

الدين : بالرغم من قبول الأتراك البلغار للدين الإسلامي منذ أواخر القرن التاسع فإنه لا يمكن القول أنهم قد نسوا تماماً عاداتهم و أعرافهم و معتقداتهم الدينية القديمة .

تشكيلات الدولة و نمط الحياة الاجتماعية :

ليست هناك دراسات موثقة عن تشكيلات دولة إتيل البلغارية التركية ؛ و لكن طالما أنهم ينحدرون من سلالة خان ، فإن الخطبة كانت تُقرأ باسم الخان الحاكم . وأنهم قد ضربوا سكّة باسمهم .

ب- دولة الأتراك البلغارية في الطونا :

كما سبقت الإشارة ؛ فإن أحد أبناء قوبارت و هو [آسپاروخ Asparuh] قد انسحب بمن معه من البلغار إلي حوض طورلا ، و في مقابل الحفاظ على الحدود البيزنطية استقروا في ضواحي الطونا حوالي (٦٦٠ م).

و استفاد هؤلاء البلغار الترك من الحروب العربية البيزنطية ووسعوا حدود مناطقهم ، حتى إن قنسطنطين الرابع شن عليهم حرباً سنة ٦٧٩ للحد من هذا التوسع ، إلاَّ أن البلغار

الترك كسبوا المعركة و امتدت حدودهم من [وارنا Varna] حتى الطونا كلها و ساحات شومنو [Şumnu] الشاسعة ودفع لهم البيزنطيون الجزية ٠

و مما ساعدهم في الحفاظ على حدودهم و وحدتهم تلك السمات التي ورثوها عن الأتراك و هي الفروسية و ثقافة الخيل و السيف و تكنيك الحرب و تشكيلاتها ٠

إن اتفاق البلغار الترك مع ثيودوسيوس الثالث Theodosius وعقدهما اتفاقاً تجارياً فيما بينهما سنة ٧١٦ م ، و المساعدة التي قدمها البلغار للبيزنطيين هي التي حالت دون الاستيلاء على استانبول من قبل العرب خلال الحصار الذي ضرب حولها فيما بين ٧١٧ / ٧١٨ م . (٩٩ – ١٠٠ هـ) ٠

نجح قروم خان Kurum Han الذي تغلب على الآوار والبيزنطيين بعد قرن من الزمان أن يرفع قدرة بلغاريا إلى أرفع مستوياتها ، و تمكن قروم خان هذا من احتلال صوفيا ثم نيس ثم بلغراد عام ٨٠٩ م = ١٩٤ هـ ، و نجح البلغار في السيطرة على طريق التجارة الممتد من أواسط أوروبا ، من بلغراد إلى سلانيك في جنوب شرق أوروبا ووفر لها هذا من النفوذ ما جعلها في مصاف دول بيزنطة والفرنجة [و ما زالت الحفريات الأثرية تخرج علينا كل يوم بأعمال معمارية و فنية رفيعة المستوى ترجع إلى هذه الفترة و هذه الدولة .. ٠

عاشت دولة بلغار الطونا ؛ أزهى عصورها في عهد القيصر سيمون Simeon (٨٩٣ – ٩٢٧ م = ٢٨٠ – ٣١٥ هـ) ، حيث جعل البلقان كلها تحت سيطرة النفوذ البلغاري .و عند حصاره لمدينة القسطنطينية = استانبول عام ٩٢٣ م = ٣١١ هـ غيرَّ لقبه من [خان] إلى [قيصر] ، ذلك اللقب الذي منحه إياه بابا روما آنذاك . فتخلى سيمون عن لقب الخان ذو الجذور التركية ، و حبذ لقب القيصر الروسي.

ضعفت دولة البلغار الترك تحت وطأة الحروب و النزاعات مع البشناك والصرب و المجر و الكروات و البيزنطيين بالإضافة إلى النزاعات الداخلية .وتم احتلالها بالكامل من قبل البيزنطيين سنة ١٠١٨ م = ٤٠٩ هـ . و هكذا انتهت دولة أتراك الطونا الأولى . و تمكن أتراك القومان Kuman الذين ذابوا فيما بين البلغار من إعادة إحياء دولة أتراك الطونا الثانية في القرن الثاني عشر. و ظلت قائمة إلى أن دخلت بلغاريا تحت سيطرة النفوذ العثماني من عام ١٣٩٣ – ١٨٧٨ م = ٧٩٦ – ١٢٩٦ هـ ٠

المعتقدات الدينية و الأعراف الثقافية لدى أتراك بلغاريا = الطونا:

أثبتت الدراسات المعتمدة على المكتشفات الأثرية و النقوش و المصـــادر البلغاريـــة القديمة أنهم كانوا إلى ما قبل القرن التاسع خاضعين للثقافة الدينية والاجتماعية التركية إلـــى حد بعيد ، و يمكن أن نقول ذلك بشكل آخر .. هو أن هناك تشابهاً كبيراً بـــين المعتقـــدات الدينية و الثقافية لدى أتراك بلغاريا مع معتقدات و ثقافات الأتراك الآخرين . و كانت النقاط المشتركة بين الثقافتين كما يلي :

١- كان السيف عند الأتراك سلاحاً مقدساً ، يضعه التركي أمامه عنـــد القســـم . و حـــاكم البلغار قُروميش **Krumış** خان وضع سيفه أمامه عند عقد الصلح مع بيزنطة ، ثم أقسم هو أولاً على الصلح ثم جعل السفير البيزنطي يُقسم على السيف أيضاً.
٢- كان الأتراك القدماء يستخدمون الطوغات المعلق على أطرافها ذيـــل الخيـــل كرمـــز لاستقلالهم و لدولتهم . و نفس هذه الطوغات كانت تُشاد عند البلغار .
٣- كان الأتراك القدماء يطلقون سراح خيولهم بعد الحرب ، و لاتُركب بعد ذلك ، وجزاء من يركبها هو الموت .. و كانت نفس العادة لدى البلغار الترك و يطلقون عليها [جانلى آت قورباني = Canlı at Kurbanı] أي فداء الجواد الحي .
٤- كان الترك و البلغار يستخدمون العُقَاب المزدوج الرأس لجلب الحظ و السعد .
٥- كلاهما استخدم التقويم الحيواني ؛ و تقريباً نفس التتابع لشهور السنة .
٦- هناك تشابه قد يصل إلى حد التطابق في الأسماء و الألقاب و اســـتخدام الصـــفات . و اعتاد البلغار أيضاً إقامة المسلات الحجرية مثل الـ گوك تورك . .

و لكن مع زيادة الكثرة العددية للسلاڤ ، تحولت الثقافة و المعتقدات الدينية التركية رويداً رويداً إلى الثقافة السلاڤـــية ثم إلى الثقافة المسيحية . و اعتباراً من القرن العاشر تحولـــوا تماماً إلى أن أصبحوا قوماً سلاڤياً.

اعتمدت فلسفة تشكيلات الدولة عند البلغار الترك كما كان هو الحال عند الأتـــراك القدماء .. فتعتمد على الأسس الإلهية و تلتف حول [الخان] ثم [القيصر] .. ثم كانت مثل الغز لهم سياستهم " الداخلية " و سياستهم " الخارجية "..

٦-القارلوقيين Karluklar

تذكر المصادر الصينية أن القارلوق = Karlık " ينحدرون إلى إحدى قبائل الـكوك تورك ، و أنهم توطنوا مناطق غرب الآلتاي في ضواحي [قارا إرتيش Kara İrtış] و [طارباغاتاى Tarbagatay] و كانوا يوجدون في هذه المناطق على هيئة ثلاث قبائل متحدة ٠

في البداية عاشوا كمستقلين فيما بين ٦٣٠ - ٦٨٠ م = ٩ ← ٦١ هـ و تم توحيد القبائل الثلاث و تلقب رئيسهم بلقب [يابغو Yabgu] و كوّن جيشاً قوياً . ثم ثاروا ضد الـكوك تورك بتحريض من الصين حتى كان لهم دور مؤثر في القضاء على خاقانية الـكوك تورك ٠ بعد موت بلـگه قاغان = بلغه قاغان = Bilge Kagan . وبعد أن زاد نفوذهم في المنطقة المحيطة بـ [بش باليق Beş balık] و توطنوها ، اختاروا لأنفسهم يابغو مستقلاً وأطلقوا عليه [طون بلغه Tun Bilge] و لكن خاقانية الأيغور المشكّلة في [أوتوكن] أخضعتهم لنفوذها الكامل . و أصبح اليابغو أو الطون بلغه تابعاً للخاقان ٠

لقد تمكن القارلوق من وقف تقدم الزحف العربي الأموي إلى فترة ما . و كان لهم دورهم في حروب [طالاس Talas] التي دارت بين الصين و العرب عام ٧٥١ م = ١٣٤ هـ ... لكنهم فيما بعد انسحبوا إلى منطقة طاريم و ما بعدها . وصارت بلاصاغون عاصمة لهم و إن كانوا خاضعين لنفوذ خاقانية الـكوك تورك الغربية . و كانوا في نفس الوقت يتسمون باسم سياسي هو [التركمن Türkmen] و لكن مع انتشار الإسلام في هذه المناطق دخلوه بشكل جماعي و أصبحوا يمثلون رافداً مهما في نشر الدين الجديد في أواسط آسيا ...

٧- خاقانية الكيمَكْ

Kimek Hakanlığı

وفقاً لما أورده المؤرخ العربي الإدريسى (*) و الجرديزي * فإن الكِمَك اتحاد تكوَّن من بطون الإيمى İmi و الإمك Imek , yimek و التتار Tatar والبلاندور Balandur و القيبـجـاق Kıpçak و اللانقاظ Lankaz] و [الاجلاد Eclad] وحسب ما ذكر في كتاب[حدود العالم] فإن لخاقان الكمَك احد عشر مساعداً [عامل] و هذه [الزعامت] تنتقل بالتوراث من الأب إلى الابن . و من هذا المنطلق يفهم أن بلادهم كانت مقسمة إلى إحدى عشرة منطقة . و أن مساعدي الخاقان كان كل منهم قائداً لعشيرته . و إذا كان الجرديزي يذكرهم سبع عشائر فلربما مع مرور الزمن تحولوا إلى إحدى عشرة عشيرة و هذه [الزعامت] تنتقل بالتوراث من الأب إلى الابن . و من هذا المنطلق يفهم أن بلادهم كانت مقسمة إلى إحدى عشرة منطقة . و أن مساعدي الخاقان كان كل منهم قائداً لعشيرته . و إذا كان الجرديزي يذكرهم سبع عشائر فلربما مع مرور الزمن تحولوا إلى إحدى عشرة عشيرة و في كتاب [مجمل التواريخ و القصص] يذكر أن لقب رئيس الكمك كان [طوطوغ] و أن هذا اللقب يمر في النقوش التركية . و يتحدث السفير العربي تميم بن بحر عن حاكم الكمَك على أنه [ملك كيمك] و يتحدث الجغرافي المسلم المسعودي عن أن الكمَك كانوا موجودين على شواطئ نهري إرتيش الأبيض و الأسمر . كما يذكر الجرديزي أن لقب حاكمهم كان [يابغو Yabgu] .

الإدريسي : أبو عبدالله المعروف بالشريف الإدريسي (١١٠٠ – ١١٦٥) : رحَّالة ولد في سبتة . درس في قرطبة و برع في الهيئة و الجغرافية و الطب و الحكمة و الشعر طاف في بلاد الروم و اليونان و مصر و المغرب و فرنسا و جزيرة بريطانيا .. دعاه روجه الثاني ملك النورمانيين إلى زيارة صقلية فرسم له الإدريسي ماعاينه من البلدان على كرة من فضة ، من مؤلفاته : ٠ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) . انظر المنجد في اللغة و الإعلام

*- الجرديزي : (أبو سعيد عبدالحق) ولد في جرديز بالقرب من غزنة . مؤرخ فارسي . ألف نحو ١٠٤٩ كتاب . (زين الأخبار) فيه تاريخ ملوك فارس و الرسول محمد و الخلفاء إلى عام ١٠٣٢م و تاريخ خراسان من الفتح العربي إلى ١٠٤١ و فيه معلومات جغرافية آسيا الوسطى . أنظر (المنجد في اللغة و الأعلام).

و يذكر الإدريسي عدة أوصاف مقدسة تُطلق على خاقان الكمَك الذي لابد وأنه ينحدر إلى عائلة حاكمة .. كان يتصف بهذه الصفات [يارليـگـ Yarlıg] أو [قوت Kut] أو [قسمت Kısmet] و يُلقب بالبهادر = البطل و الجومرت = الجوّاد . والعظيم ، و محب الخير .. إلخ ..

شارة الحكم و عاصمته :

كانت شارة السلطة و الحكم التي يرتديها خاقان الكيمَك هي غطاء رأس من الذهب و ملابسه مطرَّزة و موشاة بالذهب أيضاً . و كانت هذه من العادات التركية القديمة .. و عُرِف عن آلب آرسلان السلـچوقي أنه كان يرتدي غطاء للرأس طويلاً من الذهب و أن هذا الـ Kab = الغطاء كـــان يقدم بين الهدايا للسلاطين و الملوك.

كان للكيمَك كسائر الخاقانات التركية عاصمة شتوية و أخرى صيفية . و كانت عاصمة الكيمَك كما ذكر السفير تميم بن بحر [النمكية] و يصحح هذه التسمية المستشرق و مينورسكي V. Minorsky على أنها يمكيه Yimekiye بدلاً من Nimekiye .

و يذكر الإدريسي أن بين الكيمَك كانت هناك عملة نحاسية متداولة فيما بينهم ؛ مما يقوم دليلاً على استقلاليتهم.

كان اقتصادهم يعتمد على الثروة الحيوانية كسائر الأقوام الرّحل ؛ و أهم الحيوانات عندهم الخيول و البغال و أحصنة العربات و الأبقار و الأغنام .. و أنهم كانوا يصطادون الجياد البرية و يسوسونها .. و كانوا يعتمدون عليها في أغذيتهم ، لحمها المقدد في الشتاء . و لحومها و ألبانها الطازجة في الصيف ، و كان الكيمَك كغيرهم من الترك يصنعون نوعاً من الخمور من لبن الخيل يسمى [قميز] و مازال معروفاً و مستخدماً بين أتراك أواسط آسيا . و كان يستخدمه المماليك الذين أتوا من هذه الديار في مصر خلال حكمهم لمصر .

و تذكر المصادر الإسلامية أن البعض منهم كان يعمل بزراعة القمح و الشعير و الذرة ، و قسم آخر كان يؤمن معيشته بالصيد و أنهم كانوا يستخدمون الزحّافات الجليدية لصيد الحيوانات الفرائية ... و قد كانت – لظروف المناخ – مساكنهم من الخيام لسهولة التنقل و الترحال . و يرتدون الملابس المصنوعة من أصواف الأغنام وجلود الحيوانات . و اللباد أي وبر الجمال . كما كانت خيامهم من نفس اللباد و أهم تجارتهم كانت في الفراء و المعادن كالنحاس و الفضة و الأواني النحاسية ، و القِرَب.

٨- السَّپچنَك Peçenek

كان السَّپـَـچنَك يعيشون في حوض نهري جيم Gim و يلبيق [امبا Emba اورال] حتى منتصف القرن التاسع ، و لكنهم لم يتحملوا ضغوط أوغوز الخزر فهاجروا في كتل بشرية ضخمة إلى المجر عابرين نهر الفولجا .. و استقروا فيما بين ٨٦٠ – ٨٨٠ م = ٢٤٦ – ٢٦٧ هـ في ضواحي دون – قوبان . و كانوا قبلاً قد اضطروا أيضاً إلى الانسحاب إلى أعماق سيبيريا تحت ضغط الغز و القارلوق .

و إذا كانوا في بداية استقرارهم في المجر ثمانية بطون فقد وصلوا إلى ثلاثة عشر بطناً في القرن الثالث عشر . و تجاوروا مع الخزر و الأوز و المجر و بعض قبائل فنلندا و السلاڤ .

ثم انتشروا في ساحة ممتدة من نهر الدون حتى نهر الطونا ووصلوا إلى ضواحي مدينة كييف في شمال البحر الأسود . و قد عاش السَّپـَـچنَك مع الروس جنباً إلى جنب ما يزيد عن ١٣٠ عاما . إلاَّ أن الروس استفادوا من تشتت السَّپچنَك ، وأنزلوا بهم هزيمة ساحقة جعلتهم ينحصرون فقط في منطقة نهر الطونا . و لكن تحت وطأة الضغط الأوزي انسحبوا أيضاً نحو البلقان . و اتفق بعضهم مع البيزنطيين وتولوا عنهم حراسة الحدود ودخلت أعداد غفيرة منهم في خدمة البيزنطيين اعتباراً من ١٠٤٨ م = ٤٤٠ هـ ووصل الكثيرون منهم إلى الأناضول بهذا السبب .

لقد عاش السَّپچنَك أكثر من مائة و خمسين عاماً في شمال البحر الأسود وكانوا لما يزيد عن مائة عام القوة الوحيدة المسيطرة على هذه السهول المجدبة ... إلاَّ أنهم لم يدخلوا في تشكيلات الدولة قط .

٩-القومانين / القيبچاقيين

Kumanlar / Kipçaklar

يعتبرهم الجرديزي فرعاً من فروع [الكيمَك Kimek] و هم من الأقوام التي عاشت في سهول و براري أواسط آسيا و الممتدة حتى جنوب شرق أوروبا . واختلفت مسمياتهم في المصادر الغربية و الشرقية . و لقد اضطروا إلى الزحف في كتل كبيرة نحو الغرب تحت ضغوط دولة [القيطاي Kıtay]التي تكونت في شمال الصين عام ٩١٦ م = ٣٠٤ هـ .

كان تقدم الكتلة البشرية الكبيرة من القيبچاق نحو إديل / الفولجا في غرب نهر أورال= يايق .و انتشروا في مساحة شاسعة خلال القرن الحادي عشر الميلادي.

تُعتبر الفترة الممتدة فيما بين ١٠٩٠ – ١١١٠ م = ٤٨٣ – ٥٠٤ هـ هي فترة منتهى القوة للقومان و القيبچاقيين . حيث كان على رأسهم باشيوغات أقوياء .

لقد اضطرت روسيا أن تعقد معهم الصلح تلو الصلح لوقف زحفهم و هجماتهم على أراضيها .

و لقد نجح القيبچاق في المحافظة على علاقاتهم الثقافية مع آسيا التي يعيش فيها العديد من أصلابهم ، كما نجحوا في إقامة علاقة ثقافية قوية مع جيرانهم الغربيين.

إلاّ أنهم تعرضوا لهزيمة ماحقة على أيدي المغول في ٣١ مارس ١٢٢٣ م = ٦٢٠ هـ . على امتداد نهر قالقا Kalka . ثم أعقب ذلك بعد بضع سنين ضربة أخرى قضت عليهم بالكامل سنتي ١٢٣٨ / ١٢٣٩ م = ٦٣٦ / ٦٣٧ هـ و لم يعد لهم أثر في سهول البحر الأسود الشمالية .

ثم تفرقت البقية الباقية منهم فيما بين المجر ، ثم انسحبوا إلى البلقان ثم بلغاريا ورومانيا و لعبوا أدواراً مهمة في روسيا وجورجيا ، و جاءت بعض الكتل منهم إلى الأناضول .. و مازالت .. وتوطنت فيه . و احتلوا مواقع رفيعة في دولة الآلتين اوردو = الجيش الذهبي ، . كما تُسجل كتب التاريخ إن للقيبچاق دوراً كبيراً في استمرارية دولة المماليك في مصر .

المبحث الثاني

اللغـــــة التـــركيـــــة

* - المدخل : بدايات اللغة التركية ...
* - نقوش أورخون ...
* - نصب كول تكين * نصب بلگـه قاغان ...
* - الكتابة الأورخونية ...
* - اللغات الأورالية الآلتائية ...
* - الخصائص المشتركة...
* - اللغة التركية و لهجاتها ...
* الأبجديات التي استخدمهتا اللغة التركية ...

المبحث الثاني

بدايات اللغة التركية

المدخل:

إن اللغة التركية المتداولة الآن ترجع أقدم نُصوصها إلى نهايات القرن السابع و بدايات القرن الثامن الميلادي ، وقد وجدت منقوشة فوق نُصُب حجرية بالحروف الـگوك توركية بالخط المسماري .ومنذ ذلك التاريخ ونحن يمكننا أن نتتبع تطورات اللغة التركية .ولقد تم تتابع اكتشاف نُصب تذكارية منقوشة منذ عصور الـگوك تورك والأويغور في وديان ينيسى وأورخون وحوض نهر طاريم Tarim حيث تم اكتشاف لغة مكتوبة على الورق في منطقة طورفان Turfan وخوچو Hoço، وكذلك تم اكتشاف ألواح خشبية عليها كتابات في نفس المنطقة . وإذا كان الأويغور فيما بين القرن التاسع إلى الثالث عشر قد تعرفوا على الحضارة الهندية في حوض نهر طاريم وأنتجوا أدبا ثرياً مكتوباً.. فإن للـگوك تورك أيضاً نتاجهم الخاص بهم والمتمثل في نقوش أورخون أيضاً،و في نفس المدة تقريباً كان كل من أتراك القارلوق Karluk والياغمة Yağma والچيغيل çiğil يخطون خطوات حضارية أخرى فيما حول كاشغر Kaşğar وبالاصاغون Balasağun وعندما تجمعت هذه القبائل والبطون والأفخاد التركية حول القراخانيين أصبحوا وجهاً لوجه مع حضارة آسيا المعتمدة على الثقافة الإيرانية والعربية .وهناك نتاج بين أيدي الباحثين قد ظهر نتيجة هذه المواجهة طوال النصف الثاني من القرن الحادي عشر والقرن الثانى عشر .ولقد كانت اللغة المستخدمة فى نقوش أورخون على نهر ينيسى ثم فى حوض طاريم وأخيراً في ضواحي كاشغر وبالاصاغون هي نفس اللغة تقريباً مع فروق بسيطة من ناحية الصوت والقواعد .وإن كان الاختلاف الثقافى والحضاري قد أدى بالضرورة إلى اختلاف في المعجم اللفظي . فإذا كنا في النصوص الأويغورية نُصادف ألفاظاً ترجع إلى اللغة الهندية و الديانة البوذية ، ففي النصوص القراخانية نُشاهد بكثرة مفردات فارسية وعربية ترجع إلى ثقافات هاتين اللغتين والحضارة

الإسلامية .وإذا كان الأتراك المعاصرون على امتداد الساحة الممتدة من مغوليستان حتـــى شمال البحر الأسود وشرق أوروبا وفى الجنوب في الأناضول وبعــض منـــاطق العـــرا ق يتحدثون اللغة التركية الآن، فإن هذه اللغة هي استمرار وامتداد لتلك اللغة المســتخدمة فـــي نقوش أورخون والأويغور والقراخانيين والتي تُعرف باللغة التركية القديمة .

كما ظهر نتيجة لالتفاف الأتراك الغز حول السلاجقة منذ ما قبل القرن الحادي عشـــر في خراسان وإيران و آذربيجان ثم في العراق والأناضول وسوريا وحتى القرن الثالث عشر امتدت إلى البلقان تلك اللغة ، أو لنقل اللهجة التي تسمى [التركية الغربية] وهـــي بـــدورها امتداد لتلك اللغة القديمة مع فوارق بسيطة وغير شاسعة.

إن أول نصوص تركية والتي تعود إلى القرن الثامن ؛ يعنى تلك اللغة المستخدمة على أحجار أورخون لا تحمل خصائص اللغة التركية كاملة .بل حدث فيها تغيّرعلى نظام اللواحق والبناء القواعدي والمفاهيم المجردة .وتغيرت مفاهيم بعض الكلمـــات والأقـــوال وتعمقـــت ونضجت حتى وصلت أخيراً إلى لغة كتابة.

وبعد أن نستعرض نقوش أورخون وما دار حول اكتشافها على اعتبار أنها أول مـــا وصل إلى أيدي الباحثين فلسوف نرى فى عجالة مجموعة اللغـــات التركيـــة الآلتائيـــة – الأورالية وكذا الفرع الفنلندى والخصائص المشتركة فيما بـــين هـــذه المجموعـــات و أهـــم الأبجديات التى استخدمها.

نقوش أوخون:

إن أول نص يحمل اسم الـــ [ترك] واسم الأمة التركية ،وأول تاريخ تركي ،أو تاريخ مسجل فوق الأحجار و أول نص يبين محاكمة الأمة لحاكمها، وتبين تقديم الحـــاكم الحســـابَ لأمته...أول نص يحمل معنى النظام التركي ، والنظرية التركية ،والثقافة التركية والحضارة التركية.. أول وثيقة تبين الدهاء العسكري التركي ،وأسس الفنون العســـكرية التركيـــة . أول وثيقة تبين الغرور والعظمة الإلهية للترك ،أول لوحة علوية للحياة الاجتماعية التركيـــة.. أول نموذج لفن الخطابة التركي .والأداء الخطابي للسلطان الحاكم.. إنه أصدق نمـــوذج للكتـــاب الأساسي للقومية التركية على مر العصور.. إنه الضوء الذي يضيء الخط البياني للاســـتقامة التركية ..إنه النبع المبارك للغة الترك .والنموذج الأول والفريد للغة الكتابة لدى الترك ...إنه

الدليل القاطع على ظهور لغة الترك في عصور ما قبل الميلاد..إنه الوثيقة التي ترجع تأسيس الجيش التركي الأول إلى ما يزيد عن ١٢٥٠سنة قبلاً.. إنه أول إشارة إلى العلاقــة التركيــة الصينية التي ترجع إلى ما يزيد عن ٢٥٠٠سنة .إنها شواهد قبور ذات معاني رفيعة من ناحية المحتوى الاجتماعي ٠



عندما نذكر نقوش أورخون لابد أن تصطف في ذهن الإنسان كل هـذه الأوصـاف المذكورة أعلاه . إن نقوش أورخون كتابة قد بقيت لنا من عصر الـگوك تـورك Göktürk = أتراك السماء و الـگوك تورك دولة قد تأسست من قبل الهون Hunlar في عصور ما قبل الميلاد. وهي دولة ساد حكمها تحت إدارة عائلات متعددة، وكانت إمبراطورية شاسعة فـي آسيا فيما بين القرنين السادس والثامن الميلادي .كان الآوار Avarlar هم الذين علـى رأس السلطة في النصف الأول من القرن السادس.وفي عام ٥٥٢ أنهـى بـومين قاغـان Bumin Kağan حكم الآوار .وافتتح بذلك عصر عائلة [الكوك تورك] أي عائلة [أتراك السماء] ، وكانت عاصمة الدولة في هذه المرحلة في القسم الشرقي ، وكان القسم الغربي أيضاً تابعـاً للقسم الشرقي من الناحية الإدارية وتحت إدارة استمى قاغان Istemi Kağan أخو بـومين قاغان والذي ظل مسيطراً على القسم الغربي حتى عام ٥٧٦م٠

توفى بومين قاغان في نفس السنة التي أسس فيها حاكميت = [سـلطنة] الـگوك تورك ، وتولى أبناؤه الثلاثة السلطنة بالتتابع ؛كان الأول حتى سنة ٥٥٣م والثاني من٥٥٣ إلى عام ٥٧٢م والثالث من عام٥٧٢ إلى عام٥٨١م. وامتدت أملاك الدولة خلال حكم الثاني مـن موقان Mukan ومن مانـچورياحتى إيران . تشتت الدولة في سنة ٦٣٠م بسـبب القلاقـل والنزاعات الداخلية من ناحية ومن ناحية أخرى بسبب الدسائس الصينية .ولعدم وجود حكـام أقويـاء يستطيعون رأب الصـدع ولم الشمـل . وانتقـل القسم الشـرقي إلـى النفـوذ الصيني ، ورويداً..رويداً سيزداد النفوذ الصيني أيضاً على القسم الغربي .ولكن هذا الخضوع للصين لم يـدم طويـلاً حيث نجح [ايلتيريش قاغان Iltiriş Kağan] في انهـاء النفوذ الصيني وأعاد تجميع أواصر الدولة فيما بين ٦٨٠-٦٨٢م وعندما توفى ايلتيريش سنة ٦٩١م تولى أخوه قابغان قاغان Kapğan Kağan العرش وتمكن مـن أن يعيـد للدولـة هيبتهـا وسطوتها القديمة ٠

كان لايلتيريش قاغان ولـدان ؛ أحدهما يُدعى بلـگـه تكين Belge Tekinوالثاني كول تكين Kül Tekin. وكانا في السابعة والثامنة من العمر عند وفاة والدهما.عندما تـوفى قاغان سنة ٧١٦م أراد أبناؤه الاحتفاظ بالعرش ..إلاَّ أن الأخوين بلـگـه وكول حالا دون ذلك بمساعدة وزير والدهم.وأصبح بلكه قاغان حاكماً .وبمساعدة الوزير المخضرم [طـون

يوقوق] استطاعا إعادة القوة والحيوية إلى الدولة .وشهدت سنة ٧٣٤ وفاة كل من كول تكين وبلــگــه قاغان .وبعد وفاة بلــگــه قاغان بعشر سنين استطاع الأويغــور الســيطرة علــى الدولة وأنهوا حكم وحكام الكوك تورك.

سوهكذا ؛فإن نقوش أورخون محل هذا الحديث كانت نتاج عصر بلــگــه قاغان هذا ... النقش الأول هو نقش كول تكين ، و الذى أمر بنقشه ونصبه هو أخوه الأكبــر بلـــگه قاغان فى عام٧٣٢م ،أما النقش الثاني ؛ فهو نقش بلــگــه قاغان والذى أمر ابنه بنقشه بعد وفاة والده بعام واحد أي في عام ٧٣٥م أما النقش الثالث ؛ والذي يحمل اسم الوزير طــون يوقوق فقد أمر الوزير هو نفسه بنقشه فيما بين أعوام ٧٢٠-٧٢٥م.

ولما كانت هذه الأنصبة المنقوشة قد وجدت على ضفاف نهر أورخون فقد نسبت إلى حيث وجدت . ولقد تم اكتشاف كتابات أخرى في ضواحي هذه المنطقة بلغت ست أبجديات أي كتابات ،ولكن أشهرها وأكبرها هي تلك النقوش الثلاثة المشار إليها.

ويُطلق على نقوش أورخون أيضاً" كتابات أورخون ". ومما لاشك فيه أنها كتابــات .وكل منها أثر لا يقدر بثمن سواء من الناحية المادية أو المعنوية. وكل منها تذكار شامخ من ناحية البناء بنفس القدر من الشموخ في المحتوى.

نصب كول تكين :

إن نقش گول تكين ، يعكس مدى الوفاء والتقدير الذى شعر به الأخ تجاه أخيه الذي لم يكن حاكماً ،ولكنه لعب دوراً حيوياً في تقوية الدولة وتمكين سلطة أخيه. فقــد أمــر بلــگــه قاغان بهذا النصب التذكاري لكي يُشيد باسم أخيه ؛ اعترافاً بالفضل وتعبيــراً عــن عواطف الود والمنّة ..وكان يشرف بنفسه على النصب بفنيته العالية و وجده الصافي .ولقــد كان بلــگــه قاغان تحت تأثير هذه العواطف النبيلة يجلس بجوار النصب التذكاري ويشرف بنفسه على كل صغيرة وكبيرة ، بل كان يشارك في مراحل الإعداد الأولية بنفسه. وقد سجلت الكتابة المباركة التي على النصب من فمه شخصياً..فهو مؤلف هذا الخطاب الرائع .

إن نصب گول تكين على شاكلة سلحفاة قد استقرت فوق قاعدة حجرية مفرغة .وعند اكتشاف النصب وجد مقلوباً بجوار هذه القاعدة .وقد أثرت عوامل التعريــة الجويــة فــي الأقسام التي كانت معرضة لها بسبب هذا القلب و محت الرياح بعضاً من النقوش التي كانت

معرضة. ثم أُعيد الترميم ونُصبت مرة أخرى في مكانها. ارتفاع النصب ٣,٧٥متـراً ، تَـمَّ نحته بعناية فائقة من أحجار جيرية أو من رخام غير صاف.وكلما اتجه النصب إلى أعلـى يضيق إلى حد ما و هو . مكوَّن من أربع جبهات . عرض جبهتا الشرق والغرب من أسـفل ١٣٢سم ومن أعلى ١٢٢سم ،أما جبهتي الشمال والجنوب فمن أسفل ٤٦سم ومن أعلى ٤٤سم .أعلى النصب على شكل كمر ، وعلى القسم الأعلى خمس زوايا.فوق الجبهة الشرقية توجـد شارة القاغان =الحاكم.والجبهة الغربية مغلفة بكتابة صينية . والجبهات الثلاث الأخر عليهـا كتابات تركية كثيرة وفوق الزوايا غير الحادة والمتبقية فيما بين الجهات ، وإلى جوار الكتابة الصينية ،يوجد خط وكتابتها على الجبهة الشرقية أربعون سطراً،أما على الجبهتين الشـمالية والجنوبية فيوجد ثلاثة عشر سطراً على كل منها . وقد تم كتابة الأسطر من أعلى إلى أسفل ،وقد تراصت من اليمين إلى اليسار. طول الأسطر تقريباً ٢٣٥سم . والحـروف والكتابـة منتظمة وكأنها قد أعدت بمسطرة . وخطت بشكل جميل .والكتابة الصينية تُشـيد بالصـداقة التركية الصينية ، وتُعرِّف وتمتدح كول تكين والإمبراطورية التركية .وتعبر عـن أن هـذا النصب قد أقيم تخليداً للأخبار السعيدة ،والتي ستكون خالدة أبد الدهر .وبعد مثل هذه التمنيات نُقش التاريخ.

وبالقرب من هذا النصب تم اكتشاف طريق بطول ٤,٥-٥كم ممهد بالحجارة وعلـى جانبيه تماثيل تتجه نحو النصب وكذا أنقاض ضريح وقطع كثيرة من هياكل متنـاثرة. وفـي الأزمنة الأخيرة، تم الحصول على رأس تمثال كول تكين وبدن زوجته فيما بعد.

لقد عمل الفنانون الصينيون والأتراك جنباً إلى جنب في إقامة هذا النصب والمقبـرة معاً. وإن الذي كتب الكتابة التي على النصب هو يولوغ تكين ابن أخ بلـگـه قاغان وكـول تكين.

نصب بلـگـه قاغان :

و على بعد كيلومتراً واحداً تم اكتشاف نصب بلـگـه قاغان في نفس المكان الـذي فيه نصب كول تكين . و هو يشبه تماماً النصب الأول من ناحية الشكل والترتيب. و لم يزد عنه سوى ببضع سنتيمترات . و لهذا السبب فعلى الجبهة الشرقية واحد و أربعون سـطر و

على الجبهات الأخرى خمسة عشر سطراً و الكتابة الصينية تُتابع الكتابة التركية . و إن كانت الصينية قد مُحيَت تماماً بسبب عوامل التعرية .

إن نصب بلـــگـــه قاغان أمر ابنه بإقامته عام ٧٣٥ م بعد وفاة والدة بسنة واحـــدة " ٧٣٤ م . و المسجل على هذا النصب أيضاً هو خطاب بلـــگـــه قاغان . وإلى جانب تشـــابه بعض السطور في النصبين فإنه قد أُضيفت بعض الأحداث بعد وفاة كول تكين .

إن تمثال بلـــگـــه قاغان إلى جانب أنه قد انقلب فقد تحطم أيضاً .. و لهذا ؛ فالتخريب و المحو بادٍ عليه أكثر من السابق و الذي خط كتابته هو أيضاً يوللوغ تكين. و علـــى كـــلا النصبين ؛ فعدا كلمات بلـــگـــه قاغان ، فهناك قيود وسجلات و إضافات من قبل يوللوغ تكين . و حول هذا النصب أيضاً تُشاهد انقاض ضريح و عدداً أقل من التماثيل المهشّمة و العديـــد من الأحجار .

نصب طون يوقوق :

تم اكتشاف هذا النصب التذكاري في الشرق من النصبين السابقين . مازال قائمـــاً .. .. لم ينقلب . على هيئة شجرتين مزروعتين لهما أربع جبهات . الحجر الأول هو الأكبر و عليه ٣٥ سطراً أما الثاني فعليه ٢٧ سطراً . الكتابة الموجودة على الحجر الثاني ليست فـــي دقة وعناية الكتابة الموجودة على الحجر الأول . و كتابة هذا النّصب ليست منتظمة مثلما هو الحال على النصبيين الآخرين . الكتابة على هذا النصب التذكاري تتجه من أعلى إلى أســـفل أيضاً. و لكنها عكس الآخرين ؛ فالسطور تتجه من اليسار إلى اليمين و الزخارف ليست متقنة فنياً مثل الآخرين . و بجواره أيضاً أطلال ضريح ، و تماثيل و أحجار ..

لقد أمر الوزير العجوز طون يوقوق في سنوات عمره الأخيرة بإعداد النصب و إقامته بنفسه و هو على قيد الحياة . ولهذا فهو الذي يتحدث هنا .. فهو مؤلف هـــذه الكتابـــة وهـــذا النقش.

إن اكتشاف نقوش أورخون تُعتبر من أهم الاكتشافات الإنسانية . إن مـــؤرخ القـــرن الثاني عشر الجويني قد تحدث عن الكتابة المكتوبة بالحروف الأورخـــــونية فـــي كتابـــة " تاريـــخ جيهان گـــوشا " . كما أن المصادر الصينية تتحدث عن هذه النقـــوش و عـــن هـــذه النُصب . و أنها شيِّدت منذ أزمنة ســـحيقة و لكن هذه الخطوط و هذه الأبجدية الأورخونيـــة

ظلت مجهولة بالنسبة للعلماء طوال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين . كل ما كان معروفاً هو بعض الكلمات و الأسماء في كتابات "يني سي " Yeni Sey " التي تم اكتشافها في البداية فيما بين شواهد قبور ترجع إلى القيرغيز و كان أول من اكتشف هذه الكتابة على شاهد قبرهو عالم النباتات مسّارشميدس Messerschmidt عام ١٧٢١ م في وادي ينيسي " Yenisey " . ولكن الذي اكتشف إلى حد ما هذه الكتابة و لفت الأنظار إليها هو العالم ستراخلنبرج .فقد كان ضابطاً في حروب پولتَوا Poltava ، ووقع هذا الضابط النمسوي أسيراً. فنفاه الروس إلى سيبريا . و ظل في الأسر و النفي ثلاث عشرة سنة . وكانت لديه الحرية في التجول في المنطقة . و قام بمساعدة مسّارشميدس ، و بعد أن عاد ستراخلنبرج إلى وطنه عام ١٧٢٢ م قام بنشر نتائج أبحاثه عام ١٧٣٠ م ، و تحدث فيها عن كتابات ينيسي المجهولة و نشر البعض منها . و على الفور لفتت هذه الأبحاث نظر العلماء . و بدأت كشوف كتابات ينيسى تتتابع الواحدة تلو الأخرى. و في النهاية و في عام ١٨٩٩ م تمكن العالم الروسي يادرنتسيڤ من اكتشاف كتابات أورخون و التي اتضح فيما بعد أنها تعود إلى أنصاب كول تكين ، و بلگه قاغان ، و عقب ذلك و في عام ١٨٩٠ م و في عام ١٨٩١ م تتابعت الرحلات العلمية و كانت الأخيرة تحت رئاسة العالم رادولف الروسي Radolff .و ما قبلها كانت تحت رئاسة العلم الفنلندي هيكل Heikel و قامت البعثتان بدراسة النصب عن قرب و التقطت لها صوراً عديدة . و تم توزيع الصور على مراكز الأبحاث بأوروبا ، و تم نشر صور كلتا البعثتين في شكل أطلس للصور .... و قد ساعد هذا الأطلس على سرعة التمكن من قراءة هذه النقوش. و بعد مدة وجيزة تمكن العالم الدينامركي طومسون Thomsen عام ١٨٩٣ م من فك رموز الكتابة الأورخونية و من قراءتها ، هكذا قدّم خدمة جليلة للأمة التركية و للعالم أجمع و بعد فك شفرة و رموز هذه الكتابة حدث نوع من السباق العلمي الجاد بين كل من طومسون و رادلوف حول نشر و ترجمة هذه النقوش ، ثم تبعهم علماء آخرون من أمريكا و اليابان و بقية دول أوروبا .و أخيراً تمكن العالم التركي طلعت تكين من وضع قواعد للغة الترك الأورخونية و كتابتها ، و نشرها في أمريكا .ثم تم العديد من الحفريات الأثرية الجديدة في المنطقة . مما ترتب عليها اكتشاف بقايا و أطلال مدن

وتماثيـــل و آثار في نفس هذه المنطقة . و تمكن العالم الـــچـيكوسلوفاكي ل جيـــسي . L GiSi من العثور على رأس تمثال كول تكين ؛ و أخرجه إلى الوجود ،

هناك من الباحثين من يطرح أن نقوش أورخون منظومة ، حتى إن عالم روسي قد قام بتجربة في هذا الصدد و ترجم هذه النقوش نظماً و نشرها . و لكن وجهة النظر هذه ليست صحيحة . و إن كان التناغم و التناسق الموجود في النص يُلفت النظر من هذه الناحيـــة .إذا كنا لم نطرح في هذا السياق ترجمة هذه النقوش فإنه لابد من الإشارة إلى أنها تلقي احتراماً و عناية فائقة على مستوى كل العالم التركي وليس في تركية الأناضـــول.وحـــدها . و هـــذه الشواهد العظيمة التي مازالت ماثلة للعيان في موغوليستان هي شواهد حـــق علـــى أطـــلال حضارة تركية عريقة في هذه المنطقة ،

الكتابة الأورخونية : أي الخط الأورخوني :

إن الأتراك الذين انتشروا في ساحة واسعة من العالم القديم و خاصة في آسيا و أوربا كانوا ينشرون معهم مراكزهم الثقافية . و قد استخدموا العديد من الخطوط والأبجديات وفقـــاً لمتطلبات البيئات الجغرافية التي دخلوها. و كما درسنا، فإن الأتراك قد استخدموا خطـــوط و أبجديات كلٍ من الـــگوك تورك ، و الصغد ، و الأويغور ، و المائي ، و البراهمي ، والخط و الأبجدية العربية و الخط السرياني ، و الأرمني والرومي ، و اللاتيني و السلاڤـــي و لكن أشهر هذه الخطوط و الأبجديات التي استخدمها الترك هي ؛ الـــگوك تـــورك و الأويغـــور و العربي و اللاتيني . كما سنرى في الصفحات التالية ،

لقد استخدم الترك الكتابة الاورخونية أي الـــگوك توركية كلغة كتابة منـــذ العصـــور الأولى لظهورهم على مسرح التاريخ ، ثم حل محلها الخط الأويغوري ، وكان هذا الخط هو الأوسع انتشاراً بين الترك قبل دخولهم إلى الإسلام . و لكن بعد أن اهتدوا إلـــى الإســـلام و رفعوا رايته استخدموا لغة و خط القرآن الكريم و أحلّوه محل الخط الأويغوري ، و إن ظـــلا يُستخدمان جنباً إلى جنب إلى فترة زمنية ليست قصيرة . و بعد أن ظل الخط العربي مستخدماً بين الترك ما يزيد عن ألف سنة حل محله منذ سنة ١٩٢٨ م= ١٣٤٧ هـــ الخـــط اللاتينـــي كخط رابع اشتهر بين الأتراك ،

تعددت الآراء ووجهات النظر حول أصل خط الـ گوك تورك ؛ فمن قائل إنه امتداد للكتابات القديمة التي كانت مستخدمة في منطقة ينيسي فيما بين القرنين الخامس و التاسع . و من قائل إنه مشتق من الخط الأرامي و الصغدي و الـ پهلوي . و هناك من يدعي أنه خط تركي أصيل و أن الأتراك هم الذين أوجدوه . و كل يحاول أن يجد الأسانيد التي تؤيد وجهة نظرة و أطروحته •

يحتوى الخط الأورخوني على أكثر من مائة و خمسين إشارة تزيد عما كان مستخدماً في خط ينيسي . و يحتوي على ثمانية و ثلاثين حرفاً . حروفه غير متصلة . فلا يتصل الحرف بما قبله أو بما يأتي بعده . يُكتَب من اليمين إلى اليسار . يُفصل بين الكلمات بوضع نقطتين فوق بعضها البعض .من بين الثمانية و الثلاثين حرفاً ؛ أربعة أحرف تُستخدم كإشارات صوتية. و الباقية " أربعة و ثلاثون حرفاً " حروف صامتة . و كما هو معلوم فليس في اللغة التركية هذا القدر من الحروف الساكنة . لا تُكتب الصوتيات أكثر من مرة في الكلمة الواحدة من الأبجدية الأورخونية . و تكون الصوتيات غير المكتوبة هذه في أول الكلمة أو وسطها . أما الصوتيات التي تأتي في نهاية الكلمة فهي التي تكتب دائماً . وما يلفت النظر في الأبجدية الأورخونية أنها لا تستخدم حرفي [A . E] في أول الكلمة أو في المقطع [= الهجاء] الأول منها •

فالخط الأبجدي الأورخوني من ناحية الإملاء في الصوامت سليم و مترابط . و رغم كثرة الحروف الساكنة فلا نرى فيها أي تداخل . و يحدث بعض التبادل والتغاير بين الصوامت الحادة و اللينة •

و بالمقارنة بين الحروف الأبجدية الأورخونية و الأبجديات الأخرى ، فإننا نُصادف فيها أكثر من شكل في الحرف الواحد . و للمزيد في هذا الصدد ؛ أنظر :

" **Muharrem Ergin, Orhun Abideleri, Birinci Baskı, İstanbul 1970** "

العقيدة الدينة لدى الكوك تورك :

يرفض الباحثون الأتراك المحدثون ما يثار عن أن الترك القدماء كانوا يعتنقون الشامانية = Şamanlık أي الـ " Şamanizm " و يرفضون أن تكون الشامانية ديناً للترك . بل كانت عقيدة الترك أن الله [طائري] موجود في السماء .و أن الله ليس له شبيه جسدي.

. و لا يرى له وجود ملموس ، بل الله له وجود روحي وروحاني عظيم ،يعيش في السماوات السبع .و تذكر نقوش أورخون ، خاصة في النقش الذي أقامه بلـگـه خان تخليـداً لـذكرى شقيقة كول تكين أن " كل حي يموت .. يفنى و أن الخالد الذي لا يفنى أبداً هو الله [طانري] أي الله هو الذي يخلق كل شيء ؛ كل الموجودات و ذوات الأرواح ، و أنه خـط لكـل ذوي روح خطاً = " قدراً " . هو الذي يميت و يفني .و أن " روح " الشخص الذي يميته الله تعود إلى " الله " الذي يعيش في السماء السابعة التي لا نهاية لها . هذه العودة تكون بالروح التـي تخلصت من البـدن و [طارت حيث طابق الله ..] و من هنا فقد كانت عقيـدة الـگوك تورك بالنسبة للمتوفى أنه [گوك طانرية أو چوپ گيتدي] = أي أنه طار و ذهب إلـى رب السماء . "Uça – bardi Tengri, uçà bardi " أي طار وحمل إلى السماء.

كما كانوا يعتقدون أن الله يُسْعد أرواح الذين يفعلون الخير .ويعـذب أرواح الـذين يفعلون الشر .ولم يكن هذا التقابل بين الخير والشر بعد الموت فقط، بل كان الله يُقَـيِّم أهـل الخير وأهل الشر في الدنيا أيضاً وليس في عالم الأرواح فقط.

"الطانرى" أي الرب =الله هو الذي يعلى = يعز أو يذل الأشخاص .وكان الترك يحاولون هدم وإحراق و تخريب ديار الذين لا يؤمنون به.ويحاولون إزاحتهم وإزالتهم من على وجه الدنيا.. وكان الله يرسل رسلاً = أشخاصاً إلى هذه الأمم لهدايتها.

ففي نقوش أورخون نقرأ هذا النص:

"في العلا .. إله السماء

وأسفل توجد أرض هائجة

فيما بينهما.. خلق بنى البشر

فوق بنى البشر ، يومين أجداد سلالتى..

وهو الذي أجلس ايستمى قاغان..]

{ **نقوش نصب تورك بلگه قاغان الوجهة الجنوبية .. الفقرة الثانية** }.

كان المواطن الـگوك توركي الذي يؤمن بدين السماء [گوك ديني] يرفع يديه إلى السماء و يدعو ربَّه . ويتوسل إليه أن يُحقق أمانيه ، أو يدرأ عنه الشر . وكـان هـو الـذي يتوسل بكلمات من عنده هو .. و ليست من تلقين أحد ..

كان التركي عند التوسل يركع على ركبتيه رافعاً يديه نحو السماء محدقاً بعينيه في السماء و كان يُدعِّم هذا الدعاء - حسب و ضعه المادي - بتقديم الأضاحي إلى الله = " طانري ".

كانت الأضاحي لدى التركي ثلاث ؛ الخيل .. الثيران .. الخراف و كان اختيار الأنسب مرتبطاً بالوضع المادي للمضحي ووسطه الاجتماعي ، كما كان الترك يتوسلون و يتضرعون إلى الـ [طانري] لكي يغفر لموتاهم ذنوبهم ، و لكي يجعل أرواحهم هادئة مطمئنة في السماء ، و كانوا يقدمون الأضاحي كل عام تضرعاً لقبول هذا التوسل و هذا الرجاء •

كانت عبادة الكوك تورك و توسلاتهم و تضرعهم تتم ليلاً أو نهاراً .و في أي مكان يريدونه ، فراداً أو جماعة .. بصوت عالٍ أو همس خاشع •

كان الـگوك تورك يقومون بهذه العبادات و التوسل و الرجاء في أماكنهم أيضاً ؛ و التي كانت توجد في شتى مدنهم و قراهم و يطلقون عليها " بارك Bark " و هي إلى حد بعيد تشبه المدافن و المقابر عند أصحاب الديانات السماوية . إلى جانب هذه العبادات الفردية كانت هناك عبادة جماعية يترأسها القاغان = الحاكم ، و تتم مرتين في العام ؛ إحداهما تحت حافة أحد جبلي " دمير داغ " = جبل الحديد " أو آلتين داغ = جبل الذهب لاعتقادهم في قدسية هذين الجبلين . و كان التوسل الجماعي هذا يتم لحمايتهم من المهالك و المخاطر و يهب لهم العفو عن المعاصي و الذنوب •

أما الاحتفال الديني الثاني الجماعي فقد كان يُقام في المغارات التي كانوا يعتقدون في قدسيتها أيضاً . و كانت تُقام هذه الاحتفالات على "أرواح أجدادهم " ..

كانت تجرى هذه الاحتفالات الدينية في الشهر الخامس = إبريل من كل عام شكراً وعرفاناً للرب اعتقاداً منهم حسبما ورد في " أسطورة الخلق " لديهم حيث كان مجيئهم للمرة الثانية للعالم من لقاء بين أنثى ذئب و ابن القمر في إحدى المغارات . وأن المولود قد شق جبل الحديد و أذابه فخرج إلى النور .. و لهذا فهم يقدمون الشكر و يعترفون بالمنة لهذه المناسبة ؛ سواء أكانت هذه المراسم من العبادة تتم على قمم الجبال أو تحت حوافها في المغارات ، فكان الـگوك تورك يقدِّمون الكثير من الأضاحي بخاصة من الخيول و الأبقار و الخراف تقرباً إلى الله

كان الــگوك تورك يحتفظون بالمكان الذي يدفنون فيه القاغان سراً و يطلقون عليــه [قورغان = Kurgan] و لهذا السبب لم تكتشف طوال التاريخ أماكن دفن القاغانات الأتراك . و يظن بعض الباحثين أن الدفن كان يتم على قمم الجبال .و من هنا تولدت قدسيتها لــديهم .. !!

مما يفيد بأن الــگوك تورك كانوا يعتقدون في بعث الروح بعد الموت أنهــم كــانوا يحتفظون بأشيائهم الثمينة في مقبرته ،إذا لم يكن قد ترك من خلفه من يورثه .. و كانوا يقتلون أعز جواد لديه و يدفنونه معه في نفس الــ [القورغان] = المزار. كانت الخيل تمثــل لهــم قيمة عليا سواء في الحرب أو السلم ، و في الحياة العامة . وكان تقديم جواده قرباناً لروحــه بعد الموت من المراسم المعتد بها عندهم و لا يمكن التهاون فيها . كما كانت تُقَدَّم المراثــي و التعازي و تدبَّج القصائد و الأدعية ، و التَعدِيَّة بهذه المناسبة .. و تُعَــدد محاســن و محامــد المتوفَى[١] .

كان من عادات الــگوك تورك أن يدور أقارب المتوفى بخيولهم حول المتوفى تســع دورات ، و كأنهم يشيرون بذلك بأنهم قد أعدوه إلى رحلته الأخيرة . و لم يكــن يــتم دفــن المتوفى فوراً ، بل كانوا يحنطونه و يحفظونه ، فإن كان الموسم ربيعاً أو صيفاً يتم الدفن في الخريف ، و إذا كانت الوفاة في الشتاء يتم الدفن في الربيع .

كان الــگوك تورك يقيمون مراسم جنازة يطلقون عليها [يوغ توراني] وكلمة يــوغ تعني [يأس]= الحزن .. و كانت هذه المراسم تتسم بالمبالغة في إظهار الحزن و البكاء على الميت . و لها معدِّدون و معدِّدات و بكَّاءون و بكَّاءات و موزعو الــروائح الذكيــة خــلال المراسم.

خلاصة القول ؛ إن الــگوك تورك لم يعرفوا عبادة الأصنام . بل كانت ديانتهم تعتمد على وحدة الإله أي الإله الواحد فقط .

وقد كانت عاصمة الكوك تورك هي مدينة " أتوغن Ötügen " و التي لم تُكْتَشف أطلالها بعد . و كان لهم عَلَمَهم الخاص بهم و كان لونه أزرق فاتح في لون السماء في وسطه تمامــاً شكل [الذئب الأغبر] و كانت رأس الذئب الأغبر هذه مصنوعة من الذهب ويُثَبَّــت فــوق

سارية علم القاغان " الحاكم " . أما الأعلام التي كانت تحملها الفرق العسكرية في الحروب فقد كانت تثبت عليها رؤوس الذئب الأغبر المصنوعة من الحديد



محارباً كوك تورك و أعلامه و طوغاته و معه سهمه الذي يصدر صفيراً

اللغات الأورالية الآلتائية

لقد نجح العالم الفنلندي في وضع حد للخلافات التي كانت تنشب حول الأصل الـذي تنحدر منه اللغة التركية بالرحلات العلمية التي قام بها فيما بـين سـنة ١٨٣٨ – ١٨٤٩ م وامتدت في منطقة جبال اورال / آلتاي ، و خلص من هذه الرحلات بنتـائج علميـة بـاهرة خلاصتها أن أسرة اللغات الأورالية / الآلتائية تشمل خمسة فروع رئيسة هي :

١- الفرع الأيغوري	Uğur
٢-الفرع الفنلندي – الأيغوري	Fin- Uğur
٣- الفرع المغولي	**Moğol**
٤- صامويد	**Samoyed**
٥- الفرع التونغوزي	**Tunguz**

وإن كان قد جاء بعده " سكوت " Schott و قسم هذه الأسرة إلي فرعين رئيسين هما :

أ. <u>مجموعة لغات الفرع الأورالي ...</u>

ب. <u>مجموعة لغات الفرع الآلتائي...</u>

و ينتسب كلا الفرعين إلى سلاسل جبال الأورال التي تفصل أوروبا عن آسيا .و جبل الألتاي في وسط آسيا . و أهم اللغات التي تدخل في هذه الأسرة اللغات المجرية ، و الفنلندية و التركية ، و المغولية . و تُعد هذه اللغات في رأي كثير من الباحثين أسرة لغوية واحـدة . تقوم وحدة هذه الأسرة على أساس اشتراك لغاتها في عدد من الخصائص البنيوية.

و أهم هذه الخصائص المشتركة في هذه اللغات من الناحية الصوتية و جود التوافـق الصوتي Vocalic Harmony ، و معناه أن الحركة الأساسية في الكلمة تتحكم فـي بـاقي حركات اللواحق ، فتجعلها متوافقة معها ، و يظهر التوافق الحركي في كل اللغات الأورالية الآلتائية بدرجات متفاوتة و أقلها في اللغة الفنلندية ، و أوضحها في اللغة التركية .

و تتفق اللغات الأورالية الآلتائية في نظام البنية اللغوية ، فكل هذه لغات لاصقة ، أو التصاقية ، فهناك كلمات أساسية ، و لواحق كثيرة تؤدي عدداً كبيراً من الوظائف النحويـة ، فإذا كانت اللغات الهندية – الأوربية و اللغات السامية تعرف حروف الجـر . فـإن اللغـات

الأورالية الألتائية تعبر عن ذلك باللواحق ؛ فإذا أردنا أن نقول ما معناه " في المنزل " قلنا بالمجرية " Haz ba "و بالتركية " Evde " و ففي المجرية كلمة " Haz " و في التركية كلمة " ev "تعنيان المنزل ، أما تلك اللاحقة " Ba " في المجرية ، " De " في التركية فقد عبرتا عما نُعبر عنه في اللغة العربية واللغات السامية الأخرى بحرف الجر (في) . و هكذا فإن اللواحق تعبر في اللغات عن معنى الوجود ، و معنى العدم ، و معنى الجمع ، و غير ذلك . وهذا الشبه البنيوي بين هذه اللغات جعل بعض الباحثين يجعلونها أسرة لغوية واحدة .

أولاً : اللغات الأورالية :

تشكل اللغات الأورالية الجناح الأوربي من اللغات الأورالية الألتائية ، و تضم اللغات الأورالية فرعين هما : الفرع الفنلندي – المجري من جانب ، و الفرع الصمويدي من الجانب الأخر .

و أهم لغات هذه المجموعة هي : اللغات الفنلندية المجرية ، فهي الأكثر انتشاراً ، والأرقى حضارياً ، و الأكثر أهمية ، في التاريخ ، و الحياة المعاصرة . أما اللغات الصمويدية فتتحدث بها جماعات تعيش في الاتحاد السوفيتي السابق في المنطقة الساحلية للبحر المتجمد الشمالي ، و لا يزيد عدد أبنائها عن خمسة و عشرين ألفاً فقط وقد ثبت ببحث هذه اللغات أنها تمت بصلة القرابة إلى اللغات الفنلندية المجرية .

الفرع الفنلندي :

يضم الفرع الفنلندي ؛ من اللغات الفنلندية المجرية عدة لغات ؛ منها اللغة الفنلندية . ويبلغ عدد أبناء اللغة الفنلندية حوالي أربعة ملايين . و هي أهم اللغات في جمهورية فنلندا التي تضم أيضاً عدة أقليات لغوية تتحدث السويدية ، وهي لغة الآداب.

و يرجع التاريخ الحضاري للغة الفنلندية إلى منتصف القرن السادس عشر ، ففي عام ١٥٤٨ م تمت ترجمة الإنجيل إلى اللغة الفنلندية ، و أصبح لدى الفنلنديين كتاب مقدس، مدَّون بلغتهم .و اعتمدت الترجمة على الاستخدام اللغوي في منطقة توركو ، و بذلك ارتبطت اللغة الفنلندية في تاريخها المبكر بلهجة هذه المنطقة التي نشأت اللغة الفنلندية في إطارها . و في القرنين السابع عشر ، و الثامن عشر كان استخدام اللغة الفنلندية يكاد يكون مقصوراً على كتب الثقافة الدينية ، و كانت تكتب باعتبارها اللغة المحلية التي يفهمها المواطنون . أما باقي

المجالات فقد تسودها اللغة السويدية ، التي ظلت لغة الثقافة ، و اللغة الرسمية لعدة قـرون . ولم تنته السيادة اللغوية السويدية إلاّ مع انفصال فنلندا و استقلالها عن السويد عام ١٨٠٩ م . و هنا بدأت اللغة الفنلندية تصبح اللغة الوطنية في دولة فنلندا ، و لذا أخذ المؤلفون يتركـون السويدية ليؤلفوا في العلم و الثقافة باللغة الفنلندية . و بذلك ازدهرت اللغة الفنلندية في القـرن التاسع عشر ، في إطار الحركة القومية . و كان للعـالم اللغـوي الفولكلـوري Loanzot (١٨٠٢ – ١٨٨٤ م) جهد كبير في جمع الأناشيد الشعبية و كوَّن منهـا ملحمـة الكاليفـالا (١٨٣٥ م) و كان له أيضاً الفضل في تأليف أول معجم للغة الفنلندية (١٨٨٠ م) . و بذلك أُخذت اللغة الفنلندية مكانتها كلغة قومية و كلغة للثقافة ، والعلم في دولة فنلندا .

و هناك لغة وثيقة الصلة باللغة الفنلندية ؛ و هي اللغة الكاريلية . و يتحدث بهذه اللغة حوالي نصف مليون في الجمهورية الكاريلية المتمتعة بالحكم الذاتي في الاتحـاد السـوفيتي السابق ، و ليس للغة الكاريلية تراث مدَّون ، و لا تستخدم في مجالات الثقافة و التعليم .

و تُعد اللغةُ الأُستونية ؛ أهم اللغات التي تمت بصلة القرابة اللغوية للغـة الفنلنديـة ، ويرجع تدوينها أيضاً إلى القرن السادس عشر الميلادي . و اللغة الأُستونية هي اللغة الوطنية في جمهورية أستونيا ، الاشتراكية السوفيتية ، و يتحدث بها حوالي مليـون مـواطن ، فـي أستونيا ، و نصف مليون ، في روسيا و سيبريا و ليتلاند .

و إلى جانب الفنلندية (و الكاريلية) ، و الأستونية ، هناك عدة لغات تنتمي إلي الفرع الفنلندي ؛ و هي لغة اللاَب ، و الموردفينية و غيرهما . و يبلغ عدد المتحدثين بهذه اللغـات المختلفة حوالي المليونين يشكلون أقليات لغوية في الدول الاسـكندنافية المختلفـة و الاتحـاد السوفيتي السابق و يعتبرها العلماء مشتقة عن التركية القديمة .

الفرع المجري :

يضم الفرع المجري Hungrian ؛ عدة لغات أهمها ، و أكثرها انتشاراً ، اللغة المجرية " Hungarion " . و تُعد اللغة المجرية ، أقدم اللغات الفنلندية ، المجرية ، التي دُوِّنت ، فقـد تم ذلك في القرن الثالث عشر الميلادي ؛ فهناك نص مجري وصل إلينا مدوناً عام ١٢٢٠ م . و قد ظهرت بشائر النهضة اللغوية المجرية في القرن السادس عشر ، عندما ألفت بها بعض الكتب الدينية في إطار حركة الإصلاح الديني ، و كان شأنها في هذا الصـدد شـأن اللغـات الكثيرة التي نازعتها مكانتها في بلاد المجر ، فكان المجريون في القرن السابع عشر يتعاملون

باللغة اللاتينية باعتبارها اللغة الرسمية ، و لغة القضاء ، و لغة العلم ، و كان بعضهم يتوسل في مجال العلم باللغة الألمانية أيضاً ، في حين كانت اللغة الفرنسية لغة الأرستقراطية في وسط أوربا . ولهذا تأثرت اللغة المجرية ، في مجال العلم و الثقافة باللاتينية ، و الألمانية ، و في ألفاظ الحياة الراقية ، باللغة الفرنسية . و قد زاد الاهتمام باللغة المجرية في أواخر القرن الثامن عشر ، مع ظهور الحركة القومية المجرية، فأصبح المجريون يؤلفون بها في مجالات العلم ، و يهتمون بها ، رمزاً لقوميتهم ، ووجودهم .

ثانياً : اللغات الآلتائية :

اللغات الآلتائية هي الجناح الأسيوي من اللغات الأورالية الآلتائية . و تتكون الأسرة اللغوية الآلتائية من ثلاثة فروع : الفرع التركي ، و الفرع المغولي ، والفرع التونغوزي ، و تُضاف إليها الطبقة الأقدم للغة الآلتائية .

الخصائص المشتركة بين اللغات الآلتائية :

تشترك اللغات الآلتائية في الخصائص التالية :

النظام الصوتي :

١) يوجد في اللغات الآلتائية عدد كبير من الحركات ، تصل في كثير من هذه اللغات إلى سبع حركات و في التركية إلي اثنتي عشرة حركة .

٢) يسود في اللغات الآلتائية نظام التوافق الحركي أي التوافق الصوتي Vocalic Harmony ، و هو نوع من المماثلة بين الحركات ؛فالحركات التي توجد في الكلمة الأساسية تتحكم في حركات اللواحق التي تُلصق بهذه الكلمة ، فمثلاً تتخذ الوحدة الصّرفية الدالة على الملكية ، أو التبعية أو الإضافية الأشكال الأتية (ün – un – in – ın) و تتحدد الصورة الصوتية المستخدمة في كل حالة على حدة ، و فق الحركة الخاصة بالكلمة الأساسية و يتضح هذا من الأمثلة التالية :

حديقةُ المنزل	Bahçesi	Ev - in
سائقُ الأتوبيسِ	sürücüsü	Otobüs - ün
حارسُ الغابةِ	Bekçisi	Orman - ın
قبطانُ السفينةِ	Kaptanı	Vapur – un

و على هذا تحددت حركة اللاحقة و فق حركة الكلمة الأساسية .... فالحركة الأساسية هي :[A , U , E , I ,] أما حركة اللاحقة هي : [E-İ , Ü] ، و هناك عدة قوانين للتوافق الحركي ، في كل لغة من اللغات الآلتائية ، و لكن وجود هذه الظاهرة – بصفة عامة – يُعد من السمات المميزة لهذه اللغات ٠

٣) لا تظهر بعض الصوامت في أول الكلمة ، أو يكون وجودها نادراً ، و من هذه الصوامت الراء و الزاي ، فلا تكاد الكلمات الأصلية ، في اللغة الآلتائية ، تبدأ بالراء أو الزاي ٠

٤) أنواع المقاطع في اللغات الآلتائية محدودة و المقطع في هذه اللغات يتكون من (حركة) فقط ، أو من (حركة + صامت) أو من (صامت + حركة) ، أو من (صامت + صامت) ، أو من (صامت + حركة + صامت + صامت) . و على هذا فلا يوجد مقطع يبدأ بصامتين أو أكثر ٠

ب. بناء الكلمة :

١– اللغات الآلتائية لغات لاصقة ، تتكون بنية الكلمات فيها من كلمة أساسية ،تُلحق بها لواحق كثيرة ٠

مثال من اللغة التركية :

الكلمة الأساسية : خاف Kork ، تكوّن بإضافة بعض اللواحق الكلمات الآتية :

خوّف .. جبان .. مُخيف **Kork - unç /. Kork – ak /.Kork + ut +tu**

و بهذا تتعدد المعاني بتعدد اللواحق ٠

٢– تؤدي هذه اللواحق وظائف لغوية مختلفة ، للتعبير عن زمن الفعل ، و عن النفي، و عن الجمع ، و عن المكان ، و غير ذلك من المعاني ، التي تُؤدي في اللغات الأخرى بوسائل لغوية مختلفة . و لا تعرف هذه اللغات حروف جر سابقة على الاسم ، بل تُؤدي المعاني عن طريق لواحق تأتي بعد الكلمة ، أي أنها ليست Perpositions بل Postpositons ٠

و يتضح هذا من الأمثلة التركية التالية :

منزل [ev] في المنزل [Evde] ٠

هو (يكون) في المنزل (ev de dir / Evededir)٠

٣– لا تعرف اللغات الآلتائية ، تصنيف الصيغ ، من ناحية التذكير ، و التأنيث ، وينطبق هذا على كل أنواع الكلمات من أسماء ، و أفعال ، و غير ذلك ٠

٤- هناك مجموعات من المفردات الأساسية ، المشتركة ، في اللغات الآلتائية ، ويمكن إيضاح الفروق بين هذه المفردات و فق قواعد ، واضحة ، إلى حد كبير .

المعنى	الكلمة في اللغات المغولية	الكلمات في اللغات التركية
قوي	Erke	Ark
قص	Kirya	Kırk
صيد	Aba	Av
جفف	Kata	Kat
حلب	Seya	Sağ
فهم	Uka	Anla

و يلاحظ من الأمثلة السابقة ، و – لكلها من الكلمات الأساسية –، أنها من أصل اشتقاقي واحد و أهم الفروق بين الصيغ المغولية ، و الصيغ التركية يتعلق بآخر الكلمات فقد حذفت الحركة الأخيرة ، و هذا الحذف ملاحظ في كل الأمثلة التركية السابقة .

يمكن أيضاً مقابلة المغولية ، و التونغوزية و فق المنهج ، فيتضح لنا أن اللغات التونغوزية تحذف المقطع الأوسط ، أو المقطع الأخير ، أو مقطعين اثنين داخل الكلمات ذات المقاطع الكثيرة .

المعنى	الكلمة في المغولية	الكلمة في اللغة المنشورية
قطيع	Adayasun	Edun
جمل ذو سنامين	Temegen	Temen

و هكذا يمكن ملاحظة التغيرات في صيغ المفردات بين اللغات التركية ، والمغولية ، و التونغوزية – و منها اللغة المنشورية – و فق قواعد مطردة .

ج. المفردات :

يضم المعجم المشترك في اللغات الآلتائية ألفاظاً أساسية في كل الفروع التركية ، والمغولية ، و التونغوزية ففي :

اللغات المغولية ، اللغات التركية ، اللغات التونغوزية ،(منها المنشورية) مثلاً كلمة :

اللغات المغولية		اللغات التركية		اللغات التونغوزية	
Aga	أخ كبير	Ağe	أخ كبير	Age	السيد
Borogan	مطر	Buran	عاصفة جليدية	Buran	عاصفة

و على الرغم من الاختلاف النسبي في الدلالة ، فإن هذا الاختلاف يمكن تفسيره في إطار التغير الدلالي •

٢. يشمل المعجم المشترك في اللغات الآلتائية ، الألفاظ الخاصة بالموضوعات التالية :

أ). جسم الإنسان ، و ذلك مثل الألفاظ الدالة على : ركبة ، رأس ، شعر ، فم ، أُذن ، وجه ، صدر ، قدم •

ب). علاقات القرابة ، و ذلك مثل الألفاظ الدالة على : أب ، أخ كبير ، أُخت كبيرة ، عم ، جد ، أقارب ، الأب •

ج). أسماء الحيوانات ،و ذلك مثل الألفاظ الدالة على : خروف ، فأر ، جمل ، حيَّة ، سمك ، ثور ، حمار ، دب •

د). أسماء الظواهر الطبيعية ، و ذلك مثل الألفاظ الدالة على : يوم ، ليل ، ضوء ، زمن ، مطر ، جليد •

و هذه المجموعة تعد أمثلة الألفاظ الأساسية المشتركة في اللغات الآلتائية •

إن هذه الخصائص الصوتية ، و الصرفية ، و المعجمية المشتركة ، تؤكد أن اللغات التركية ، و المغولية ، و التوتغوزية من أصل واحد مفترض . و يطلق على هذا الأصل المفترض اسم اللغة الآلتائية ،و ذلك على نحو اللغة الهندية الأوربية الأقدم، و اللغات السامية الأقدم . و لم تصل إلينا هذه اللغات الأقدم ، و لكن افتراض وجودها قبل عصور التدوين أمر ضروري حتى يمكن تفسير أوجه الشبه بين اللغات التي اتضح أنها من أصل واحد •

اللغة التركية و لهجاتها

يُطلق مصطلح " اللغة التركية " أو " لغات الترك " على عدد من اللغات التي تنتمي إلى أصل واحد مفترض ، و توجد اللغات التركية ، في منطقة واسعة تمتد من وسط آسيا ، حتى غربها ، و شرقي أوربا. و قد انتشرت القبائل التركية ، بعد هجرة هذه الجماعات من موطنها الأقدم ، في وسط آسيا ، و على حدود الصين ، في اتجاه الغرب ، و تكونت من لهجات هذه المجموعات لغات تميزت شيئاً فشيئاً عن بعضها البعض . و أهم هذه المجموعات التركية المهاجرة جماعات الأوغوز ، و جماعات القپچاق . تحرك الأغوز إلي غرب أسيا ، بينما هاجر القپچاق ، إلى المناطق الشرقية ، من أوربا . و هكذا تكونت عدة

لغات تركية ، في المنطقة الغربية من آسيا ، و أهمها التركمانية ، و اللغة التركية تكونت لغات أخرى في المنطقة الشرقية من أوربا ، و أهمها اللغة التتارية ، و لغة القازاق . و قد بقيت جماعات تركية كثيرة في وسط آسيا ، و كانت هجرات بعضها ذات مجال محدود . ولذا كانت للغات هذه الجماعات تاريخها الخاص بها . و هكذا تنوعت اللغات التركية ، وبدأت كل منها تاريخها المتميز .

و على الرغم من هذا التنوع ، فإن لغات الترك متقاربة في بنيتها النحوية تقارباً بعيداً و تتفق هذه اللغات في المعجم الأساسي المشترك بصورة تسمح في حالات كثيرة أن يتفاهم أبناء بعض اللغات ، و كأنهم أبناء لهجات مختلفة للغة واحدة .و مع هذا كله ، فإن من الممكن تصنيف اللغات التركية (على أساس درجة تقارب كل لغة مع الأخرى) إلى عدة مستويات لغوية ، و فروع لغوية . و يقوم هذا التصنيف اعتماداً على الخصائص اللغوية الحديثة المتاحة لأكثر اللغات التركية ، أما النصوص القديمة التي تمثل مستويات لغوية قديمة فهي قليلة ، لا تقدم للباحث إلا صورة شاحبة عن الحياة اللغوية القديمة.

النقوش التركية القديمة :

ترجع أقدم النقوش التي وصلت إلينا بالتركية ، إلى منطقة نهر أورخون ، في بلاد المغول ، و لذا تسمى هذه النقوش نسبة إلى المكان باسم [النقوش الأورخونية] . و قد دونت هذه النقوش في الفترة الممتدة من القرن السادس أو السابع الميلادي على وجه التقريب إلى القرن الحادي عشر الميلادي . و قد دونت هذه النقوش بخط قديم ، يسمى باسم الأبجدية الأورخونية ، و يقوم هذا الخط على أساس الأبجدية الصغدية القديمة ، التي تقوم بدورها على الأبجدية الآرامية ، القديمة . و تضم الأبجدية الأورخونية عدة حروف ذات أصل تركي ، وقد أخذوها لترمز بشكلها إلي كلمات بعينها و قد سبق دراسة هذه النقوش .

تسمى المجموعة الثانية ، من النقوش التركية ؛ [باسم النقوش الأويغورية] – نسبة إلي جماعة الأويغور التركية – و قد دُوِّنت هذه النقوش بخط أبجدي يقوم ايضاً على الخط الصغدي القديم . و قد توازى استخدام الخط الأورخوني مع الخط الأويغوري لأكثر من قرن و سادت الكتابة بالخط الأويغوري ، شيئاً فشيئاً حتى انتهى استخدام الخط الأورخوني بصفة نهائية في القرن الحادي عشر الميلادي . وظل الخط الأويغوري هو الخط السائد عند القبائل الترك بصفة عامة ، ثم تخلت عنه القبائل التركية التي أسلمت فدخلت مجال الحضارة

الإسلامية ، و كتبت بالخط العربي . وهكذا توازى الخط الأويغوري مع الخط العربي ، عـدة قرون ، و قد كتبت به هذه القبائل التركية غير المسلمة في الصين حتى أوائل القرن الثـامن عشر الميلادي . وهكذا ظل الخط الأويغوري مرتبطاً في تاريخ جماعات الترك بالتاريخ القديم لها .

النقوش البلغارية التركية : هي المجموعة الثالثة من النقوش التركية القديمة ، و قـد دُونت هذه النقوش في أرض أوربية ، على عكس المجموعتين : الأورخونية ، والأويغورية ، فقد دونتا في وسط آسيا . و قد دُونت النقوش البلغارية التركية في الفترة الممتدة من القـرن الثامن الميلادي إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، و لذا هناك تواز تـاريخي بـين النقـوش التركية القديمة في كل مجموعاتها ، و استمر هذا التوازي عدة قرون . و لقد عَرَفت منطقـة بلغاريا من القرن الثامن إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، ازدواجاً لغويـاً ، فكـان الشـعب يتحدث بلغة سلافية ، و لما وقع هؤلاء السلاف تحت حكم الترك الوافدين من آسيا و جنـوب روسيا . ظل الازدواج اللغوي في بلغاريا انعكاساً لتقسيم السكان إلى ترك حاكمين ، و سـلاف محكومين . و قد وُجدت عدة لهجات تركية في بلغاريا ، و لكن بادت أكثـر هـذه اللهجـات التركية ، بسيادة البلغارية السلافية وظل بعضها مستخدماً في بلغاريا حتى اليوم.

اللهجات التركية ذات التراث :

اللغة التركية :

اللغة التركية هي لغة الدولة العثمانية ، و لغة الجمهورية التركية . و هي أهم اللغات التركية في العصر الحديث ، و أهم اللغات التركية في التعبير عن الحضارة الإسـلامية . و يرجع تاريخ اللغة التركية إلى القرن الخامس عشر الميلادي . فقد ازدهرت اللغة التركية ، في إطار الدولة العثمانية ، و لذا تأثرت كثيراً بالعربية ، والفارسية ، و كانت اللغات العربية ، و الفارسية ، و التركية ، تستوعب مجالات التعبير الحضاري ، في الجناح الغربي ، و الأوسط من العالم الإسلامي . و تُسمى اللغة التركية في هذه الفترة باسم التركية العثمانية ، و كانـت تدون بالخط العربي . وعاشت التركية العثمانية ، في إطار الحضارة الإسـلامية ، و كانـت المُثُل الثقافية ، في إطار الدولة العثمانية ، تجعل اللغتين العربية ، و الفارسية أهـم الثقافـات الرفيعة . وأدى هذا الأهتمام بالعربية ، و الفارسية إلى دخول عدد كبير من الألفاظ العربية و

الفارسية إلى التركية ، هذا التأثير بصفة خاصة في المجالين الثقافي ، و العلمي ، و فوق هذا كانت العربية لغة الدين ٠

و قد دخلت اللغة التركية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مجالات التعبير عن الحضارة الحديثة فتأثرت باللغة الإيطالية ، و باللغة الفرنسية، في الألفاظ الحضارية ، والمصطلحات العلمية . و بدأ بعض الكتاب يطرحون قضية التجديد اللغوي باعتباره الطريق نحو التقدم و الحضارة ، و نادي كثيرون بالإقلال من الألفاظ العربية و الفارسية الكثيرة التي كان الفصحاء يتبارون في حشدها ، و طالب البعض بمحاولة الاقتراب من لغة الشعب في التعبير الأدبي ، و ظهرت في أواخر القرن التاسع عشر ، وأوائل القرن العشرين ، محاولات لإصلاح نظام الكتابة بإضافة علامات تجعل الكتابة التركية أصدق تعبيراً عن النطق التركي . و عندما أُلغيت الخلافة سنة ١٩٢٤ م ، و أعلنت الجمهورية التركية دولة عَلْمانية كانت تركيا أول دولة تنفصل بإرادة حكّامها عن الإطار الإسلامي الحضاري ، و تُولى وجهها شطر الغرب . و في هذا العالم أيضاً كانت المحاولات الروسية الجنوبية لفصل الأقاليم الجنوبية عن الارتباط الحضاري عن باقي أنحاء العالم الإسلامي قد اتخذت شكلاً رسمياً ، وذلك بتعديل نظام كتابة اللغات التركية في جنوب الاتحاد السوفيتي السابق من الخط العربي اللاتيني ، ثم كان إعلان التحول عن الخط العربي إلى الخط اللاتيني في تدوين اللغة التركية سنة ١٩٢٨ م نقطة حاسمة في التاريخ اللغوي والحضاري التركي . فكان إعلاناً بالتحول عن الارتباط بالعربية و الفارسية ، و دعوة إلى تغريب اللغة التركية ، و قد حاولت الحكومات التركية بقرارات رسمية التخلص من كلمات عربية و فارسية كثيرة كانت قد دخلت التركية و إحلال كلمات تركية بديلة . و على الرغم من هذه المحاولات فقد ظلت نسبة عالية من الألفاظ العربية والفارسية مستقرة في اللغة التركية ، و ما تزال الدولة تسمي نفسها رسمياً باسم Türkiye Cümhuriyeti دون رفض كلمة " الجمهورية " و هي كلمة عربية . ولكن تحول نظام الكتابة من الخط العربي إلى الخط اللاتيني أوقف دخول كلمات عربية جديدة ، وفتح الباب لدخول ألفاظ كثيرة من اللغات الأوربية إلى اللغة التركية الحديثة و المعاصرة ٠

اللغة الآذارية : أو اللهجة الآذارية :

اللغة الآذارية هي لغة آذربيجان ، و تسمى هذه اللغة باسم " آذري " ، و تعد اللغة الآذارية أقرب اللغات من جانبي البنية النحوية ، و المعجم الأساسي من اللغة التركية ، و من

الممكن أن يتفاهم آذري بلغته مع تركي أناضولي بلغته في موضوعات كثيرة دون أن يكون أحدهما قد تعلم اللغة الآخرى ، و كأن اللغتين لهجتان للغة واحدة . و اللغة الآذارية هي اللغة السائدة في جمهورية آذربيجان – و عاصمتها باكو – ، وتوجد جماعات آذارية في إيران . ويقدر عدد أبناء اللغة الآذارية بحوالي خمسة ملايين و نصف ، ثلاثة أرباعهم في جمهورية أذربيجان .

كانت اللغة الآذارية في إطار الحضارة الإسلامية إحدى اللغات التي صنفت بها المؤلفات الأدبية . و هناك تراث أدبي آذاري منذ القرن الثالث عشر الميلادي ، و بهذا تكون الآذارية أقدم في الاستخدام الأدبي من التركية ،و كان الأدباء الآذاريون يجيدون العربية والفارسية ، و لذا ظهرت ألفاظ عربية و فارسية كثيرة في أشعارهم ، وكتاباتهم . و ظهرت محاولات عند بعض الأدباء للاقتراب من لغة الشعب ، و الإقلال من التفاصح بالعربية والفارسية . و كانت الصحافة الآذارية في أواخر القرن التاسع عشر عاملاً مساعداً للوعي الوطني الآذاري في إطار النهضة الإسلامية . و لكن إعلان جمهورية أذربيجان السوفيتية (عام ١٩١٨ م) ، ثم تحويل نظام تدوين اللغة الآذارية من الخط العربي إلى الخط اللاتيني (عام ١٩٢٤ م) ثم إلى الخط الكيريلي الروسي (عام ١٩٣٩ م) حددت الوجهة الحضارية للغة الآذارية إلى داخل الاتحاد السوفيتي ، أما في إيران فتكتب اللغة الآذارية إلى اليوم بالخط العربي ، و بذلك بدأت مرحلة جديدة " آذارية جمهورية أذربيجان " ، و تكونت مفردات جديدة في الإطار الحضاري السوفيتي ، فإذا كان الترك في جمهورية تركيا قد أحلوا محل كلمة " انقلاب " كلمة تركية الأصل هي Devrim فإن اللغة التركية في الاتحاد السوفيتي – و منها الآذارية – تستخدم في هذا الصدد كلمة Rovolyutiya عن اللغة الروسية و عادت آذربيجان بعد الاستقلال عن الاتحاد السوفيتي السابق إلى استخدام الخط اللاتيني .

اللغة الجغتائية := الجغطائية:

اللغة الـجغتائية إحدى اللغات التركية ذات التاريخ الأدبي ، و الثقافي ، وقد دون الأدب الـجغطائي منذ القرن الثالث عشر الميلادي بالخط العربي . و كانت اللغة الـجغطائية في عهد الاسلام زاخرة بالألفاظ الفارسية ، و العربية ، و كان تراثها محاكياً للتراث الفارسي و العربي ، و ظلت هذه اللغة الـجغتائية أهم لغات شرقي دولة التتار ، إلى

أن قام الأوزبك بطرد التتار من وسط آسيا و شرقي إيران في القرن السابع عشر ، فأخذت لهجتهم الأوزبكية في السيادة . و اليوم يتحدث باللغة الأوزبكية حوالي ستة ملايين ، أكثرهم في جمهورية أوزبكستان ، و منهم جماعات في جمهوريات التاجيك و القيرغيز و القازاق .

اللغات الوطنية للشعوب التركية التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق :

هناك مستويات لغوية كثيرة توسلت بها الجماعات التركية في جنوب أوربا ووسط آسيا ، و كان استخدامها مقصوراً على الحياة اليومية عند هذه الجماعات . أما في مجالات الثقافة فقد كانوا – عند الضرورة – يتعاملون بغير لغاتهم المحلية .ولكن السياسة اللغوية للاتحاد السوفيتي جعلت هذه المستويات اللغوية المحلية لغات وطنية ، و دونت هذه اللغات بالخط اللاتيني (عام ١٩٢٨ م) و كانت الآذارية قد دُونت عام ١٩٢٤ م ، ثم عدّل نظام الكتابة إلى الخط الكيريلي عام ١٩٣٩ م و عام ١٩٤٠ م وعاد استخدام الخط اللاتيني .

و أهم هذه اللغات الوطنية للشعوب التركية التي استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق :

١- اللغة الأوزبكية :و هي أهم اللغات التركية في الاتحاد السوفيتي السابق ، ويتحدث بها أكثر من ستة ملايين ، أكثرهم في جمهورية أوزبكستان ، و توجد جماعات أوزبكية في جمهورية التاجيك ، و جمهورية القيرغيز ، و جمهورية القازاق . و تعد اللغة الأوزبكية أهم اللغات في جمهورية أوزبكستان إذ يشكل أبناؤها أكثر من ٦٠% من مواطني هذه الجمهورية و عادت الأوزبكية أيضاً إلى استخدام الخط اللاتيني

٢- اللغة التتارية : تُعد اللغة التركية الثانية بين اللغات التركية ، و يتحدث بها حوالي خمسة ملايين ، أكثرهم في جمهوريتي التتار ، و البشكير و كلتاهما من الجمهوريات التي استقلت عن الاتحاد الروسي الذي يكون مع جمهوريات أخرى الاتحاد السوفيتي السابق ، و لكن التتار يشكلون في جمهورية التتار حوالي نصف السكان فقط ، والباقون من الروس ، و الشوباش .

٣- اللغة القازاقية : تُعد لغة القازاق اللغة التركية الثالثة بين اللغات التركية يبلغ عدد أبنائها أقل من أربعة ملايين ، أكثرهم في جمهورية كازاخستان أي جمهورية القازاق ، وتوجد جماعات قازاقية في الاتحاد الروسي ،و أوزبكستان .

٤- اللغة الآذارية : هي اللغة التركية الرابعة بين اللغات التركية يتحدث بها حوالي ثلاثة ملايين أكثرهم في جمهورية أزربيجان ، و هناك أقليات آذارية في جمهوريتي جورجيا و

أرمينيا . و ذلك بالإضافة إلى وجود الآذارية خارج الاتحاد السوفيتي في إيران . و قد دونت الآذارية منذ القرن الثالث عشر الميلادي بالخط العربي ، و تدّون إلى اليوم خـارج الاتحـاد السوفيتي السابق بالخط العربي ، و لكنها كانت تدون في الاتحاد السوفيتي بـالخط الكيريلـي الروسي و عادت كما سبقت الإشارة إلى الخط اللاتيني .

٥- **اللغة الشوباشية :** هي اللغة التركية الخامسة بين اللغات التركية في الاتحاد السـوفيتي ، يبلغ عدد أبنائها حوالي مليون ونصف ، يعيش حوالي نصفهم في جمهورية الشـوباش ، أمـا الباقون فهم في جمهوريات أخرى داخل الاتحاد الروسي.

٦- **اللغة التركمانية :** هي اللغة التركية السادسة ، و يتحدث بها حوالي مليون فـي الاتحـاد السوفيتي ، أكثرهم في جمهورية التركمان ، و هناك جماعـات تركمانيـة خـارج الاتحـاد السوفيت في شمال العراق ، و تركيا ، و إيران ، و شمال غرب افغانستان ، والقوقاز وكانت تدون بصورة منتظمة منذ القرن السابع عشر بالخط العربي ، إلى أن عدل الاتحاد السوفيتي نظام التدوين إلى الخط اللاتيني ، ثم إلى الخط الروسي ، وبذلك دونت التركمانية داخل الاتحاد السوفيتي بالخط الكيريلي الروسي ، و خارج الاتحاد السوفيتي بالخط العربي و قـد اسـتقلت جمهورية تركمانستان عن الاتحاد السوفيتي السابق .

٧- **اللغة البشكيرية :** هي اللغة التركية السابعة بين اللغات التركية المستخدمة فـي الاتحـاد السوفيتي السابق . يتحدث بها حوالي مليون ، أكثرهم في جمهوريـة الباشـكير ، و توجـد جماعات قليلة من الباشكير في جمهوريات أخرى داخل الاتحاد الروسي .

٨- **اللغة القرغيزية :** هي اللغة التركية الثامنة يتحدث بها حـوالي مليـون ، أكثـرهم فـي جمهورية القرغيز . و قد استقلت عن الاتحاد السوفيتي السابق .

و هناك لغات تركية أخرى ، داخل الاتحاد السوفيتي ، منها لغة الياقوت (٢٥٠٠٠٠ مائتا و خمسون ألفاً) و لغة القاراقلباق (٢٥٠٠٠٠) و اللغة الكوميكية (١٣٥٠٠٠ مائة و خمسـة وثلاثون ألفاً) ، و لغة الجوجوز (١٢٥٠٠٠ مائة و خمسة و-عشـرون ألفـاً) ، و لغـة الأويغور (١٠٠٠٠٠ مائة ألف) ، فضلاً عن أقليات لغوية أخرى يقل عددها عن مائة ألف.

و قد كان لتعديل نظام التدوين إلى الخط الروسي ، بالنسبة للآذارية ، والتركمانية ، وتدوين باقي المستويات اللغوية المحلية و إعلانها لغات و طنية ، في إطار السياسة اللغوية للاتحاد السوفيتي ملامح لغوية بارزة ، و تتضح هذه السياسة اللغوية مما يأتي :

تكوين أبجديات جديدة للشعوب التي لم تكن لها لغات وطنية مكتوبة خاصة بها ، ولبعض اللغات المكتوبة الجديدة التي كانت تتخذ الخط العربي أساساً لتدوينها ، وشكلت لهذا بعد ثورة ١٩١٧ م " لجنة مركزية للأبجدية الجديدة " . و قد وضعت اللجنة في أواخر العقد الثالث أبجديات جديدة تقوم على الأساس اللاتيني . و بذلك انقطعت الصلة مع الخط العربي ، رمز الحضارة الإسلامية .

أثبت التطبيق أن اتخاذ الحروف اللاتينية عند الجماعات التركية جعل علاقاتها مع اللغة الروسية محدودة ، ولذا قرر المؤتمر الأول لكل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق عام ١٩٣٢م الموافقة على مشروع تعديل نظام التدوين إلى الخط الروسي . وبذلك أصبحت هذه اللغات التركية تدور في الإطار الحضاري الروسي . و دخلت اللغة الروسية برامج التعليم باعتبارها اللغة الأجنبية العالمية ، فأصبحت هي اللغة الثانية عند الشعوب التركية داخل الاتحاد السوفيتي .

أصبحت اللغة الروسية مصدر الألفاظ الحضارية و المصطلحات العلمية ،و قد أوضحت دراسة مفردات الصحف الأوزبكية أنه في سنة ١٩٢٣ م كان ٢٨% من الكلمات من أصل عربي و فارسي و ٢٠% من أصل أوروبي ، و في سنة ١٩٤٠ م قلت الألفاظ ذات الأصل العربي إلى ٢٥% ، و زادت الألفاظ الروسية و الأوروبية إلى ١٥% ، و قد زاد معدل التغير في كلا الاتجاهين بتناقص الألفاظ العربية الفارسية، و زيادة الألفاظ الروسية والأوربية . أما في مجالات العلوم الطبيعية و الاجتماعية فإن اللغة الروسية هي المصدر الوحيد بلا منافس. و أتضح هذا من دراسة المصطلحات الأساسية للكيمياء في لغة الباشكير ، فنجد ١٣٢٠ اصطلاحاً أوربياً بصيغته الروسية و نجد ١٤٩ كلمة بشكيرية ، و في مصطلحات علوم الطبيعة نجد ٣٤٤ كلمة بشكيرية ، و ١٤٢٠ اصطلاحاً أوربياً بصيغته الروسية . و هكذا نلاحظ أن الاتجاه العام في تكوين ألفاظ الحضارة و المصطلحات العلمية في اللغات التركية داخل الاتحاد السوفيتي تلخص في العبارة الآتية : " تؤخذ مفردات

الاصطلاحات كاملة تقريباً من اللغة الروسية ، بدون تغير في الهجاء و يسفر هذا أيضاً عن تقريب جميع اللغات الوطنية بعضها للبعض الآخر ، و كذلك مع اللغة الروسية " .

أما بعد أن استقلت هذه الدولة على أثر تفكك الاتحاد السوفيتي فإنها ما زالت تبحث عن طريق لعودة الوعي الثقافي و اللغوي ... هل تعود إلى الخط العربي ؟ ... أم تأخذ بالأبجدية التركية المستخدمة في جمهورية تركيا ؟ ... أم تحافظ على الخط الكيريلي المستخدم و المتحكم منذ سيطرة الروس ؟ هذه كلها قضايا متروك حسمها لأهل اللغة ، مهما تنازعتهم الأهواء ... أو قدّمت لهم الإغراءات ... فلا يمكن أن تنفصل قضايا اللغة عن قضايا التراث و عن قضايا السياسة ، و الاقتصاد والاحتياجات الروحية لأهل هذه اللغات . و إن كانت أذربيجان قد حسمت موقفها و أخذت بالأبجدية التركية الحديثة ،

الأبجديات التي استخدمتها اللغة التركية

يمكن القول بارتياح أنه لا توجد لغة بين لغات العالم تضارع اللغة التركية في عـــدد الأبجديات ، أو الخطوط التي غيرتها ، أو استخدمتها . فالوثائق العلمية تثبت أن اللغة التركية على مدى ألف وثلاثمائة عام استخدمت إثنتى عشرة أبجدية مختلفة هي :

أبجديات : گوك توركية ، صغدية ، أويغورية ، مانية ، براهمية ، سريانية ، عربيـــة ، إغريقية ، أرمنية ، عبرية ، لاتينية ، و سلاڤية ٠

ولو استبعدنا الأبجديات الثمان التي كانت محدودة الاستخدام كالصغدية ، المانيــة ، والبراهمية ، و السريانية ، و الإغريقية ، و الأرمنية ، و العبرانية ، لبقي لدينا خمس أبجديات ، أو لنقل خمس خطوط هامة ، استخدمها الأتراك على مر التاريخ، و هي : الــگوك تورك ، و الأويغوري ، و العربي ، و اللاتيني ، والسلاڤــيــة . و يمكن إرجاع هذا التغيير المتتالي في مدة لم تتجاوز ألف و ثلاثمائة عام إلى اتساع الرقعة الجغرافية التي انتشر فيها الأتــراك وتعدد المدنيات أي الحضارات التي دخل الترك تحت دائرة نفوذها ، أو شاركوا في بنائهـــا أثناء ترحالهم و تنقلهم ، أو خلال فتوحاتهم المتعاقبة و تدينهم بديانات متعددة ٠

و سنحاول في هذه العجالة أن نجول بين تلك الأبجديات لنتعرف عليها في ضوء ما توفر لدينا من مراجع وثائق علمية ٠

(١) أبجدية گوك تورك : Göktürk Alfabesi

طبقاً لآخر الوثائق التي توفرت لدى الباحثين فإن أول أبجدية اســتخدمها الأتــراك هــي الأبجدية الــ [گوك تورك] و يمكن تسميتها أيضاً بــ " كتابات الرونيك التركية القديمـــة " نظراً لتشابهها مع كتابات أو خطوط الرونيك الإسكندنافية و قد و جدت نقوش كثيرة بعــد أن أكتشفها العالم اللغوي الدنمركي الشهير و يلهلــم طومســـون " ihelm Thomson فـــي ١٥ نوفمبر عام ١٨٩٣ م . و مع أن النقوش التي اكتشفت بين وادي " طالاس ببيلاد القيرغيــز" وحوض " نهر ينيسي " الأعلى غنية بحروفها ، و أشكالها ، فإنها حديثة العهــد و لا يعــرف تاريخ بداياتها بالضبط ، و لكن ما عرف فقط هي النقوش التي وجدت في بلاد الغول بالقرب من نهر " أورخون " و في المناطق الشمالية من نفس البلاد فبعضها يرجع إلى أســرة [گوك

تورك] الثانية(٦٨٢ – ٧٤٥) و بعضه الآخر يعود إلي عهد دولة الأويغور في بلاد المغول (٧٤٥ – ٨٤٠)، ويُعتَبر نقش كول تكين " Kül Tigin " هو الوحيد بين هذه النقوش الذي يعرف تاريخ كتابته بالضبط فقد أقيم في أغسطس سنة ٧٣٢ طبقاً للكتابات الصينية الموجودة عليه . أما النقوش الأخرى فكل تواريخها تقريبية و أقدمها يرجع إلى ما بين(٦٨٥ – ٦٩٣) و يعود هذا النقش إلى إيلتريش قاغان " مؤسس الأسرة الثانية للـ گـوك تورك " .

و يُعد كتاب الفال الذي وجد في تركستان الشرقية أقدم نص مكتوب بهذه الأبجديـة ، وهو مكون من حوالي مائة صفحة ، و يرجع إلى القرن التاسع الميلادي.

و أبجدية أورخون تتكون من ثمان و ثلاثين حرفاً ، و هي تزيد عن الأشـكال التـي كانت مستخدمة في العهد السابق عليها مباشرة بمائة و خمسين شكلاً . و كانت الكلمة في هذه الأبجدية تتكون من مقاطع ، أو هجاءات .

و طبقاً لما ذهب إليه طومسون ، فإن الاحتمال الأكثر قبوله هو أن هذه الأبجدية قـد اشتقت من أصل سامي كالآرامية مثلاً ، و انتقل إلى هذه الديار عن طريق أبجديـة فارسـية أخرى ، و قد استند طومسون في نظريته تلك على التشابه الكبير بين بعض حـروف هـذه الأبجدية و حروف الأبجدية الآرامية ، كما أن أبجدية الـ " گوك تورك " القديمة تكتب هـي الأخرى من اليمن إلى اليسار، و يعد هذا دليلاً على أنها اشتقت من أصل سـامي ، و ربمـا يكون أتراك الغرب قد أخذوها عن طريق المسيحيين الذين كانوا يعيشون في المناطق القريبة من الصحاري الواقعة شمال " تيان شان " ويتحدثون الصغدية .

(٢) الأبجدية الصغدية :

يُعد الصغديون من أهم الشعوب الإيرانية التي كان للأتراك بها صلات حضارية بعـد الصين . فقد اكتشف الباحثون الكثير من النقوش التركية التي كُتِبَت بالخط الصغدي متناولـة العلاقات التركية الصينية و الصغدية ، و كان أقدمها هو النقش الذي أُقيم سنة ٥٨١ ـــ كما أن هناك نقشان آخر يعود إلى بداية القرن التاسع كتب بثلاث لغات هي التركية ، و الصـينية ، والصغدية . و جميع الأدلة العلمية تفيد أن الأتراك قد دخلوا لفترات طويلة في دائرة التـأثير الحضاري الصغدي ، و اللغة الصغدية .

و يمكن الاعتقاد أن الأتراك الأويغور قد استخدموا هذه الأبجدية بعد انهيار دولتهم في مغوليستان (٧٤٥- ٨٤٠) و هجرتهم إلى شرق التركستان . و مع أن النصوص التركية التي كتبت بالصغدية قليلة فإنها تعود كلها إلى البوذين الأويغور كما سبقت الإشارة أن فالصغدية مشتقة من أصل سرياني سامي .

(٣)الابجدية الأويغورية :

يعد الخط الأويغوري ، أو الأبجدية الأويغورية من أكثر الأبجديات انتشاراً بين الأتراك بعد تركهم خط الرونيك الاسكندنافي . و هو مشتق من الخط الصغدي ، ولكنه أكثر سهولة و طواعية في الكتابة منه .

و بالرغم من أن هذا الخط لا يغطي احتياجات اللغة التركية ، فإنه ظل مستعملاً من قبل الأتراك فترة طويلة . فمعظم المخطوطات الأويغورية المتعلقة بالديانات البوذية التي انتشرت بين الأويغور في تركستان الشرقية -و لمدة أربعمائة سنة منذ منتصف القرن التاسع - كانت كلها مكتوبة بالخط الأويغوري . كما أن النصوص المانية ، و المسيحية ، والنسطورية التي كتبت بهذا الخط ليست قليلة .

و أقدم المخطوطات الأويغورية نص متعلق بالديانات المانوية يعود إلى القرن الثامن . كما أن الأدب البوذي الذي كتب بالأويغورية قد وصل إلى نقطة النمو والكمال في القرنين التاسع و العاشر حيث ترجمت إليه كثير من الأعمال الصينية البوذية .

و قد استخدمت الأبجدية الأويغورية خارج حدود الدولة الأويغورية التي تكونت في تركستان الشرقية ، فكما هو معروف فإن نسخة قينا من كتاب " قوتادغو بيليلك " ، " علم الحقيقة " الذي استنسخ في هرات سنة ١٤٣٩ مكتوبة بالخط الأويغوري كما أن " أغوز قاغان داستاني " ، " ملحمة أغوز قاغان "، " و معراج نامة " كتاب المعراج ، و خاصة النسخ الموجودة في المكتبة الوطنية بباريس مكتوبة كذلك بنفس الخط . و يستفاد من الخطاب الذي أرسله السلطان محمد الفاتح إلى أوزون حسن بالأويغورية أنها كانت معروفة لدى كتاب البلاط العثماني .

و لقد انتقلت هذه الأبجدية إلى المغول منذ منتصف القرن الثاني عشر و ظلت مستخدمة بينهم حتى القرن العشرين .

(٤)الأبجدية المانية :

كان الخط الماني بين الخطوط التي استخدمتها التركية على مر العصور. فلقد عرفت المانية ، أودين ماني بين الترك منذ أزمنة مبكرة ، فلقد أعلن الحاكم الأويغوري [بوغوقاغان] (٧٥٩ – ٧٨٠) أن المانوية هي الدين الرسمي للبلاد سنة ٧٦٢ و لقد قام الأويغور المانويون حتى قبل أن يهاجروا إلى تركستان الشرقية بتطويع الخط الماني و تطويره حتى يتلاءم مع التركية٠

و الخط الماني مشتق من الخط الإسترانجيلو الذي يعد همزة الوصل بين الخط الآرامي و السرياني . و النصوص التركية المكتوبة بالأبجدية المانية محدودة جداً ، ولا تخرج عن نطاق النصوص الدينية المانوية و قد وجدت في " طورفان " و " طونج هوانج " وأشهرها مخطوطة بخط يد النبي ماني نفسه ، و هي عبارة عن أدعية توبة و استغفار ، و يمكن أن تكون ترجمة عن الصغدية ٠

(٥)الخط البراهمي :

بعض النصوص التركية قد كتبت بالخط البراهمي الذي يختلف اختلافاً كبيراً عن الخطوط الصغدية ، و الأيغورية ، و المانوية ، و الخط البراهمي هندي الأصل قد استخدم في كتابة اللغة السنسكريتية ، و قد نقله المبشرون البوذيون بين الأتراك في أواسط آسيا . كما قد أضافوا إليه بعض الإشارات التي تعبر عن الأصوات غير الموجودة في اللغة الهندية ، ويُكْتَب هذا الخط من الشمال إلي اليمين على العكس تماماً من الخطوط السامية التي تُكتب من اليمين إلى اليسار و هو من الخطوط ذات المقاطع المنفردة ٠

و النصوص التركية التي كتبت بهذا الخط تُعتبر في غاية الأهمية بالنسبة لدراسة تطور اللُّغة التركية ، و إن كان من اللازم ألا يغيب عن الذهن أن هناك فوارق كبيرة بين تركية هذا الخط ، و تركية الخطوط الأخرى ٠

(٦)الخط السرياني :

و لقد انتشر الدين المسيحي بين أتراك آسيا الوسطى ، و الأيغور في تركستان الشرقية و خاصة المذهب النستوري ، و قد عثر الباحثون في ضواحي طورفان في تركستان الشرقية على نصوص مسيحية أويغورية . و في مكتبة برلين نصوص مسيحية تركية كتبت بالخط

السرياني ، كما وجدت شواهد قبور مسيحية تركية نقشت بالخط السرياني في داخل مغوليستان و خاصة في منطقة " يدي صو " و هذه الشواهد تعود إلى الأتراك المسيحين النستوريين الذين يعيشون في أعماق منغوليا ، و تنحصر أزمنتها فيما بين القرن الثامن الرابع عشر •

و هذا الخط يكتب من اليمين إلى اليسار كبقية الخطوط السامية . و هو الخط الإسترنجيلو

(٧)الخط العربي:

مما لاشك فيه أن الخط العربي يُعد أشهر الخطوط التي استخدمها الأتراك سواء من ناحية الإطار الزمني ، أو المحيط الجغرافي ، فمنذ أن بدأ الإسلام في الانتشار بين الأتراك منذ أواسط القرن التاسع الميلادي ، و حتى أواسط القرن العشرين ، و الأتراك يكتبون لغاتهم و لهجاتهم بالخط العربي . و كان الخط العربي ما يزال مستخدماً بين أتراك تركستان الشرقية و الأيغور في و لاية " سنج يانج " الصينية حتى عهد قريب ، و مازال هذا الخط مستخدماً بين التركمان ، و الأتراك الذين يعيشون في كركوك بالعراق •

و الخط العربي من الخطوط الهجائية السامية ، تطور عن أحد الخطوط الآرامية وكانت الأبجدية العربية في صدر الإسلام تكتب بالخطين الكوفي ، و النسخي ، و اندثر الخط الكوفي ، و ترك مجاله لخط النسخ ، و على هذا فإن الخط العربي السلس المعاصر هو تطور لخط النسخ •

و كان أول من كتب التركية بالخط العربي بلاشك من القراخانيين هو محمود الكاشغري في معجمه [الهام] " ديوان لغات الترك " الذي كتبه سنة ١٠٧٣ م و يهدف إلى تعليم التركية لأبناء العربية ، و هذا المعجم من التركية إلى العربية ، و قد طوَّع التركية للخط العربي ، و حركاته المختلفة سواء الحركات الطويلة " الألف و الواو والياء " أو الحركات القصيرة " الفتحة و الضمة و الكسرة " حتى صارت التركية بالخط العربي لغة الكتابة السائدة منذ القرن الثاني عشر، و الثالث عشر (و كانت تسمى الغزبة أو التركية الشرقية) و أنضج نموذج لها في تلك الآونة هو كتاب " بهجت الحقائق " ، و لقد نجح كاشغرلي محمود في المزج بين الخط العربي ، والإشارات الفارسية التي تُعبر عن الحروف التركية غير الموجدة

في العربية ، و التي استحدثها الايرانيون بعد استخدام الخط العربي مثل الـ " گ " والـ " چ " و الـ " ژ " و الـ " پ " .

و ظلت الأبجدية العربية هي السائدة في الإمبراطورية العثمانية ، و كان لها دورها البارز في تطوير اللغة التركية خلال تلك الفترة حتى أوصلتها إلى المنزلة الثالثة بين لغات الحضارة الإسلامية ، و إن كان ما يؤخذ على الخط العربي في كتابة التركية أن الحروف الصوتية العربية لم تكن لتغطي كل الحروف الصادرة في اللغة التركية ، وبخاصة الحروف الصوتية الدالة على الضم ففي حين تُعَبِّر عنها التركية بأربعة حروف هم " Ü , U , Ö , O فإن العربية تُعَبِّر عنها بحرف واحد هو " الواو " لأن التركية لا تعرف التشكيل .

(٨)الأبجدية الأرمنية :

بعد أن قضى الأتراك السلاجقة على الدولة الأرمنية في شرق الأناضول في وآسط القرن الحادي عشر اضطر الكثيرون من الأرمن إلى الهجرة إلى القرم والاستيطان بها . ثم ذهب البعض منهم فيما بعد إلى أُوكرانا الغربية و استقروا هنالك. و قد عاش هؤلاء الأرمن مئات السنين متعاونين و متحابين مع الأتراك **القپچاق** في القرم و أُكرانيا و كان من نتيجة هذه الحياة المشتركة أن قبل الأرمن دين العامة و لغة هؤلاء الأتراك **القپچاق** ، و أصبحوا يستخدمون اللغة **القپچاقية** في الكتابات الكنائسية ، و الرسمية ولكنهم كانوا يكتبون تلك الكتابات بالخط الأرمني .

و الخط الأرمني من أصل آرامي ، وأكثر الكتابات التركية بالخط الأرمني تُعد وثائق رسمية ، و كانت بعض هذه الوثائق التي تعود إلى القرنين السادس عشر والسابع عشر موجودة في كييڤ إلى سنة ١٩٤٣ م ، و لكنها أُحرقت أثناء الانسحاب الألماني سنة ١٩٤٤ م . و لكن مازال هناك حوالي ثلاثون مخطوطة تركية بالخط الأرمني موجودة في مكتبات العواصم العالمية مثل ڤينا، و باريس ، و برسلاڤ ، و قراقوف و بين هذه المخطوطات قاموس بالقپچاقية الأرمنية .

(٩)الأبجدية العبرية :

كان " القرائملر " اليهود الذين ينتمون إلى أصل تركي و يعيشون في القرم حتى عام ١٩٤٣

م وحالياً في أوكرانيا و ليتفانيا يكتبون أعمالهم الدينية التركية بالخط العبراني . و أقدم التراجم التوراتية تعود إلى القرن السادس عشر و الثامن عشر .

و القرائميون يكتبون آدابهم التي تطورت تحت التأثير الغربي منذ القرن التاسع عشر بالخط الروسي ، أو اللاتيني .

(١٠) الابجدية الإغريقية :

كان الأتراك اليونانيون الأرثوذكس ، و الذين يتسمون بالقرامانيين ، و يعيشون في المدن التركية الكبيرة في الأناضول كأستانبول و أزمير حتى معاهدة تبادل المواطنين بين الترك و اليونان التي عقدت عام ١٩٢٤ م يكتبون لهجاتهم ومحاوراتهم التركية بالأبجدية الإغريقية .

و أقدم مخطوطة تركية قرامانية كُتِبَت بالخط اليوناني " الإغريقي " تعود إلى القرن السادس عشر ، و هناك مخطوطات أخرى كثيرة تعود إلى القرنين السابع عشر و الثامن عشر . ثم تم طبع عدد لا بأس به من الكتب التركية القرامانية في القرن الثامن عشر في المدن الكبرى كأستانبول ، و أزمير ، و بعض عواصم أوروبا ، و إن كانت معظمها أعمال دينية .

(١١) الأبجدية اللاتينية :

كان الأتراك الآذاريون هم أول من استخدموا أبجدية تمت إلي الأصل اللاتيني ← بصلة ، فقد بدأت الأفكار التي تدعو إلى تغير الخط العربي إلى اللاتيني بين الآذاريين منذ القرن التاسع عشر . فلقد تقدم المفكر الآذري ميرزا فتحعلى آخوندوف بمشروع يقترح فيه إحلال أبجدية لاتينية سلاڤية محل الأبجدية العربية ، و لكن الوضع السياسي و الاجتماعي لم يكن يسمح بتحقيق مشروع كهذا ، أو حتى مجرد مناقشته .

و لم يتحقق هذا إلاَّ بعد الثورة الروسية و خاصة عام ١٩٢٣ م حيث تقرر بقانون فُرِض في جمهورية آذربيجان السوفيتية الاشتراكية عامي ١٩٢٣ /١٩٢٤ تطبيق الحروف الحديثة في اللغة التركية الآذارية . و مع هذا لم تُطبق في التعليم إلاَّ عام ١٩٢٥ م و تعاقب استخدام الخط اللاتيني في جمهوريات الاتحاد السوفيتي ، وكان آخرها عام ١٩٥٧ م ، ثم أعقبها الأتراك الموجودون في الصين حيث كان القازاق والأيغور حتى عام ١٩٧٠ م يكتبون

اللغة التركية الأيغورية بالحروف العربية ، و لكن بعد هذا التاريخ تقرر استخدام أبجدية جديدة مشتقة عن الأصل اللاتيني .

و كان أتراك الأناضول الذين يعيشون في تركيا الحالية يستخدمون الأبجدية العربية إلى حين صدور قانون الانقلاب اللغوي في الأول من شهر نوفمبر عام ١٩٢٨م تحت رقم ١٣٥٣ منهياً بذلك استخدام الخط العربي ، و مقرراً استخدام الأبجدية اللاتينية التي تتكون من تسعة و عشرين حرفاً .

و بهذا ، فإن كان الخط اللاتيني قد سهل استخدام اللغة التركية في القراءة والكتابة وقلل من نسبة الأمية بين الأتراك الذين يزيد سنهم عن ست سنوات حتى صلت سنة ١٩٧٠ إلى ٥٤,٦٧% بينما كانت سنة ١٩٢٧ لا تتجاوز ١٠,٦ % بين الذين يزيد سنهم عن سبع سنين فإن هذا الخط قد خلق سداً منيعاً بين الأتراك المحدثين و ثقافاتهم ، و حضاراتهم السابقة و لم تَعد في مقدور مثقفيهم ، أو شبابهم الاطلاع على ما خلَّفه لهم أجدادهم على مدى ما يزيد عن ألف سنة من تراث فكري ، و عقلي، و أدبي بل في كل ما يتصل بفروع الحضارة الوارفة.

كذلك لابد من الإشارة إلى أنه في حين كان الخط العربي يجود بين التراث أو الحضارة التي كانت نتيجها اللغة التركية في شتى لهجاتها ، أو اللغات التركية – كما يفضل المستشرقون و اللغويون و الباحثون الغربيون أن يسموها – في مختلف بقاعها فإن الخط اللاتيني الذي استحدثت كل لهجة تركية فيه لنفسها ما يغطي احتياجاتها الصوتية جعل من العسير على أبناء لهجة ما الاطلاع على ما كتبه أبناء عمومتهم في لهجة أخرى ، بل يكون مدهشاً لغرابته على حد قول الأستاذ الدكتور طلعت تكين أحد المتحمسين للخط اللاتيني .

<u>(١٢)الأبجدية السلافية :</u>

إن اللغة التركية بشتى لهجاتها أو لنقل اللغات التركية ، بين مختلف الطوائف التركية التي تعيش داخل جمهوريات الاتحاد السوفيتي السابق أصبحت الآن كلها تكتب بالخط السلافي ، و بهذا تقطعت و إلى الأبد الصلات الحضارية و الثقافية التي كانت تربط الأتراك بماضيهم .

فالخط أو الأبجدية السلاڤـية من أصل يوناني (إغريقي) ، قام أحد رجال الكنيسة البيزنطية في أواخر القرن التاسع الميلادي بتطويعه بما يتلاءم مع سلاڤية الكنيسة القديمة ، وظل هذا الخط مستمراً منذ ذلك التاريخ حتى يومنا هذا مع بعض التعديلات الطفيفة التي كانت تطرأ عليه من حين لآخر . و يسمى هذا الخط في روسيا و بلغاريا بالخط الكريلي نسبة إلى موجده " كريل " ٠

و لقد تتابع استخدام الخط السلاڤي من قبل اللهجات التركية ، كان أولها اللهجة الچواشجية المستخدمة بين أتراك بلغاريا في القرن الثامن عشر الميلادي ، على يد المبشرين الروس ، ومن غرائب القدر أن تستخدم بقية اللغات أو اللهجات التركية هذه الأبجدية السلاڤية أيضاً على أيدي الملحدين الروس بدءاً من سنة ١٩٢٤ م حتى سنة ١٩٥٧ م ٠

و يجب ألاَّ يُقبَل بسهولة الادعاء الذي يذهب إلى القول بأن الأبجدية السلاڤية أكثر سهولة و طواعية للغات التركية ، فلم يكن ، و لن يكون كذلك كما سيتضح في أبحاثنا القادمة إن شاء الله ٠

المبحث الثالث

الأدب التركي قبل الإسلام و بعيده

أولاً : - الأدب الشفاهي:

أ ‍ • -أهم السير و الملاحم التركية .

ب • - الأساطير الشعبية .

ثانياً : - الأدب المكتوب :

• - أدب نقوش بنغو ..

• - أنصاب بنغو ..

• - اكتشاف مسلات بنغو و قراءتها ..

• - سيرة = " ملحة البطل آلــپــاميش ...

• - العناصر الدينية و القومية في ملحمة آلــپــاميش...

الخيل .. الأولياء ... الموسيقى ...

المبحث الثالث

﴿ الأدب التركي قبل الإسلام و بُعَيْدَه ﴾

أولاً : الأدب الشفاهي :-

إن النتاج الأدبي ينقسم إلى فرعين رئيسين هما: أ- الأدب الشـفاهي ،و ب- الأدب المكتوب ،ويعتبر الأدب الشفوي أسوأ حظاً لأنه لم يدوّن إلاّ قليل منه في العصـر الحـديث . ومن هذا المنطلق فالتعرف على أشكال هذا الأدب بشكل كامل أمر غير ممكن .ولكن نستطيع أن نحصل على النزر اليسير بصدد هذا الأدب من ثلاثة مصادر:

١- ترجمات بعض النصوص في اللغات الأخرى التي كان للترك علاقـات بهـم كالصـين والتبت والبيزنطيين والغوط والفرس والعرب .

٢ - من بعض النصوص التركية التي تم تسجيلها في عصور لاحقه باللغة التركية ومن قبـل الأتراك أنفسهم ۰

٣- من الأبحاث التي قام بها الباحثون حول الأقوام والقبائل التركية منذ القرن التاسع عشـر والعشرين۰

١- بعض القطع المتعلقة بالملاحم التركية ،وقد تم استنباطها من المصادر الصـينية وتتعلق بملاحم وأساطير سِيَنْبى Siyenpi والبوزكورد = الذئب الأغبرBozkurt وأسطورة الخلق Türeyiş وملاحم الهجرة ۰

كما تم الحصول على بعض المقاطع من أغنية هونيه تغنى بها الهون بعـد الهزيمـة التي لحقت بهم سنة ١١٩ق . م . وقد سجلتها المصادر الصينية . وتُعتبر بكائية فـي حـب الوطن۰

كما تُسجل مصادر التبت جزءا من تقرير قواعد باللغة الأويغورية ويرجع إلى القرن الثامن . كما تُسجل بعض المصادر البيزنطيون بعض الروايات عن الأتراك والتـي سـجلها السفراء البيزنطيين الذين كان يُبْعَث بهم إلى الدول والإمبراطوريات التركية۰

كذلك فإن المصادر الفارسية قد سجلت بعض الأجزاء من ملحمة آلب أر تونغه Alp Er Tonga وخاصة في شهنامة الفردوسي كما أفسح المؤرخ رشيد الدين في كتابه الفارسي "جامع التواريخ" مجالاً فسيحاً للحديث عن ملحمة "أرغنه قون" Ergene Kon التي تتعلق بالگوك تورك ، كما أن ملحمة الهجرة التي ترجع إلى الأويغور موجودة في المصادر الفارسية.

كذلك فإن كتاب " ديوان لغات الترك" والمدوّن باللغة العربية يحتوى على الكثير من الأساطير والخرافات المتعلقة بالترك . كما يحتوى كتاب الطبري على بعض الروايات عن ملحمة آلب أرتونغه أيضاً.

٢- فيما بين النتاج الشفوي الذي تم تسجيله في العصور اللاحقة من قبل الأتراك أنفسهم وباللغة التركية، فهناك **أشعار** وبعض **القطع الملحمية والرباعيات الغنائية** مدونة في كتاب " ديوان لغات الترك" . وقد قدم محمود الكشغرى (القرن الحادي عشر الميلادي) في كتابه هذا وبهذه المقطوعات التي أوردها نمطاً من الأشكال الرباعية في الشعر ، كما يوضح ذلك أن الحياة الاجتماعية للترك . قد انعكست على الشعر وبين أشطره وقد قدَّم كتابه هذا الذي أتمه في العاشر من فبراير ١٠٧٤ م إلى الخليفة العباسي المقتدى بالله .

كما يمكن أن نضيف **حكايات** الجد قورقوت " Dede Korkut" إلى هذا القسم.

٣- أما أهم الباحثين الذين قاموا بأبحاث حول الأتراك فهم راد لوف في القرن التاسع عشر ، حيث استطاع أن ينسب بعض الأجزاء من ملحمة سِيْنبى Siyenbi إلى أتراك آلتاى. وأسند ملحمة كوراوغلى Köroğlu إلى الأوزبك في أوزبكستان وإلى التركمان وإلي الآذاريين في آذربيجان والأتراك في تركيا ، أما ملحمة مناص Manas فقد أسندها إلى القيرغير والقازاق . كما قام نفس الباحث بإسناد بعض حكايات " ده ده قورقوت " إلى مناطق مختلفة في الأناضول وآذربيجان أيضاً.

أ- أهم السير والملاحم التركية

أهم السير والملاحم:

إن أهم نتاج أدبي شفاهي يُعتد به ويمكن إسناده إلى فترة ما قبل الإسلام في تاريخ الأدب التركي هي الملاحم و قد أمكن تقسيمها إلى أقسام نتبع بعضها بعضاً:

١- الخلق Yaradılış

٢- صاقا"آلب أرطونغه وشو " Saka Alp er Tonga Ve Şu

٣- ملحمة أوغوز قاغان = Oğuz Kağan

٤- سينبى Siyenpi

٥- گوك تورك Gök Türk

٦- أويغور Uygur

وقد قام رادلوف في القرن التاسع عشر باستنباط ملاحم الخلق من تراث أتراك آلتاى . وعلى الرغم من أن هذه الملحمة تم تسجيلها ودراستها في زمن متأخر إلى حد ما بالنسبة إلى الدين القديم الذي ينتسب إليه الأتراك فإنها تعكس أقدم المعتقدات التركية حول خلق الأتراك ، ولا يمكن استبعاد التغيرات التي حدثت عليها بمرور الزمن .

أما أسطورة أو لنقل ملحمة "صاقا" فإنها تنقسم إلى قسمين / آلب أرتونجه ، وشو .

ملحمة آلب أرتونجه : تتحدث عن حاكم صاقا المشهور والذي يحمل نفس الاسم في القرن السابع قبل الميلاد . وكما أن هذا الحاكم قد أخضع كل أواسط آسيا لسيطرته ، فإنه قد فتح بلاد القفقاس من الشمال إلى الجنوب، بل وصل إلى الأناضول و سوريا .. وقضى وقتاً طويلاً في الصراع مع الإيرانيين ، وقد قتله الإيرانيون بالسم خلال الوليمة التي أقامها له كيخسرو الحاكم الإيراني في إحدى سنوات ٦٢٦ أو٦٢٥ أو٦٢٤ ق . م وهو نفسه الذي يمر ذكره في المصادر الإيرانية والبيزنطية والعربية الإسلامية تحت اسم"آفرسياب" ولشجاعته فقد تم تخليد ذكراه وحروبه في هذه الملحمة.

وقد تحدث عنه كل من يوسف خاص حاجب ، ومحمود الكاشغرى كاتباً القرن الحادي عشر الميلادي ، و وفقاً لما ذهبا إليه فإن الترجمة التركية للقب آفراسياب هي [تونجه آلب

أر] أي البطل آلب طونجه . وينتسب إليه العديد من ملوك الـگوك تـورك، والقراخـانيين وحكام الأوغور البوذيين؛ هذا وفقاً لما ذهب إليه كل من المرجاني و الجوني ، وفق وفقـاً لكتاب " شجرة التراكمة " فإن ملوك السلاجقة ينحدرون إلى هذا الحاكم البطل .

و لا نملك من هذه الملحمة سوى قطع بسيطة ورد ذكرها في كتاب " ديـوان لغـات الترك " .

أما ملحمة شو " **Şu** " فترجع إلى أحداث سنوات ٣٣٠ – ٣٢٧ ق . م . ففـي هـذا التاريخ استولى الإسكندر المقدوني على إيران و تركستان . و كان على رأس الترك آنـذاك حاكم يُسمى " شو " ، و تقص الملحمة هذا الصدام فيما بين شو والإسكندر المقدوني . و تثبت الملحمة أن أربعاً و عشرين قبيلة من قبائل الترك بقيت في التركستان و لم تهاجر إلى الجنوب . و هم الذين شكلوا قبائل الغز. وربط محمود الكشغري بين هؤلاء و بين التركمـان ، و أن الاسكندر هذا ما هو إلاّ الاسكندر ذي القرنين وفقاً لما ذهب إليه الكشـغري ، أمـا ملحمـة أوغوزقاغان فيظهر فيها تأثير ملحمة آلب أرتونجه و تدور حول حياة موتـون Motun = Mete يابغو الهون . ومع الأسف لم تصل هذه الملحمة إلى أيدي الباحثين بشكلها الأصلي . و في أيدينا اليوم بعض المقطوعات المختصرة من هذه الملحمة التي تتشـكل حـول حيـاة "أوغوزقاغان"، وهناك مقطوعات منها بالحروف الأويغورية .وهى تجسد شكل ونمط حياة الأتراك قبل الإسلام.

وهناك من الباحثين مَن يدعون أن حكايات "ده ده قورقوت" ما هي إلاّ مقطوعات من ملحمة أوغوز قاغان .

إذا ما انتقلنا إلى ملحمة سينبى Siyenpi . فنجد أنها تحكى عن المولد والبطـولات الخارقة للحاكم "طان – شه هواى" = " Tan Şe Hoay حاكم ينبى Yenbi الذي عـاش فـي القرن الثاني قبل الميلاد . وقد تم تسجيلها في المصادر الصينية بشكل مختصر . و قـام راد لوف بجمعها بشكل أكثر تفصيلاً بعض الشيء من بين أتراك آلتاى.

أما ملحمة گوك تورك **Gök Türk** فهي متعلقة بنشأة الـوگـك تورك وظهـورهم على مسرح التاريخ . وترد في المصادر الصينية تحت مسمى " ملحمة بوزكورت "أي ملحمة

الذئب الأغبر .أما رشيد الدين وغازى بها درخان فيوردها كل منهما في تاريخه تحت مسمى" ملحمة أرغنه كون". وإن كان البعض يرى أن هذه ملاحم تختلف عن بعضها البعض.

إن ملحمة أويغور ما هي إلا مقتطفات تتحدث عن نشأة الأويغور وهجرتهم، وقد تم استخلاصها من المصادر الصينية . وتحكى عن انحدار الأويغور من ذئبة بوزقيرية ، و هجرتهم من منطقة أوتوكن Ötüken إلى حوض طاريم . و القسمان يتممان بعضهما . يمكن أن يضاف بعد هذا الحديث عن التراث الشعبي الذي أمكن تسجيله في العصر الحديث ملحمة آلپاميش .

ب-الأساطير الشعبية = " الحواديت "

إن الأساطير الشعبية التركية تُمثل نتاجاً فنياً رائعاً للإبداع الشعبي . فلقد تشكلت تلك الأساطير عبر قرون طويلة من الزمن ، و نُسجت حكاياتها المتنوعة على ألسنة الرواة والحكاة الذين نقلوها من جيل إلى آخر . و خلال تلك الرحلة الزمنية الطويلة التي قطعتها ، تعرضت الأساطير إلى العديد من التغيرات التي دائماً تُصيب سائر الفنون الشعبية والفلكلورية . تمثلت تلك التغيرات في " غربلة " الأساطير ، وتنقيتها من الشوائب الدخيلة والمبتذلة عبر العصور . وصقل جوهرها الإبداعي حتى وصلت إلينا في أبهى و أرقى صورة فنية .

تعكس الأساطير في جوهرها الواقع المادي الذي تعيشه الشعوب . وهي مرآة صادقة لعادات تلك الشعوب و معتقداتها الروحية و الدينية . و لهذا فإن الأساطير كثيراً ما تصُبح خير معين لدارسة الظواهر التاريخية و الاجتماعية والثقافات القديمة.

الأساطير الشعبية ثمرة للوعي الاجتماعي و الإبداع الجماعي للشعوب ، والدليل على ذلك أنها عندما تُلقي بالضوء على مراحل تاريخية معينة نجدها تفعل هذا من منظور وإدراك شعبي ، فهي تُجسد في صورة فنية صادقة الآمال التاريخية للشعوب ، كما تُبرز الأساطير أخلاقيات و سلوكيات تلك الشعوب . فتتغنى في حكاياتها بأحلامهم حول السعادة

المنشودة و العدل الاجتماعي ، و تُمثل مع السير والملاحم أهم منابع الثقافيــة الشــعبية لأي شعب من الشعوب ،

خصائص الأساطير الشعبية التركية :

الأساطير الشعبية التركية تتميز بالإيجاز الشديد و المعاني المكَثّفَة . و أيضاً بالحيوية و الوصف الدقيق للملامح الرئيسة التي تتسم بها الشخصيات . و هي كثيراً لا تــذكر اســماً معيناً للبطل أو الشخصية المقدمة ، بل نجدها تصف نماذج عامة بمسميات عامة : الغني ، الفقير ، الكريم ، البخيل .. إلخ . أما الصدام و التفاعل بين تلك الشخصيات فيدور في بنــاء فني بسيط يتسم في الوقت نفسه بالعمق و الإقناع ،

كانت الأساطير الشعبية تنتقل عبر الزمن بالوسائل الشفهية ، فكان ذلك سبباً لتعرضها إلى الصقل المستمر و التكثيف الدائم ، و أصبح من النادر أن تجد فيها وصفاً زائداً للأحداث أو تفاصيل لا حاجة لها ، و نتيجة لذلك فقد أصبحت الأسطورة الشعبية – على الرغم مــن صغر حجمها – مشبعة بعالم رحيب من الأفكار و المشاعر الإنسانية و المعاني المكثفــة دون أن ترتبط ببيئة جغرافية معينة أو زمن محدد ،

في الأساطير الشعبية التركية تتنوع الملامح الداخلية و الخارجيــة للبطــل . كمــا تتطابق تلك الملامح مع الثقل الفكري الذي تعبر عنه . و تركز الأساطير على إبراز الطبائع المتنوعة للشخصيات الاجتماعية و على الجوهر الروحي لتلك الشخصيات ،

تنبض الأساطير التركية بحس شاعري إنساني يتمثل في استثارة و تحفيز مشــاعر السامع و القارئ نحو الإحساس بالعدل و العدالة . و على الرغم مــن بســاطة الصــراعات الإنسانية في تلك الأساطير ، فإنها تكشف لنا عن السمات الرئيسة للعلاقات الاجتماعية بــين البشر .فيشعر السامع أو القارئ لدى سماعه أو قراءته لها بالتعاطف والمــودة إزاء البطــل الطيب و الخيّر ، و بالمشاعر المعاكسة تجاه الشخصية النقيض ،

في قلب كل أسطورة تنبض دماء الواقع ، فالخيال الأسطوري الــذي جســد آمــال الشعوب كان دائماً يمهد السبيل أمام التطور في جميع مجالات الحياة الاجتماعية والروحية . منذ أقدم العصور كان الإنسان يحلم بالطيران و ملامسة السحاب في السماء ، و بالسفر إلــى

البعيد و الحركة في زمن قصير ، و غيرها من الأحلام الأسطورية التي تحولت فيما بعد إلى حقائق . فمن هنا فإن الأساطير الشعبية أو " الحواديت " هي تعبير عن الشعور و الأحلام الجماعية للأمة كلها .

الأساطير الشعبية التركية تفيض بقدرة حيوية فائقة . و فيها يصبح الخيال شكلاً من أشكال التعبير عن الحكمة و الآمال ، و المستقبل السعيد للناس . و الجوهر الرئيسي فيها هو السعي الدائم إلى التغلب على مصاعب الحياة و تجاوزها و الدعوة إلى النضال من أجل المستقبل المشرق . لقد اخترع الناس الزورق و الشراع حتى يسبحوا ضد التيار ، و صنعوا القوس و السهم لقتل الوحوش المفترسة التي لا يستطيعون الاقتراب منها ، وأبدعوا الكثير من أدوات العمل التي جعلت الإنسان سيداً بلا منازع على . الأرض إن كل ذلك يدخل ضمن الجانب السياسي و الاجتماعي للحياة البشرية . فعندما تعلو الفكرة و تتخطى حدود التنفيذ العملي لها ، تتحول إلى صورة خيالية مَجازية ، و هذا بالتحديد هو فن الأسطورة الشعبي الرائع .

الأساطير الشعبية التركية تمتلئ بالكثير من المثل التعليمية و القيم الجمالية الرائعة . كما تحتل مساحة كبيرة فيها موضوعات الحب و الصدق العميق . إن الخيال في تلك الأساطير و التحليق معها يُساعد على تهذيب الأفكار و صياغتها في صور فنية مضيئة ، مما يحقق الهدف من البناء الفني و الفكري للأسطورة . فالخيال المشرق و الفرح الصادق في الأسطورة كانا دائماً الدافع للبشر في سعيهم من أجل العدالة والمساواة و الفوز بالسعادة . كما كان الخيال الأسطوري وسيلة فاعلة لنشر الأفكار والنضال من أجل الحرية والبحث عن الخير للجميع ، و ظلت الأسطورة الشعبية دائماً تبعث لدى الناس مشاعر التفاؤل و الأمل بالسعادة في أحلك الأوقات و أشدها عليهم . و في كل هذا نستطيع أن ندرك السر في خلود الأساطير الشعبية و بقائها على مر الزمن .

إذا كان أبطال الماصال أي الأساطير الشعبية و الحواديت هم بصفة عامة الملك و الأمير و الوزير و الكاهن و الساحرة و الفتاة الفقيرة أو الغلام الذكي صاحب العقل الراجح و الفكر المتقن و الأصلع و الأعمى والشاطر و غير ذلك من الأنماط البشرية العامة ، فيشترك

مع تلك الشخصيات غير المحددة شخصيات أخرى خرافية كالجان الطيب و الشرير منهم على حد سواء .. و الغيلان و التنين و العجوز الشمطاء و الساحرة . . و الخدم الزنوج ٠

و لما كانت الأسطورة الشعبية غير محددة بمكان أو بزمان معيَّن فإن تحديد منشئها بشكل دقيق أمر في غاية الصعوبة . . و لا يتوفر هذا إلاّ لكبار المختصين والذين يبحثون في الأسطورة عن مفردات يمكن أن تؤدي إلى تحديد تقريبي للزمان والمكان ٠

ثانيا :الأدب المكتوب :-

أدب بنغوطاش = Bengütas Edebiyatı " أدب نقوش بنغو "

لقد ظهر للترك أدب مكتوب منذ عصر الــوگك تورك . و قــد أُطلــق عليــه أدب بنغوطاش ؛ أي أدب نقوش بنغو . و هو أول نتاج أدبي مسجل يصل إلى أيــدي البــاحثين . وكلمة بنغوطاش تعني الحجر الخالد أي النقش الأبدي . و كمصطلح " آبيده = آنيت " تعنــي النصب التذكاري . و خاصة ذلك النصب الذي يُقام بعد وفاة الحاكم أو أحد رجــالات الدولــة الكبار . و غالباً ما يكون على شكل أو هيئة مَعْبَد قد تم العناية بزخرفته خارجياً و داخليــاً . ويُقام في المعبد أو في حديقة تُقام ، أو مسلة مكتوب عليها آثار و أعمال الحاكم . و لقد أصبح ذلك من المراسم و العادات المتبعة منذ خاقانية الــگوك تورك . و كانت تُنقش أقوال الحــاكم وتمنياته إلى شعبه حيث يطلب منهم العمل بمقتضى ما يقول أبد الدهر . و لذلك أطلق عليها الأتراك "بنغوطاش " أي المَسلَّة أو النُّصب الأبدي . و استخدم الأويغور كلمــة " بتيــگ = Bitg " أو بلــگو " Belgu " . و معناها الكتابة .. كما تعنــي " نيشــان " أو " أثــر " أو " نُصُب.

ووفقاً لما ذهب إليه عالم الآثار الــچيكوسلافاكي لومير جيســيل " Lumir Jisl " فإن النصب عبارة عن منظومة كلية .. فعنده مثلاً نصب كول تكين و معبده عبارة عما يلي :

" نُصُب بانــگو و تماثيل و معبد تذكاري . و كلها داخل ميدان ، أو مساحة محاطــة بالجدران . و يبلغ مساحة هذه المساحة ١٩٠٠ متراً مربعاً . ضلعه الطويل ٦٧,٢٥ متراً , أما الضلع القصير ٢٨,٢٥ متراً شرق الميدان ، و على بعد ٣ – ٤ كيلومترات تَبْدأ سلسلة مــن

شواهد القبور ، يقطع بين الشاهد و الآخر متران و نصف المتر ، حتى نصل إلى الميدان . وحول الجدران شواهد قبور قد نُصبت تذكرةً بأعداء كول تكين الذين قتلهم وتذكرة بالانتصار. و يمتد الميدان من الشرق إلى الغرب، و عندما نقترب من الجدار الشرقي عقب هذه الشواهد ، يتم الصعود إلى رصيف بعرض ٣٣,٥ سم ، و على الجانبين هيكلي كبشين من الرخام ، و ندخل إلى الميدان من باب بعرض ٢,٩٠ متراً ٠ و أرض الميدان مرصوفة بأحجار من الفخار أو الآجر المسوي ، و على بعد ثمانية أمتار من الباب يرتفع نصب بانـگو المحكوك من المرمر = الرخام ، فوق هيكل سلحفاة من المرمر أيضاً . و فوق سطح نصب بانـگو الذي يبلغ ارتفاعه مع السلحفاة زهاء خمسة أمتار يوجد سقف من الكراميد . وتم تثبيت السقف بأعمدة خشبية ، تم تثبيتها هي الأخرى في الزوايا الأربع لقاعدة السلحفاة . و بعد قراءة النقوش التذكارية و المنقوشة فوق حجر بانكو ، ندخل إلى الطريق المؤدي إلى المعبد التذكاري .على جانبي الطريق هياكل و تماثيل رجالية ونسائية في قامة البشر، تُجَسِّد أصول الـگوك تورك . تُرى و قد ركعت على ركبتيها واضعة يديها على صدرها في احترام زائد أمام الحاكم ... يتلو هذا الطريق المَعْبَدُ التذكاري الذي يأخذ شكلاً مربعاً في سعة ١٠٠ متر أ مربعاً ، مغطى بالكراميد الأحمر . و عندما ندخل إلى المعبد الذي يُعبِّر عنه الـگوك تورك بمصطلح " بارك أي مزار " نجد أنفسنا و كأننا في ساحة وغي . فقد تم زخرفة الجدران بلوحات جصية و رسومات بارزة تُجسد بطولة كول تكين الحربية . و الجدران مكسوة بهذه المشاهد من أسفل إلى أعلى و على الجدران أيضا قد تم تعليق وجوه تنكيرية " Mask " لتنين أو أسد . و في وسط المعبد تماماً يوجد بناء داخلي آخر في شكل مربع مساحته عشرون متراً . هنا في هذا المكان يوجد " الموقد المقدس " ، و بعد الطواف .بالموقد المقدس ، و في ناحية الغرب خلف الموقد نجد لحداً من الجرانيت المزخرف برسوم بارزة . و هناك أيضاً حُفْرة لتقديم القربان ، و خلف حفرة القربان يُوجد تمثال لـگول تكين ، و آخر لإحدى زوجاته من الرخام الأبيض ، و قد نُصبا فوق كتل من الرخام . و هناك على الجدران الداخلية ، ينظر إليهما اثنان من الياوران و قد أسندا ظهريهما على الجدار .و نرى گول تكين وزوجته و قد وضعا يسراهما على ركبتيهما اليسيريتين أيضاً ، و على رأس گول تكين تاج مكوَّن من خمسة ثلمات ، وفوق التاج زخرفة عبارة عن عُقَاب بارز و قد فرد جناحيه .

إن الخط المستخدم في كتابة نقوش بانغو يُشبه إلى حـد كبيـر خـط الرونيـك " Runik " الذي كان يُستخدم قديماً في البلاد الاسكندنافية . و من هنا فقد أطلق علماء الغرب على هذا الخط خط " الرونيك " . و هو يُكتب من أعلى إلى أسفل و من اليمين إلى اليسار ، و حروفه غير متصلة ، و يفصل بين الكلمة و الأخرى أو بين مجموعات الكلمات نقطتـان فوق بعضهما البعض " : " إن نصوص نقوش كل من كول تكين و بلـگـه قاغان قـد تـم كتابتها من أعلى إلى أسفل . و قد صُفت الأسطر بجوار بعضها البعض من اليمين إلى اليسار . الأبجدية مكوّنة من أربعة حروف صوتية ، و بقية الثمانية و الثلاثين حرفاً حروفٌ صامتة أي ساكنة ، و يتم التعبير عن صوتي " a , e " بحرف واحد ، و عن " i , I " حرف " O , U " بحرف. و " Ö ، Ü" بحرف واحد فقط . و بقية الحروف حروف ساكنة . و إذا ما أردنا التعبير عن الحروف الغليظة نستخدم حرفاً ثقيلاً و عند التعبير عـن حـرف صـامت خفيف نستخدم معه حرفاً صوتياً خفيفاً مثل : b a [با] و be [بَ] .. و هكذا .

ليس هناك اتفاق بين العلماء حول منشأ هذا الخط ، و يُرجعه طومسون إلى الأبجديات السامية و خاصة إلى الآرامية ، و أنه قد انتقل إلى الترك عبر إيران . ويعده علماء آخـرون خطاً بهلوياً ، و يرى كل من ريستوف Rristov وبوليـڤـانوف Polivanov الروسيان انه يحمل بصمات ـوگـك تركية . و يقبل كل من حسين نامق **أوروگن** و أحمد جعفر أوغلي التركيان هذا الطرح . و يقولون إن هذه الأبجدية هي أبجدية تركية ،حتى و إن وُجـد فيهـا تأثيرات أجنبية

يتم تقسيم هذه النقوش حسب الأماكن التي وُجدت فيها إلى أربع مجموعات ؛ مجموعة مغوليستان ..مجموعة ينيسى ، مجموعة طالاس .. و مجموعة قازاقيستان .

١- كوك تورك بنْگُوطاش = نقوش بنغو الكوك تركية :

إن النقوش التي ترجع إلى عصر الـوگك توركـ هي :

١ - بوغوت = " ماهان قاغان " **Bugut**

٢ - جويرين **Coyrin**

٣ - هو يتوطامير **Hoytu Tamır**

٤ - أونغين = ايشبارا طامغان طارقان **Onğin**

٥ - إيخه هو شوتو = كول ايــج چور	Kül iç çor
٦ - ايخه آشته = آلتون طامغان طارقان "	
٧ - باين جوقتو = طون يوقوق	
٨ - برنجي أورخون = كول تكين	Kul Tekin
٩ - أيكنجي أورخون = بلكة قاغان	Bilge Kağan
١٠ - نالاهيا =	Nàlàhyà
١١ - ايخه نور =	Ihe-Nur
١٢ - هانــگي داي =	Hangiday
١٣ - طالاس =	Tàlàs

و قد تم كتابة نقش بوغوت فقط بالخط الصغدي . و هو يرجع إلى عصر الـــگوك تورك الأول . و قد تم اكتشافه عام ١٩٥٦ م من قبل أثرى مغولي بالقرب من مدينة بوغوت " Bugut " . و يرجع إلى حوالي عام ٥٨٠ و هو تاريخ نصبه . ورغم أنه مكتــوب بلغــة أجنبية فإنه يُذَكِّرُ بنقوش أورخون و نصبها من وجــوه عــديــدة ٠ و هذا النصـــب أيضـــاً يدور حول الخاقان التركي الذي يدير شئون العالم . أما نصب چويرين " çoyrin " فيعتقــد أنه قد تم نصبه و إقامته فيما بين ٦٨٧ إلى ٦٩٢ ، و إذا ما صح هذا التخمين فيكــون هــذا النص المكوّن من ستة أسطر هو أول نص يستخدم حروفاً من الحروف الـــگوك توركيـــة .و أنه منقوش باللغة التركية . أما "هوتيوطامير " فقد تم تسجيله فوق الحجارة و ليس فوق مسلة حجرية ، و تم اكتشافه في منطقة طامير . و هو عبارة عن عشر مقطوعات مكونة من تسع و ثلاثين سطراً تدور حول معارك كول ايـــج چور Kul iç çor " رئـــيس الطـــاردوش " Tàrduş" ضد التورغش " Türgiş " و تختلف الآراء حول السنوات التي تعود إليها ؛ فهناك من يقولون إنها ترجع إلي سنوات ٧٥٣ – ٧٥٦ ، و لكن المرجح أنها ترجع إلـــى ســـنوات ٧١٧ – ٧٢٠م ٠

و مما لاشك فيه أن جميع هذه النصوص المنقوشة التي تعتبر النتاج الأدبي المكتوب لدى الترك قبل الإسلام ، إنها جميعاً تدور حول الحاكم و سعيه لصد عــدوان الأعــداء ، و العمل على رفاهية شعبه و العمل على أن يكون الجميع صفاً واحداً أمام العــدو . و أن هــذه

النصوص قد نُقلَت عن الحكام أنفسهم في شكل نصائح لمن هم حولهم من الأبنـاء و القـواد ورجالات الدولة و الفرسان ، و يُبَيِّن لهم كيفية سياسة الشعب و سياسة الأمور .. و استئناس الخيول و سياستها .. و التدريب على الفروسية و الرمي بالسهام و الرماح .

٢- أنصاب بنغو أويغور : Uygur Bengu Taslàr :

والأنصاب أو النقوش التي تحمل نصوصاً أدبية تعود إلى الأويغور تنقسم إلى سـبعة نقوش هي :

١- طارياط	**Taryat**
٢- تس	**Tes**
٣- شينه – أوصو	**Şine-usu**
٤- قارابلغاصون	**Kara Balağasun**
٥- كوربلـچين	**Gürbelçin**
صومون تس	**Somon Tes**
صومون سيـڤروى	**Somon Sevruy**

و كلها قطع أدبية منقوشة على مسلات حجرية تُخلـد ذكـرى ملـوك الأويغـور . وحروبهم .. و سعيهم الدءوب حول توحيد القبائل التركية لمواجهة الأعداء .. ويختلف حجم و عدد سطور كل نقش عن الآخر ، كما تختلف تواريخ اكتشافها .. كلها جاءت نتيجة الحفريات الأثرية التي تمت في أواخر القرن التاسع عشر و القرن العشرين ٠

٣- قيرغيز بنغوطاشلري Kırgız Bengu Taşları = أنصاب القيرغيز

هذه النقوش قد تم القطع بأنها تعود إلى القيرغيز . و أنها ترجع إلى صوجي " Suci " من قاغانات أواسط القرن التاسع . و أنها قد أُقيمت تخليداً لذكرى بويلاقوتلوغ باراغان الذي كان مستشاراً مخلصاً لـ " قوتلوغ باغا طارقان " .. و أن شهرته و حكمته قد انتشرت فـي كل مكان .. و أن " قطعان الخيل التي ساسها كانت تمتد من مطلع الشمس إلى مغربهـا "... وهو يوصى أولاده بالعمل في خدمة الـ" طارقان " بإخلاص ٠

٤- ينيسى بنغو طاشلرى Yenisey Bengu Taslari = أنصاب ينيسى

لما كانت هذه المسلات الحجرية المنقوشة بنقوش كتابية تعود إلى المنطقة التي كان يُسيطر عليها القيرغيز ؛ فهناك من ينسبها إليهم أيضاً ، و لكنها اشتهرت باسم المنطقة التي وجدت بها .. و هي تتخطى الخمسين نقشاً . و ترجع إلى الأقوام التركية التي عاشت في هذه المنطقة . لم يتضح في أي منها متى تم نصبها و إن كان المرجح أنها تعود إلى القرن السابع و السادس و هناك من يقول إنها ترجع إلى القرن الخامس قبل الميلاد . و لذا فهي ليست في تنظيم و ترتيب نقوش أورخون . و من المرجح أنها كانت جميعها شواهد قبور ، و تتسمى بأسماء المناطق التي وجدت بها .

تم كتابة هذه النقوش بلغة سهلة و بسيطة و خالية من المبالغات و هي تدور حول رب الأسرة ، الذي تم إقامة شاهد القبر باسمه و عن لسانه حول أفراد أسرته وأقاربه و حاكمه و الأرض التي يعيش عليها و الأمة التي ينتسب . إليها كانت هذه الشواهد تحمل أيضاً أسماء العديد من حاجيات المتوفى كالأختام و النقود و السهام والمرايا و المشارب = الزمزميات الفضية ، و توكات الأحزمة المصنوعة من الفضة أيضاً . و من هنا تنبع أهمية هذه المكتشفات من الوجهة الحضارية .

اكتشاف مسلات بنغو و قراءتها :-

في أواخر عام١١٣٤ هـ = ١٧٢١ م قام ضابط شاب بصحبة دكتور شاب بالتجول في المنطقة التي تُرَى من نهر ينيسى في جنوب سيبريا . وكانا يهدفان إلى دراسة كل ما يعيش في هذه المنطقة من بشر و حيوان و نبات و ما يحتوي عليه باطن الأرض من معادن ، و يدققون النظر في لغات و عادات و أعراف و شواهد قبور السكان المحليين .. كانوا يجمعون كل ما تقع عليه أياديهم .. و يرسمون ما يتركونه ، و يكتبون في دفاترهم أسماء هذه الأشياء كما سمعوها من الأهالي .

كان الدكتور الشاب هو عالم ألماني يدعى دانيال غوتليب مسرشميدث Danial Gottlieb Messerschimidt قد وصل إلي منطقة آباقان متحركاً من مدينة طومسك

Tomsek في الرابع من مايو سنة ١١٣٤هـ = ١٧٢١ م ، و كان قد دخل في خدمة القيصر الروسي عقب احتلاله لمدينة دانزيج سنة ١١٣٢هـ = ١٧١٩ م ، ثم تحرك بعد هذا التاريخ من موسكو متجهاً نحو قازان . و بعد أن مر بها وصل الي مدينة طومسك . أما الضابط الشاب فقد وقع أسيراً في أيدي الروس خلال حرب Boltava = بولتاوا.و أجبر على الإقامة في سيبريا . هو اليوزباشي السويدي كوهان فيليب طابرت Gohann Philipp Tabbert .و عندما كان الباحثان يقومان بأبحاثهما قَدِم أحد القرويين القازاق وتحدث مع مسرشميدث عن بعض من التماثيل و الحجارة المنقوشة .

كان ذلك خلال شهر ديسمبر سنة ١١٣٤هـ = ١٧٢١ م ، و في بداية أيام ١٧٢٢ م توجه الدكتور دانيال الي المكان المذكور . و كان على شاطئ نهر بك " Bey " الذي هو واحد من فروع نهر أويبات الذي يصب في ينيسى . كان الموقع فوق تبة في قرية جاركوف . و هناك رأي مسلة راقدة على الأرض . و بارتفاع ثلاثة أمتار وعشرين سنتيمتراً . وفوق هذا الحجر كتابات غريبة ، و كانت هذه هي نقوش اويباد الثالثة بين نقوش بنغو ينيسي ، و تتابعت الاكتشافات عقب الجولات التي قام بها الضابط و الدكتور و مساعدوهم . و بمساعدة أهالي المنطقة من القرويين . و يقوم طابرت بنشر هذه الملاحظات عام ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م في ستوكهولم دون علم جوهان . توالت الدراسات و النشرات حول هذه المكتشفات حتى تمت سفريات رسمية من قبل هيئات علمية عام ١٣٠٦ هـ = ١٨٨٨ م تحت رئاسة العالم الفنلندي أسبيلين " Aspelin " إلي بلاد الآلتاي . و قد نجحت هذه الهيئة في الكشف عن العديد من الأحجار المنقوشة و شواهد القبور . و نجحت أيضاً هذه الهيئة في نشر أعمالها في هلسنكي و كانت تحتوي على صور طبق الأصل من ٣٢ نقشاً مخطوطاً للنقوش الموجودة في ينيسى . في عام ١٨٨٩ م توالت الأخبار عن اكتشاف أحجار أكبر حجماً و أكثر ثراءً من ناحية الخطوط و النصوص . كان أهمها نصب طوله ثلاثة أمتار ، وسبعون سنتيمتراً من الرخام الأبيض ممدداً بجوار تمثال حجري ضخم يشبه السلحفاة . وأخيراً تم التأكد من أنها نقوش كول تكين أحد أمراء الگوك تورك . و توالت – كما سبقت الإشارة – أبحاث رادلوف و طومسون . و تعرف أحمد مدحت أفندي المؤرخ التركي على طومسون في مؤتمر المستشرقين المنعقد في ستوكهولم . وأهدى طومسون نسخة من كتابة إلى أحمد مدحت أفندي

، و قدم أحمد مدحت أفندي بتقديم الكتاب إلى نجيب عاصم بك الذي قام بنشر رسالة عنه باللغة التركية عام ١٣٠٧هـ = ١٨٩٩ م ، و كانت هذه أول مرة يُعَرف بهذه النصب والنقوش في اللغة التركية ، ثم أُعيد نشر نفس الرسالة عام ١٣٣٠هـ = ١٩١١ م ، ثم قام نجيب عاصم باطلاع شمس الدين سامي على كتاب طومسون ، و قام سامي بإعداد نقوش أروخون للنشر في اللغة التركية في ١٠٤ صفحة عام ١٣٣٢ – ١٩١٣ م مضيفاً إليها الحروف الأصلية مع طريقة نطقها بالتركية آنذاك . و لكن لم يمهل القدر شمس الدين سامي حتى يتم نشر هذا العمل حيث توفى ، و إذا كان نجيب عاصم هو أول من عرَّف بالحروف الـگوك توركية ، فإنه هو أيضاً صاحب الفضل في نشر نقوش أورخون في اللّغة التركية . فهو الذي قدَّم إلى وزارة المعارف التركية عام ١٣٤٤ هـ = ١٩٢٥ م ، كتابه المسمى " أورخون آبيده لرى " أي نقوش أورخون مُرْفقاً بها ترجمة من نصوص نقوش كول تكين وبلگه قاغان ، كما قدَّم محاولة لوضع قواعد لغة أورخون .

توالت الترجمات حيث قام المؤرخ الكبير حسين نامق أوقون فيما بين أعوام ١٩٣٦ م – ١٩٤١ م بنشر هذه النقوش مع ترجمتها و صورها في أربعة مجلدات . و كانت هذه الطبعة حتى تاريخها هي أوسع الأعمال التي صدرت عن هذه النقوش ومحتوياتها من جميع النواحي ثم كانت طبعة محرم أرغين ، و التي صدرت عام ١٣٩٠هـ = ١٩٧٠ م ، و التي اعتمدتُ عليها في التعريف بهذه النقوش في حينه . ثم قام بعده عثمان ف . سرتقايا " Osman F.Sertkayà " بدقة الجواهرجي بدراسة هذه النقوش و حاول محاولات جادة ومتأنية لإيضاح كل ما كان غامضاً في هذه النصب و النقوش و فنونها .

مازالت الأبحاث الأثرية و اللغوية و التاريخية تجري حول هذه النصب التذكارية لكل ما تحويه من نقوش و فنون و ألقاب و مصطلحات و كلمات ، و ما تُوحي به من قنون وعادات و أعراف و مراسم تجرى على مستوىَ العالم ؛ فمن اليابان وأمريكا و روسيا وكل دول أوروبا و حتى الأكاديميات العلمية التي ظهرت في بلدان كل أواسط آسيا كلها مهتمة بهذه الأنصاب . أشهر هذه الأعمال التي ظهرت في أواسط آسيا و بين الأتراك الذين يعيشون داخل إطار الاتحاد السوفيتي القديم هي الدراسات التي ظهرت في قيرغيزبستان و رصدت

١٦٨٠ كلمة من هذه النقوش ونشرتها مع ترجماتها و نطقها فيما يقابل ذلك في كل اللهجات أو اللغات التركية المعاصرة . وقد قامت أكاديمية العلوم في قيرغيزبستان بهذا العمل العظيم

وكدراسة تطبيقية على هذه السير و الملاحم ، فلسوف أُقدم ملحمة أي سيرة البطل آلــپــاميش التي أشتهرت في كل دول آواسط آسيا و لها في كل هذه الدول شكل من أشكال القص و الحكاية . و قد اهتمت بها دولة اوزبكستان بعد استقلالها عن الاتحاد السوفيتي السابق و عقدت مؤتمراً عالمياً ربطت فيه بين البطل التاريخي جلال الدين منكبرتي و البطل الملحمي الشعبي آلــپــاميش عام ١٩٩٩م وكان لي شرف المشاركة فيه بالدراسة التالية ؛

مَلْحَمَة آلــپــاميش و دورها في عودة الوعي القومي للشعب الأوزبكي (*)

إطلالة تاريخية :

ظهر الأدب التركي في بداية أمره في دول أواسط آسيا . و كــان عبــارة عــن أدب ملحمي ثري .

و الملاحم كما هو ثابت تحكي بشكل منظوم بطولات أمة من الأمم ، ومعتقداتها الدينية كما تُعبر عن مغامراتها .. و أعرافها .. و فضائلها .. و غالباً ما تحكى هذه المغامرات عــن فترات ما قبل التاريخ ، أو في مراحل البدايات الأولى للتاريخ ، و تظل ممتدة - أحياناً طوال التاريخ - .

إن الملاحم سواء من الناحية التاريخية ، أو الفكرية ، أو العقائدية ، أو حتى الفنيــة تحمل قيمة كبيرة . و غالباً ما تكون نبعاً فياضاً للحياه الفنية و الفكرية و تُلقي الضوء علــى الصفحات المبهمة من تاريخ الأمة . و منها تنبع أهميتها للتاريخ حيث إنها تعود إلي عصور ما قبل التاريخ أو بدايات التاريخ ، و تقص علينا ما نجهله عن المعتقدات .. و المناقــب ، و البطولات التي مرت بحياة هذه الأمة .. و سواء أكانت هذه الملاحم حقيقية ، أو قريبة مــن الحقيقة أو حتى عارية تماماً من الحقيقة فإنها ذات أهمية قصوى بما تقدمه مــن أخبــار .. و أفكار .. و معتقدات دينية و قومية لهذه الأمة المعنية .

كيف تتكون الملحمة ؟..

لا بد من توافر ثلاثة شروط و ثلاث مراحل لتكوين و تثبيت النواة في تشكّيل وتكوِّين الملحمة القومية . أول هذه الشروط هو حدوث حادثة أو حدث أو مغامرة تزلزل كيــان هــذه الأمة ، و تجعلها تتحدث عنها ، و لا تنساها قط و تكون قد حدثت فيما قبل تسجيل التاريخ ..

---

*- قدمت هذه الدراسة في المؤتمر العالمي الذي عُقد عام ١٩٩٩ م في دولة اوزبكستان تخليداً لذكرى البطل التاريخي جلال الدين منــگبرتي وسيرة البطل الملحمي آلــپــاميش تحت رعاية رئيس جمهورية أوزبكستان خلال ٣ - ١٠ / ١١ / ١٩٩٩ .

هذا الحد هو الذي يشكل النواة الأولى للملحمة .. ثم تكبر وتتعاظم هذه النواة رويدا رويداً مع الزمن .. و تبدأ الأجيال تحكيها بشكل شفاهي لبعضها البعض .. و مع تقدم الزمن ووسـائل التسجيل و كتابة التاريخ يتم جمع هذه الروايات الشفاهية ، و التي تمت في مُناخ أسـطوري أحياناً ، و مناقبي أحياناً أخرى .. و ملحمي أو قومي في أكثر الأحايين . و تعتبر هذه هـي مرحلة تسجيل الملحمة.

إن الأمة التركية على امتداد الساحة الجغرافية . و التاريخية تمتلك حيـاة ثريـة .. نشطة .. متعددة .. و متنوعة .. فيها من الأحداث الجسام ما يغطي المراحل الثلاث اللازمـة لتكوُّن الملاحم .. و ما يجعل لهم ملاحمهم القومية الخاصة بهم .. و لم تكن لهم ملحمة واحدة ، بل ملاحم متعددة إن الأمم التي تمتلك شروط تَشَكُّل و تَكُوين الملاحـم و تكـون واعيـة بماضيها السحيق .. بينما لكل من هذه الأمم ملحمة واحدة فإن للترك أكثر من ملحمة ، و كلها قد وصلت إلينا .. و كلها قد سُجلّت ، فمن ملحمة أرگـنه قون إلى ملحمة مناص .. و مـن ملحمة أوغوز إلى ملحمة آلـپـاميش وبطّال غازي .. إن هناك العديد من الملاحم الكاملة . و التي يُعد كلٌ منها أثراً قومياً مستقلاً بين أيدي الباحثين اليوم ، وإن كانت كلها تدور حـول الأقوام التركية .. مجسدة لحياة كل منهم بشكل فيه التباعد و كثير من التطابق ..

إن الملاحم التركية التي تنطبق عليها صفات ، و سمات الملاحم المتكاملة – إن كانت قد ضاعت بسبب الهزات التاريخية التي مرت بها الشعوب التركية فإن ملخّصاتها .. و أساس الرواية فيها قد وصل إلينا .. و إذا كان البعض يُقسم الملاحم
التركية إلى ستة أقسام . فمما لا شك فيه أن أهمها .. و أشهرها بين كل الأتراك هي
[ملحمة أوغوزقاغان] . فهي الملحمة التي يمكن أن نصادفها في كتب التـاريخ بمسـمى " أوغوزنامه " كاسم مشترك لكل الأتراك الغز .. فهي تجسد الحياة المعيشية ، و الاجتماعيـة ، و التاريخية لقوم الغز ، و تُتخذ مثالاً لحياة و معتقدات كل الترك ، إنها تترنم بأيام الترك كما يترنم بها الترك في سائر أيامهم .. فلقد كان الترك ينشدونها عند التوجه للحرب لتحميس الجند ، و الرفع من معنويات الأبطال المحاربين .. كان الشعراء و الملحمِّيون ينشدونها على دقات الطبول و نغمات الموسيقى الحماسية بشكل منظوم .

أهم الملاحم التركية :

إن شعر الملاحم يعتبر من أغنى المعطيات الأدبية الشفاهية التي كــان يتــرنم بهـــا الشعراء الشعبيون على ربابانهم ، و هم يطوفون بين القبائل و الأقوام الرُحّلّ في الوقت الذي لم يكن قد تشكل أي أدب تركي مكتوب بعد ..

في الواقـــع ، إذا لم يكن للترك " إليـــازه و أوديســـة "أو " شـــهنامة " أو " أوزيـــس وأوزيريس " كملاحم متكاملة مكتوبة أو مدروسة دراسة متأنية فإنهم يملكون كل مقومات خلق الملاحم المتكاملة .. و لديهم الأحداث .. و لديهم الخيال الشعبي الــذي يمكـــنهم مـــن خلـــق الأساطير و الملاحم .. و السِّيَر ولديهم الحياة الممتدة في مراحل ما قبل تســـجيل التـــاريخ .. كان لهم رحلاتهم و ترحالهم و هجراتهم .. أستيلاؤهم على أوطان غيرهم .. و هـــذه كلهـــا عوامل مهيئة لخلق الملاحم و المناقب و من قبلها الأساطير ..

تنقسم الملاحم التركية إلى قسمين رئيسين ، ملاحم ما قبل الإسلام و ملاحم مـــا بعـــد الإسلام .. و تنقسم ملاحم الترك قبل الإسلام إلي ستة أقسام ، يعقـــب بعضـــها بعضـــاً ١- الخليقة .٢- صاقاً [آلب آرتونغاوشو] .٣- أوغوز قاغان .٤- سيه نــــبِي Siyenpi .٥- گوك تورك .٦- أويغور .. وكلها تدور حول حياة دول التـــرك الـــثلاث و هـــم الهـــون ، والـــگوك تورك ، و الأويغور أي منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد إلى القرن التاسع بعـــد الميلاد .

إن دولة الأويغور هي آخـــر دولـــة في الإمبراطورية التركيـــة قبـــل الإســـــلام . والأويغورهم الذين قضوا على نفوذ الـــگـــوك تورك في المناطق و الدويلات التركية وأسسوا دولتهم و لقد كان بين الأقوام التركية التي وحدت من أقوام صاقا القدماء من ناحية ، و مـــن ناحية أخرى أقوام قد تتركت .. و لقد نجحت دولة الأويغور الجديدة في أن تنتشر في دويلات كثيرة في وقت قياسي .. و تركت هذه الدولة آثاراً عميقة في تاريخ الترك في أواسط آسيا من الناحية الثقافية و الحضارية .

لقد كانت قبائل الأويغور و أقوامها يعيشون حياتهم المدنية في العصور السابقة. حتى إن المصادر الصينية تُسجل أنه كانت لهم أبجديتهم الخاصة بهم مُنذ القرن الخامس الميلادي – و لقد تأسست دولة الأويغور أولاً في ضواحي بلاصاغون الســـوداء فـــي حـــوض نهـــر

الأورخون في بلاد المغول . و كان حاكمها الثاني [مويو چور] خان حاكماً مثقفاً كبيراً .. فأمر بنصب تذكار خاص به و أمر أن تُسجل عليه أعماله بالحروف الكوك توركية التي كانت سائده في بلاده آنذاك .- و ما أن قبل هذا الحاكم الديانة المانية ١٤٦هـ = ٧٦٣ م حتى تحول الأويغور إلى هذه الديانة ، وبدأوا في استخدام الحروف الجديدة التي أحضرها المبشرون المانويين معهم .

و خلال سنة ٢٢٦ هـ = ٨٤٠ م عم القحط بلاد الأويغور ، فرفع الأهالي راية العصيان .. و انقسم الأويغور تحت وطأة هذا العصيان إلي قسمين ، قبل أحدهم نفوذ الصين ، و القسم الآخر هاجر نحو الجنوب الغربي .. فاستوطنوا مدن قوچى ، و بش باليغ ، وتيان شان الشرقية .. و مع مرور الزمن شيدوا لأنفسهم مدناً جديدة ولكنهم عاشوا فيها تحت اسم الأويغور أيضاً. ثم تركوا هذه المنطقة سنة ٣٢٩ هـ = ٩٤٠ م للقراخانيين المسلمين .

و قد تم تنصيب أحد حفدة چوچى خاناً على بلاد الأوزبك .. و تقدم أبو الخير نحو نهر سيحون ، و يدخل منطقة خارزم سنة ٨٣٤ هـ = ١٤٣٠ م ، و يجعل من مدينة صيغناق التي تقع في وادي سيحون عاصمة ملكه ..و يسيطر على كل المنطقة حتى [أوزكنت]. وتتعرض خانية الأوزبك لهجمات [الأويرات] و [القالموق] الذين أتوا من الشرق و تحت تأثير هذه الهجمات يترك بعض الأمراء هذه المناطق ، وينضمون إلى جانب أسن بوغا "Esen Buğa" خان الـچغطاي ، و يستقرون على الحدود الشرقية .

يقوم محمود خان سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٧ م بتقديم مدينة التركستان إلى محمد الشيباني كإقطاع .. و ينجح [شاهي بيغ] الذي زاد نفوذه في هذه المنطقة في بسط نفوذه على ما وراء النهر خلال بضع سنوات .. و يبدأ في منازعة التيموريين من أجل إعادة وحدة الأوزبك من جديد ، و يتمكن من دخول بخارا و سمرقند في سنة ٩٠٦هـ = ١٥٠٠ م ويعلن نفسه حاكما على تركستان .. و بذلك تم أسلمة منطقة تركستان الشرقية و أخذت على عاتقها رفع راية الجهاد ضد كفار الأويرات و القالموق.

هكذا – في هذا المناخ التاريخي و في هذه الساحة الجغرافية ظهرت ملحمة – آلپاميش و بدأت تتناقلها الأجيال جيلاً بعد جيل شفاهياً وتتوارثها عن بعضها البعض .

٢

ملحمة آلپاميش

تعيش ملحمة آلـــپـــاميش في العديد من المناطق و الدويلات التركية تحت مسميات مختلفة مثل :

آلـــپـــاميش ... آلـــپـــاميشي . (آلـــپ بامسى) آلـــپـــامشة .. بامســـى بيـــرك .. بُويْرَك .. و هي تُعتبر أشهر و أحب الملاحم و الحكايات الشعبية بين الشعب الأوزبكي كما أنها أقدم ملحمة شفاهية و حماسية توارثتها الأجيال حتى وصلت إلى مرحلة التسجيل ٠

تحُكى ، و تنشد ملحمة آلـــپـــاميش في ربوع أوزبكستان .. هذا النتاج الحماسي يعم كل المدن الكبيرة و القصبات ، و تُنشد بين كافة التجمعات ، و تلقي رواجاً و استحساناً منقطع النظير ..و قد تم تسجيلها و تصنيفها من قبل العديد من المنشـــدين ، و المهتمـــين بـــالتراث الشعبي الأوزبكي . و يوجد منها بين أيدي المتابعين ما لا يقل عن عشر تصنيفات .. و أهم ، و أتم تسجيل و تصنيف هو ذلك الذي قام به " مشهور فاضل يولداش " ، و إن كان لا يختلف عن الروايات الأخرى .و قد اهتمت الأوساط الثقافية الأوزبيكية بها في السنوات الأخيـــرة اهتماماً ملحوظاً ٠

ملخص الملحمة منثوراً :

أ - " ... كان هناك أخوان يدعى أحدهما [باى بورو] و[باي صاري] فـــي أحـــد الأقاليم التركية.. لم يرزقهما الله بالخلف .. فظلا يدعوان الله لمدة أربعـــين يومـــاً وليلـــة .. وأخيـــراً استجاب الله لهما فرزق [باى بورو] بولد أسماه " آلـــپـــاميش "
و[باى صارى] ببنت أسماها " آي بارچـــين " .. يتفق الأبوان على خطبة الولد والبنت وهما في سن الصبا .. و يدفعا بهما إلى المدرسة .. و ما أن وصل آلـــپـــاميش إلى سن الســـابعة أراد والده أن يعلمه الإمارة و أصول الحكم .. و فنون القتال .. يشب آلـــپـــاميش عن الطوق .. و بعد العديد من المغامرات يقع سجيناً في سجون " القـــالموق " .. و لكـــن يـــتم إنقـــاذه وتخليصه من السجن بمساعدة أبنة قالموق وجواده المسمى [بى چومار] .. و ظـــن[بـــأ ي صارى] أن آلـــپـــاميش قد اختفى و لن يعود ، فيود أن يزوج أبنته أي بارچـــين بـــالقوة

ودون رضاها .. ورغم إصرار الفتاة ورفضها على الزواج ، وتُزف . إلاّ أن آلـپـاميش يظهر وينجح في إفساد الفرح " ٠

ب –هذا هو ملخص موضوع الملحمة التي تتفق فيه كل المصادر ، ولكـن روايـة فاضل يولداش اوغلى كما يلي :

".. كان في سالف العصر و الزمان .. كان [بابان بو] حاكماً على ستة عشر قبيلـة من قبائل القونـگرات .. و كان له ولدٌ وحيد يسمى آلـپن بو .. يرزق آلبن بو أحدهما باي بوري و الثاني باي صاري .. كان باي بوري هو الأكبر.. و صـاحب ملـك و أراضـي قونـگرات .. أما باي صاري فكان يملك قطعان الماشية و عشرة آلاف موطن في طـابون الكبرى .. و كانت بلادهم تُسمى بايصون ٠

و رغم تقدم سن الأخوين ، فإنهما لم يرزقا بالبنين أو البنات . و ذات يوم توجها إلي وليمة و إحتفال كبير في قونـگرات ،.. و لكنهما لم يُستقبلا بالاحترام الواجب لهما .. وسبب عدم الاحترام هذا يرجع إلى عدم وجود ذرية لهما .. تملكهما الحزن عندما عرفـا ذلـك .. عادا إلى منزليهما .. و ناما كلٌ منهما في فراشه .. وأثناء النوم يأتي إلى كلٌ منهما درويـش .. و يبشرهما بقرب الفرج .. و أنهما سيرزقان بالبنين .. و البنات .. و بعد سنة من هـذه البشارة تلد زوجة باي بوري و لداً و بنتاً أما زوجة باي صاري فتلد بنتاً فقط فيقيمان و ليمة كبيرة .. و على الرغم من أن الدرويش لا يراه أي إنسان فإن الأخوين كانا يريانه .. يقـوم الدرويش بتسمية ابن باي بوري " باسم حاكم بك " و ابنته بـ " قالديرغاچ آييم " أما أبنة باي صاري فقد سماها الدرويش " باسم " بارچـين آييم " .. و يخبرهما الدرويش أن الحاكم بـك يتزوج من بارچين أييم " و أن حاكم بك سيكون " باطير " بطلاً كبيراً لا يقدر على هزيمتـه أحد ..

يكبر الأطفال الثلاثة معاً و يشبون عن الطوق فيُدفع بهم إلى المدرسـة .. و مـا أن يصل حاكم بك إلى الرابعة من العمر حتى يتعلم من الموللا كل ما يمكن أن يعلمـه إيـاه .. فيسحبه والده من المدرسة .. و يبدأ في تعليمه الفروسية و أصول القتال .. وينجح الصـغير منذ الوهلة الأولى في رفع السهم البرونزي الثقيل جداً الذي كان يخص جده ، و يطلقه مـن

القوس و سط دهشة الجميع .. فيعقد الحضور مقايسة بينه و بين رستم و يطلقون عليه آلپاميش . و من ذلك الوقت فصاعداً بدأ يشتهر بهذا الاسم .

و ذات يوم عندما كان باي بوري يتحدث مع والد آلپاميش أخبره أنه وفقاً لتعاليم الإسلام لابد من جمع الزكاة من الأهالي .. و مطالبتهم بدفعها .. و أنه طلبها من أخيه الأصغر باي صاري .. إلاَّ أن باي صاري تملكته الدهشة من هذا الطلب .. فلا يدفع زكاة .. و يترك وطنه الأصلي و يقرر الهجرة إلي بلاد القالموق مع عائلته ورجاله .. و على الرغم من تألم بارچين أي لهذا الفراق ، و ترك الوطن و الأحبة فإنها لا تستطيع أن تفعل أي شيء و يظل باي صاري و من في معيته عدة أيام يطوفون في بلاد القالموق بحثاً عن مستقر لهم .. يتخطون تسعين جبلاً ..و بعد طواف و هجرة استمرت ستة أشهر يصلون إلى بلاد القالموق التي كانت تحت إدراة " طابجه خان " و لما كان رجال و قوم باي صاري من الرُعاة و الرُحل ، و لم تكن لديهم أي فكرة عن الزراعة و الاستقرار و التوطن فقد ظنوا أن مزارع القمح الشاسعة ما هي إلا مراعي خضراء ..و أطلقوا فيها قطعانهم و أقاموا خيامهم حول ضفاف بحيرة "أنياهـ گول "في براري " چيلبرچول .

و ما إن رأى القالموق الضرر الذي حل بزراعتهم حتى نقلوا الخبر إلى شاههم فيأمر الشاه بالقبض على باي صاري .. و ما أن توجهت قوات الشاه للقبض على باي صاري ورجاله حتى اكتشفوا أنه لم يقصد ذلك الضرر و أنه لا يدري شيئاً عن حياة الاستقرار والتوطن والزراعة .. فيعفو الشاه عنه و عن رجاله .. و لما كان الوقت مازال يسمح بالزراعة فقد أعادوا زراعة الأرض و أخبروهم أنهم لن يأخذوا هذا المحصول بل سيتركه الشاه لهم .. و يسمح الشاه لـ" باي صاري " بالتوطن والاستقرار في العشرة آلاف موطن الذي أقاموا فيه خيامهم .

يستمر فاضل يولداش أوغلي في روايته غلى النحو التالي ..

" يمر من الزمن سبع سنوات .. و يعيش با يصاري ورجاله في رفاهية وأمان .. ولا يطالبون بدفع أموال مما تسمى الزكاة .. فالقالموق لا يعرفون الإسلام .. تكبر " بارچين " و تزداد جمالاً .. و تلفت أنظار العديد من " باطير " أبطال القالموق .. و كانت في بلاد القالموق سيدة مطلقة تسمى " صورقايل " كانوا يطلقون عليها الساحرة .. و كان لها سبعة

أبناء كلهم من الأبطال أكبرهم يسمى " قوقالداش "، و أصغرهم يدعى " قاراجان " .. و كـان السبعة أبطال يعملون في خدمة شاه القالموق مع تسعين بطلاً آخرين ٠

و لكنهم كانوا أفضلهم جميعاً .. تطلب السيدة " صورقايل " بارچـين " لإبنها الأصغر .. و تتوجـه إلي حيث يقيم باي صـاري " و قومه .. و تتحدث مـع أم " بارچـين أي " .. و تخبرهـا الأم أن ابنتها مخطوبة لابـن عمها البطـل العظيم آلـپـاميش ..

تغضب " صورقايل " لذلك .. و يعلم كل أبطال و مصارعو شـاه القـالموق ويعلـم الذين يودون الزواج من " بارچـين أي " بهذا الكلام .. و يناقشون هذا الأمر فيما بيـنهم .. ويتفقون على أنهم جميعاً يودون الزواج منها ... و لكن عليها أن تختـار واحـداً مـنهم .. ويتجهون فوراً إلى والدها باي صاري .. و يخبرونه بقرارهم .. ويهددونه بأنهم سـيخطفون ابنته إذا لم يقبل هو بالرضا الكامل قرارهم .. و لما كانت "بارچـين " قد بلغت الرابعة عشر من عمرها .. فإن القرار أصبح قرارها هي .. فيعرض الأمر على ابنته " بارچـين أي " .. فتطلب مهلة ستة أشهر .. و أنها ستعطي ردها في نهاية هذه المدة .. و ما أن سمع الأبطـال بذلك حتى قبلوا الشرط وانصرفوا ..

تكتب بارچـين أي " خطاباً إلي آلـپـاميش .. و ترسله مع عشرة من أسرع و أمهر خيَّاليها .. فيصلون بعد ثلاثة أشهر .. و لما كان آلباميش غير موجود ، فقد سلَّموا الخطـاب إلى والد باي بوري فيفتح باي بوري الخطاب .. و يقرأه .. و لما كان لا يحمل أي ود لأخيه .. فلم ير مساعدتهم و لم يخبر آلـپـاميش .. و يخبرهم أنه لن يُرسل آلـپـاميش لإنقـاذ بارچـين آي .. و دون أن يخبر أي أحد بهذا الخطاب يخفيه في حجرته .. و بعد بضعة أيام ، و بينما كانت ابنته [قالديرغاچ] تنظف غرفة والدها .. تجـد الخطـاب تقرأه .. و تخبـر آلـپـاميش بـذلك .. و تدفعه و تحرضه على ضـرورة مساعـدة بارچـين آي .. ورغم معارضة الأب فبمساعدة [قالديرغاچ] والسائس العجوز [قولتاي] يختار أسرع جواد فـي الإسطبل و قد كانوا يطلقون عليه (بايـچير بار) ..ينطلق آلـپـاميش .. و في الطريق يلحق بفرسان بارچـين ورسلها .. و ينطلق في طريقه مخلفهـم وراءه ..و بعـد مـدة .. و ذات مساء.. ووسط الصحراء .. يصادف مزاراً .. فتراوده نفسه في قضاء الليلة هناك فـي هـذا المكان .. فيجد لنفسه و لحصانه مأوى فيستريح و ينام / في نومه يرى بارچـين آي و قـد

جلست بجواره .. تُحادثه ..و تُقدم له كأساً من الشراب .. و تصادف أن رأت بارچين نفس الرؤية .. فتحكي لخدمها الرؤية التي رأتها ..

اليوم التالي .. يستيقظ آلپاميش .. و ينطلق مبكراً .. و قبيل المساء يُصادف [قايقوباد] الذي يعمل في معيّة عمه كراعٍ .. يتعرف قايقوباد على آلپاميش و يقدم له الطعام و الشراب و المأوى ليبيت فيه ليلته .. خلال تلك الليلة أيضاً يرى آلپاميش [بارچين آي] في رؤياه .. و في نفس اللحظة تراه [بارچين آي] هي الأخرى .. و هكذا تتأكد [بارچين آي] أن خطيبها البطل سوف يحضر .. و ما أن تبزغ شمس الصباح حتى ينطلق آلپاميش.. و ها هو قد اقترب من المكان المقصود .. يتسلق قمة جبل عالية .. و من هنالك يرى خيام ، و منازل عمه بايصاري ومنازله.. فيترجل من على ظهر جواده [بايچيربار] .. و يتمشى .. ثم يتمدد على حافة قمة الجبل فيراه البطل [قاراجان] .. فيأتيه .. و يتعرف كل منهما على الآخر و يحتضنان و يجلس البطلان و يتحدثان .. و يتفقان على أن يعملا سوياً.. و على الفور يخططان للأمر .. فيصطحب قاراجان آلپاميش إلى منزله .. ورغم اعتراض الأم صورقايل و إخوته فإنه يحسن ضيافة آلپاميش.. فيقوم آلپاميش بإر كاب صديقه [قاراجان] جواده الأصيل [بايچيربار]. فيبعث به إلى بارچين آي ليخبرها بوصول آلپاميش ..

إلاّ أن قاراجان ما أن امتطى ظهر الجواد حتى ظن به سوء الظن فلم يكن مظهر الجواد يدل على أصالته .. فخاطب صديقه آلپاميش قائلاً :

" أيها السيد الصديق .... ! إن الأحمق يقنع بالعذاب
و إذا لم تجد حصاناً آخر للمجيء إلى هنا من آفاقك البعيدة
فارجع من حيث أتيت .. فلم يفت الأوان بعد ..
فأغلب الظن سيبطش بك الأعداء ... !
فالليل – يا صديقي – أوفي الأصدقاء لكافة العشاق ...
سأذرف الدمع ... و سوف يبكيك الجميع
فلك تسع و تسعون غريماً ......

أيها الصديق الأوزبكي .. إن بلادك كونغرات
بلاد خضراء .. تتوشح بالرياض و المراعي ..
و إن جيادكم كثيرة .. و أصيلة حقاً ..
فلماذا وضعت سرجك على هذه الجيفة .. ؟

....

فيرد علية آلـپـاميش بعد سرد حالة الجواد و المعاناة التي عاناها :
" يبدو أنك لم تألف إدراك روح الخيول ..
إن جواد المقاتل يبكي شوقاً .. و حسرة ..
إيه .. أيها القالموق .. إنك عديم العقل و اللسان ..
فسبحَ حالاً بحمد ربك مرتين ..
فيرفعك جوادي إلى السماوات في لحظة ..
و عليك أن تعامله باحترام ..
و كلما سبَّحت بحمد ربك مرتين ..
فلن ينكص بايـچيربار عن الدرب مطلقاً ..
فلا تجعل قلبك يعتمل كدراً .. و(عدني بإنجاز خطوبتي ..)

كانت المهلة قد انتهت .. و حان موعد اجتماع الأبطال الصناديد .. فـاجتمع شـمل القالموقيين .. و زاد حشد الأوزكيين .. و دارت الأحاديث و المناقشات .. فقد حـان وقـت مجيء الجياد ...

" كانت أنظار الناس ترمق بنفاد صبر ...
الجياد ...الجياد قادمة ..! الفرسان ينطلقون ..
لكن الأنظار تركزت على جواد واحد ..
صاح الأزبك .. إنه بايـچيربار ..."

كان جواد آلــپــاميش قد سبق كل الجياد ..و لم يتوقف .. بل دار سبع دورات حول خيمة الحبيبة [بارچـــين] المصنوعة من القطيفة .. فأدركت أن الحبيــب قــد وصــل ... فاقتربت [بارچـــين] من الجواد [بايـــجربار] .. و مسحت عينيـــه بمنــديل حريــري .. ومسحت عنه التراب و العرق .. و سقط الجواد على الأرض من الألم بسبب المسامير التـــي دقها القالموقيين في حوافره .. رأت بارچـــين المسامير في حوافره .. فخنقتها العبــرات ... وأخذت في نزع المسامير بأسنانها ....!

قررت [بارچـــين].. أنها ستتزوج مِمَّنْ يكسب الرهان .. و ستكون البدايــة ســباق خيل .. و الثاني رمى السهام .. و الثالث .. إصابة قطعة فضية من على بعد ألــف خطــوة بطلقة نارية .. و الرهان الرابع .. مصارعة الأبطال ...

وصل بقية القالموقيين .. و صاروا تسعين إلاَّ واحداً مـــن الجبـــابرة .. و أُعلـــن أن الجبابرة القالموقيين سيتبارون مع البطل الأوزبكي في الرماية بالقوس ...

" جلست الصبايا في صفوف

إنهن يتحدثن عن مصير بارچـــين آي "

إلاَّ أن سباق الخيل هو الذي بدأ ..على المتسابقين تسلق جبال [باخان] ويعودون إلى نقطة البداية . و يستمر السباق خمسة و أربعين يوماً و يشترك أربعمائة و تسعون متسابقاً .. يشترك[قاراجان] الذي أعلن إسلامه ممثلاً عن آلــپــاميش آلذي أعطاه جواده .. يغضب القالموقيون .. . و يَكْمنون لقاراجان و يقيدونه .. و يعاودون دق المســامير فــي حــوافر [بايچيربار].. إلاَّ أن [قاراجان] ينجح في فك الوثاق .. ويمتطى الجواد .. و ينطلق مكملاً السباق .. فيفوز جواده بالمركز الأول ..ثم كانت الرماية ...

" و تطايرت السهام مطلقة صفيراً ..

و طيران السهام أسرع من البرق

لكن لم يصب أي منهم الهدف

جاء دور الغريم كوكالداش

وضع السهم في القوس المشدود
وصوب الوتر .. انطلق السهم ..
ياللخزي .. و يا للعار
فكسر قوسه إلى نصفين ..
حان الدور على البطل آلــپــاميش
كان قوسه برونزياً
يزن أربع عشر بطماناً
تهادى .. وضع يده على القوس المعدني
ضرب النظر الثاقب .
ثم سحب سهماً .. طويلاً كالرمح .. و حاداً كالإبرة ..
أصاب الهدف ..
حطم أكباد الحاقدين ..
مرحى .. مرحى .. آلــپــاميش ...

ثم كانت الجولة الثالثة .. و هي إصابة القطعة الفضية بطلقة البندقية من مسافة ألــف خطوة ..

" .. و مرت أخرى .. أزّاورت عن القالموقيين الفرصة
و أخطأ كوكالداش الهدف ... و لم يبلغ مرماه ..
ابتهج قلب آلــپــاميش .. و اختلع قلب [بارچــين] آي ..
فالتقط البارودة .. و صوّب الذخيرة
محدقاً بعينيه اليسرى ..
فأصاب الهدف .. و أدمى قلوب القالموقيين
فلعنوا جميعاً سوء الحظ ..
و الرمي و إصابة القطعة الفضية ..
فهل سيحالفهم الحظ في المصارعة
أم أن الأوزبكي سيفوز بالأوزبكية ... ؟

استعدادات المباراة على قدم و ساق .. تكون الأوزبكية الجميلة [بارچين أي]من نصيب الأقوى في المصارعة . تجمع عدد و فير من القالموقيين و من أهالي العشرة آلاف خيمة من البيصونيين .. أداروا الدائرة بأياديهم المتشابكة .. حول الميدان .. جلس تسعون جباراً إلاَّ واحداً من القالموقيين و على رأسهم الغريم كوكالداش في جانب .. و جلس شيمايلاً و قاراجان المسلمين على الجانب الآخر ... بدأ قاراجان المصارعة ..

" طاف قاراجان متهادياً
وسط تبرم الأشقاء الذين يكبرونه
فنهض إليه شقيقه الأكبر قوشقولاق ..
و تعرى جسده الضخم حتى الحزام ..
توالى الأبطال .. حتى قُضى على الجميع
و لم يبق سوى المغوار الغريم كوكالداش
حل المساء .. و فرضت الظلمة أطنابها
فوجب إيقاف النزال عندما اكفهروجه الليل .."

في صباح اليوم التالي برز آلپاميش إلى الميدان متحدياً كوكالداش داعياً إياه إلى حلبة المصارعة ... فتحداه كوكالداش مكرراً أنه لن يسمح له بأن يحصل على محبوبته .. ولن يهنأ بها إلاَّ هو ..

" .. لم يبخل آلپاميش بقواه
و صار كوكالداش أكثر شراسة ..
فكلاهما شديد القبضة
كان في الميدان .. غريمان يتصارعان
كالضبعين .. أو الأسدين الهصورين في الصراع ..
و لم تحن نهاية الصراع
فتململ الحشد .. من هو الظافر ... ؟
و صخب القوم بعد نفاد الصبر .. "

خامرت الشكوك [بارچــين آي] .. فخاطبت حبيب القلب حكيم بك آلــپــاميش قائلة :

" يفوح عبير الربيع ..
من غصن الورد .. في البستان ..
العندليب ينشد أغنية الربيع
بعد أن تمكنت منه نشوة الولهان ..
يا ابن عمي .. وحبيبي .. ماذا دهاك .. ؟
حيث لم تقهر غريمك .. و أسفاه ..
ماذا دهاك .. أم أن بارچــين أي ستتركها لسواك ...؟
إن كان قد وهنت قواك
إن أخفقت في الظفر بعدوك
فإنني سأواصل النزال بدلاً منك ..
فهُزْء الفتيان يحرق قلبي .
فشد العزم .. و استجمع القوى
حقق الغلبة يا حبيبي .. فقلبي لا يروم سواك ...
فغلى آلــپــاميش بانفعالات الصقر
و احتدم بغضبة السبع ..
و استجمع قوة النمر ..
و شدد القبضة على القالموقي ..
فطقطق حبل ظهره ..
ثم رفعه على حين غرة
و ألقى به عالياً في السماء بغتة ..
فهلل القوم صائحين
ورفعوا رؤوسهم نحو السماء ناظرين ..
كيف كان الصنديد يتهاوى ..

و كأنه الكرة .. غاص في الأرض ذلك الصنديد

و هلك كوكالداش – باطير المنحوس ..

غمرت السعادة آلــپــاميش

و الفخر تملك بارچــين آي

و حلت بالقالموقيين المصيبة "

و هكذا ؛ بعد أن ظفر آلــپــاميش بالسباقات الأربع .. ففاز بحبيبة القلب و تزوجا .. و بعد مدة .. قرر الرحيل بالزوجة الحبيبة ، و الصديق المخلص ، و أهالي كونغراد والعودة إلــى باي صوري .. و تتحرك القافلة .. و لا يتخلف سوى عمه أي حمــاه بــاي صــارى .. إن تصرف أخيه بايبوري مازال يغضبه .. فهو لا يود أن يؤدي الزكاة ..

يتملك الغضب من القالموقيين .. فيحرض " ملكهم شاه" (صــور" قابيــل) ضــد " آلــپــاميش " و يدفعه للإنتقام منه .. فيدفع الشاه بجيش جرار لكي يلحق بآلــپــاميش و مَنْ معه .. إلاّ أن آلــپــاميش و صديقه قاراجان يسحقان هذا الجيش .. و يستمر فــي ســيره .. ويصل إلى وطنه كونغرات .. فيسعد والده بايباري ، و يتنازل عن إدارة الأهــالي و الــبلاد لابنه الحكيم آلــپــاميش ..

على الجانب الآخر .. يُنزل الشاه الذي إنهزم صنوفاً من العذاب على عم آلــپــاميش و حماه لكونه قد خدعه في زعمه .... و تصل الأخبار إلى آلــپــاميش بــذلك .. فيتجــه آلــپــاميش إلى أبيه راجياً إياه أن يسمح له بالسفر لكي يخلص عمه من هذا الكرب الذي ألم به و نلتقط بعض العبارات من الحوار الذي دار بين الابن وأبيه :

" أقول لك ، يا أبتاه .. و أرجو المعذرة ..

اسمح لي بالسفر إلى بلاد الغربة ،

و انظر بعين العطف إلى كلامي ..

... إن شقيقك بايصاري

و عمي و حموي .. يلاقي الأمرين ..

فقد سلب الشاه ماشيته

و جعله راعياً لقطعانه ..

و قد عرفت .. فقد عيل صبري .. !

و إذا ما صمتنا، فأين كرامتنا .. ؟

أظن أنك الآن

تدرك مرامي ...

أصغى إلى كلام ابنه ، و خاطبه قائلاً :

"- يا نور عيني .. أصغ إليَّ الآن .. بجد

عليك الابتعاد عن وكر الأعداء ..

و اعلم أنني لن أسمح لك بالرحيل ..

فماذا سنفعل هنا بدونك... ؟

فلربما سيموت شقيقي وعمك هناك

و إن لم يمت فلربما يرجع إلى قومه

فَلِمَ تموت أنت قبل الأوان .. ؟

أشفق على شيخوختي ..

فلتكن جباراً مثل رستم ..

لكن اعلم .. بأنني لن أسمح لك بالرحيل .. "

إلاَّ أن آلـــپـــاميش بعد أن يسرد على والده أنه سوف يتسلح بكل أنواع الأســلحة ، ويعرض علينا صنوفها المعروفة آنذاك عند الأوزبك مثــل الخــوذة الحديديــة البيضـــاء ، والصديرية المزردة الذهبية و الحسام الماسي ، يُصر على موقفه ويطمئن والده أنه ســيكون الابن البار ، و أنه من سيدعو إلى القيم ، و يفي بالوعد و الكلمة التي قطعها على نفسه .. و أنه من صلة الرحم أن يهب لنجدة عمه .. و تعضده بارچـــين في موقفه ، و تخبـــره إن لـــم يذهب هو فستذهب هي لتخلص والدها من أذى القالموقيين و غيرهم من الكفار .. و تخاطبه كما يلي :

" و مهما كانت بلاد القالموق بعيدة ،
فإنني سأرتدي ملابس الرجال ..
و أحمل السلاح .. و أرحل وحيدة
و لن أكون مذنبة حيال أبي
أعلم .. بأنني سئمت الحياة بغتة
هكذا .. أنا المسكينة سئمت كل شيء فجأة
أيها الخان الرفيع الشان .. وزوجي .. فدعني أرحل ..
و مادمت لن ترحل أنت .. فيجب أن أرحل أنا .. "

أصاب آلپاميش الحزن و الكدر.. و استغرق في التفكير .. فماذا يجب عليه أن يفعل .. ؟ استشار [بيك دمير] زعيم عشيرة قائد [جيغالي] .. و تحاورا .. وقررا أنه يجب عليه أن يرحل دون علم والده .. بايبوري ..

انضم إليه أربعون فارساً .. وتسلحوا .. و أسرجوا الخيل .. و شدّوا الرحال و الناس نيام .. إلاّ أن الشيخ بايبوري الذي كان يطوف في الفناء رآهم و هم يرحلون .. فوقف في طريقهم .. و مهما ألح .. أو أمر .. فإن القرار قد صدر .. ورحلوا ..

" كانوا يمضون تارة ليلاً و تارة نهاراً
في السهوب و الجبال ..
انطلقوا إلى بلاد القالموق البعيدة ..
إنهم يمرون بسلاسل الجبال
و يعبرون الشعاب و الآبار ..
عبروا تسعين جبلاً
وطأوا أرض العدو
حيث الرحاب الخضراء .. "

ساروا في الأرض القالموقية دون أن يدروا شيئاً عما يدبر لهم .. فقد ورأتهم العجوز الساحرة صورجايل .. و لجأت إلى الحيلة .. فاستضافتهم بدعوى أن لهما أربعين بنتا كاعبة .. قد تملكهن الحزن بعد أن مثّل الخان بأشقائهم السبعة .. و هن سيسعدن بخدمتكم كما كن يسعدن بخدمة الأشقاء الأحبة ..

قبل آلـپـاميش ورفاقه الدعوة .. بعد أن استمالتهم العجوز بالمكر و الدهاء وساروا خلفها حتى وصلوا قصرها .. فتحت أمامهم البوابة حتى دلفوا إلى الباحة .. راعهم ما رأوا من ثراء .. و دعت العجوز بناتها للترحاب بالإخوة الذين سيعوضونهن عن الأشقاء الذين قتلهم الشاه ..

تعلقت كل حسناء بجواد فارس ، وربطنها في مرابط الخيل .. و قدن الضيف إلى المضايف .. و فرشن السجاجيد و الأغطية ، و صرن يسلمن عليهم منحنيات .. ويلاطفنهم و هن بشوشات ..

" لقد أسرن قلوب البكوات بحفاوتهن
و سلب جمال الفتيات عقولهم ..
و صارت تلوّح بالمناديل أربعون فاتنة لعوب
و نُصبت الموائد بكل ما لذ وطاب ..
و كانت العجوز تقدم الشراب ..
كان الفرسان يشربون و هم غافلون ..
و هم يفكرون :
" إنهن يقدمن الخدمة و الأنس لنا
القالموقيات الحسناوات لم يرفضن لنا طلباً ..
و لا ينتظر منهن أي خطب .. أو خطر .. "

كانت العجوز الشمطاء قد أبلغت القالموقيين بالخبر .. و طلبت من الشاه أن يعجل بإرسال الجند و العسكر .. و زحفت قوات الشاه على قصر العجوز من الجانبين إلاّ أن آلـپـاميش لم يشك لحظة واحدة في طيبة العجوز .. و خاطب رفاقه مشجعاً على خوض

الحرب .. كسب آلـــپـــاميش و فرسانه الأربعون الجولة الأولى .. و تفرق الأعداء .. و حل الظلام .. فأرادوا أن يقضوا الليل في قصر العجوز دون أن يفطنوا للخديعة .. بل أرادوا أن يردوا لها الجميل على حسن الضيافة..

أحسنت الفتيات اللقاء .. و قدمن الشراب .. و أقمن الغناء .. مسليات :

" .. لقد جئتم من الديار الكونغراتية
وأوشكتم على الوقوع في الفخ هنا ..
أرواحنا فداء ..
الفارس الجسور ..
يا ضيفي العزيز وسلطاني .. !
لقد جللت العدو بالعار ..
قلبي يهفو إليك
فكيف أجذب قلبك ..؟ "

هذا بعض مما أنشدته الحسناوات .. و أكثرن من تقديم الخمر ، و المسكرات و تفنن في الرقص و الدلال .. و يطلبن احتساء الخمر و شعورهن السوداء الفاحمة تهتز و أيـــاديهن البضة تتمايل .. شرب الحكيم الشراب . و لكن كان الخمر عقاراً مخدراً .. و مـــا إن خمـــر الجميع حتى تغيَّر الوضع إلى النقيض .. فرفعن الكؤوس ، والأغطية عن المائدة ، و كل ما يزيِّن المآدب ...

أضمرت العجوز النيران في المكان .. فاحترق الفوارس إلاّ آلـــپـــاميش لم تنل منه النيران .. وصل العدو بقواته ، ووجدوها فرصة ، فأمر رجاله بأن يمزقـــوه بالصـــوارم ... ولكن لم تجد كل الوسائل مع شَرِيمابِلْآ .. فظن الشاه و رجاله أن جسده مسحور .. فقـــد رأوا أن النيران ، أو السهام ، أو الحسام لا تفعل فيه شيئاً.. ووبخ الشاه العجوز علـــى فعلتهـــا .. وأخبرها أنه كان من الأفضل أن تتركه يرحل هو ورفاقه .. فما إن يعود إلى رشـــده حتـــى ينتقم منا جميعاً و لكن العجوز لم تعجز بعد .. فطلبت من الشاه أن يحفر بئراً عميقاً تحت جبل

"مرادطوبة "هذا .. و يلقى به فيه .. ولسوف يجد فيه حتفه .. أمر الشاه القالموقي رجاله بحفر البئر فوراً و ليكن بعمق أربعين ذراعاً .. أنجزوا العمل وشدُّوا وثاق البطل بالوهق .. بينما كان آلــپــاميش العملاق الأوزبكي مستلقيا بلا إحساس و كأنه صــنم .. فربطــوا الوهــق بالخيول العشرة و لكن حتى الخيول كانت تنبش الأرض و لا تجدي محاولاتها فــي تحريــك البطل ..

تذكر الأعداء جواد البطل .. فأتوا به .. وربطوا آلــپــاميش فــي ذيلــه .. أدرك الجواد مرام الأعداء " أن يهلك حكيم على يد خادمه الأمين " ... وتَذَكُر السيرة الكثيــر مــن محاسن ، و خصال ، و قوة هذا الجواد الأسطوري ... و تذكر أن الجــواد بعــد أن تحمــل صنوف الأذى و الألم وهو ساكن و سيِّده مربوط في ذيله قرر أن يقفز قفزة قوية يتخطى بها البئر و ينقذ سيده .. إلاَّ أن أحد الأبطال القالموقيين ينتبه لذلك .. و نزل ضربة قوية بســيفه على ذيل الجواد .. فيسقط آلــپــاميش في البئر .. و ينطلق الجواد .. يظل آلــپــاميش فــي الجب ثملا .. و لم يفق بعد .. و استطاع رجال الشاه الإمساك بجواد شَبِيماپِلاَ و أخذوه إلــى إسطبل الشاه .. و أذاقوا الجواد كل صنوف العذاب و التعذيب حتى لا يهرب بينمــا شَبِيماپِلاَ هو الآخر في جبه العميق ..

بعد أن عاد آلــپــاميش إلى وعيه .. و تذكر ما حدث تملكه الندم .. و غلبه البكاء .. و أنشد أغنية عبر فيها عن نفسه و عن معاناته .. و عن المصير الذي ينتظره :

" ها أنذا سجين في بلاد غريبة
كم ينبغي أن أعيش مجللاً بالعار
كنت حسام بلادي كونغرات و درعها ..
و كنت حبيباً لزوجتي .. و عزاءً و سلوى لأهلي ..
كل ذلك مضى وزال كالحلم
و حكم عليَّ أن استعيد الذكريات
فمن يأتي إلى هنا للسؤال عني ؟.. "

كانت ابنة الشاه القالموقي التي عاصرت ورأت عن قرب كل ما حدث للـپـــاميش حيك له من مكائد قد هامت به حباً و هياماً ..، و كانت تزوره و تخفف عنه سراً ..، وتناجيه من فوق فوهة البئر ..، و قد أراد أن يهدئ من خاطرها .. فردَّ على مناجاتها ذات يوم قائلاً :

" رغم سجني ياتافكاجان منذ سبع سنين
رغم معاناة السجن .. فأنا سيد كونغرات و خانها ..
إنني في شوق شديد إلى وطني ..
و دائم التفكير في جوادي ..
فهل قتل أبوك جوادي .. ؟
و هل بقيت بلا جناحين ، ياتافكا .. آيم .. ؟
اصدقيني القول في جوادي
أيتها الحسناء القالموقية ..
و أشفقي على عينيك الجميلتين من ذرف الدموع .. ".

و تبادل تافكاجان آلـپـاميش المناجاة .. وتصف له الجواد الذي قيدُّوه في الإسطبل..

" و يقول إن لهذا الجواد عقل بشر
و يحزن كما يحزن البشر ..
بل إنه أخلص من البشر ..
و قد سمعت أن موطنه كونغرات
و مَنْ يمتطيه من الأوزبك
يصبر الجواد على العذاب
و لا يعطونه الحبوب أو العلف .. "

أصغى آلـــپـــاميش إلى تافكاجان .. و فهم أن الجواد جواده المحبوب ، وقص عليها ما فعله الأعداء به ، و بجواده .. و كيف أنهم خدَّروه .. و ألقوا به في غياهب الجب بعد أن قيَّدوه في ذيل حصانه .. و يشرح لها حال الجواد .. و يرجوها أن تخلصه ..،

".. إنه يواصل حزنه عليَّ ..
و ليس له من تفريج ..
أصغى إليَّ .. يا آي تافكا..
إن حياة خادمي الأمين عزيزة عليَّ ..
فأنقذي الجواد .. حتى لا يشمت الأعداء بي ..
فقربي حزمة العشب الأزرق الجاف ..
و أحرقيه هناك حتى يتشممه ..
فسيغدو الجواد نشيطاً
إذ سيشعر برائحة وطنه ..
و يدرك فوراً بأن سيده حي يرزق .."

فعلت تافكا – آيم ما أوصاها به آلـــپـــاميش ، و ما أن شم الجـــواد رائحـــة العشـــب الأزرق الذي كان يحمله معه دائماً آلـــپـــاميش حتى عادت إليه حيويته ، وكسر قيوده وانطلق نحو سيده ..

" فقد فتح جناحيه الخفيين
وصار يحلق في الافاق كطائر الغطاس ..
صهل الجواد محيياً عند البؤرة .."

ابتهج آلـــپـــاميش بسماع صوت خادمة الأمين .. و صار يتلو الصـــلوات بصـــوت خافت ، مناشداً الأولياء و الصالحين مساعدته للخروج من الجب .

" كان يردد الصلوات المرة إثر المرة
متوسلاً أن يطل إلى الأعلى من أعماق الهوة ..
و قف جوداه على حافة البؤرة ..
و تراءى له أن ذَنَبَه صار ينمو.."

و كلما مرت اللحظات زاد نمو الذنب حتى صار أربعين ذراعاً .. أدلى تجيبار بذنبه إلى الجب .. و التف آلپاميش بالذنب و صاح في جواده .. فسحبه من غياهب الجب .. وخرج العملاق .. و ذاق البطل المغوار هو وجوداه طعم الحرية ..

طار خبر خروج آلپاميش من الجب عبر القوافل إلى كل مكان .. فأمر الشاه بأن تُعد العدة، و تُغلق الحدود .. و صدحت الأبواق النحاسية في أرجاء البلاد ، و اندفعت فصائل الفرسان إلى حيث كان شِيمايلاً .. عندما رأى شِيمايلاً قدوم الجحافل القالموقية / امتطى صهوة جواده قائلاً :

" – ليطل نور السعادة فوقي .
و ليهل شعاعه فوق رأسي
و ليُسْحَق العدو سحقاً ... "

نجح آلپاميش البطل من قهر الأعداء القالموقيين ، و ترك جند الشاه بين قتيل وجريح و مشوه .. وأصابت آلپاميش نشوة الغضب .. فأخذ يجول في شوارع العاصمة ، و هو أكثر رهبة من التنين ... ورصفت الشوارع برؤوس القتلى .. ورشت أرضها بدماء القتلى ..

" هكذا أنتقم
آلپاميش .. سلطان كونغرات
لسجنه سبع سنوات "
" – حلت ساعة العيد
و أزهرت الحدائق و البساتين

و بلغت قوم كونغرات

أنباء مقدم البطل آلــپــاميش ..

فعمت الفرحة

و ارتدى اللباس الأحمر و الأزرق "

.. ..

-" صدحت الأغاني العذبة

و حلت نهاية الخان الباغي

و تم محو ظلم كل الظالمين .."

جلس آلــپــاميش على عرش أبيه .. و أعرب الجميع عن الفرحة و البهجة .. وأعلــن عن هزيمة الأعداء و الخونة .. و تم اعتقال كل مَنْ كان يُهين وطنه .. ونظر آلــپــاميش فيمن حوله فلم ير صديقه القالموقي قاراجان .. فسأل قائلاً:

- " ما جرى .... ؟

أين الصديق قاراجان

لماذا لا أرى الصديق قاراجان ؟

أين هو في مثل هذا اليوم السعيد .. ؟

قص أحد الحاضرين ما حدث و ما جرى لقاراجان ، و ما فعله به الخــان القــالموقي بسبب صداقته بالبطل الأوزبكي .. و لكن الوفاء للصديق يدفع آلــپــاميش إلــى أن يصــدر أوامره كخان لكل البلاد بأن يخرج الفرسان أفواجاً لكي يجدوا قارجان و يحضروه فــوراً .. توجه الفرسان ،، و هم يحملون هدايا الخان آلــپــاميش إلى الصــديق قارجــان .. توجــه الفرسان إلى الأوطاق أي سرادق القيادة حيث سمعوا بوجود قارجان هناك . و عندما رآهــم تعجب لأمرهم .. و ما أن علِم بما حدث حتى :

- " تقبل الهدية الأخوية

و غمرت قلبه بهجة الفرحة ..

و أسرج الجواد على عجل.. "

ما أن وصل الصديق حتى نزل الخان آلـپـاميش عن العرش .. و كان على رأس المستقبلين مرحباً بالأخ و الصديق .. و اجتمع المجلس .. و ناقشـوا الأمـر ، وصـدرت الأوامر بإعداد و ليمه تليق به ...

" أقيمت خيام بيضاء كثيرة للضيوف ..
و حملت أطايب المأكولات و الطعوم ..
و جرت المباريات ..
وظل القصابون .. و الخبازون .. و الطهاة يعملون
و تجمع كل أبناء بلاد بيصون .. و كونغرات
تصدر الوليمة صديقان لا يفترقان
شارك في الوليمة كبار القوم و صغارهم
ناقش الخان آلـپـاميش أمور البلاد
فأراح قلبه من الهموم
و أجزل العطاء .. و منح الأمناء بسخاء .
و حل السلام ربوع البلاد
و ثبت أركان النظام ..
صار يناقش أمور الحكم بسلام
لقد كان يتمنى الخير لوطنه
ورأى أهله سعداء
و أفعم الحب مع بارچين آي
.. و هكذا .. رأى أرض وطنه
وعادت إليه زوجته المحبوبة..
و هكذا وحدّ بلاد بيصون – كونغرات .. "

ثم يختتم الشاعر المنشد السيرة أو الملحمة الآلـپـاميشية قائلاً :

– " لقد جرت هذه الأحداث في الأيام الخوالي ..

و قام بها البطل المغوار آلـــپـــاميش

الذي طبقت

شهرته الآفاق ..

و يتغنى به الشاعر فاضل في أشعاره ..

أنا فاضل ، الفلاح البسيط .. و المنشد ، قد أنشدت .. كما استطعت

و هنا نهاية الحكاية ..

و قد تخيرت خيرة الأقوال .. "

هذه الملحمة الأوزبكية تُنشد في مناطق أخرى بين أقوام الترك ، و بها بعض الاختلافات و فقاً للشاعر المنشد ، و المناسبة .. و المنطقة . فهي معروفة بين القراقالباق .. و الأخيـــرة هي أقربهم إلى النص الأوزبكي ٠

و تَبَين الدراسات الجديدة أن هذه الملحمة قد تكونت بين الرعاة الرحلّ لقبائـــل " آتـــا أركيل " Ata erkil ، و قد احتوت على الكثير من أعراف و عنعنات هذه القبائل . و تُبين أن الكونغرات لم يكونوا يعرفون الزراعة ، و أنهم تعلموها من القـــالموق .. وتؤيـــد الوثـــائق التاريخية أن صداماً كثيراً قد حدث و هذه الملحمة تُجسد صراع الكونغراتيين مع القالموق و أتراك أواسط آسيا . و الأقوام الأخرى المجاورة .. و كان بها الكثير من عناصـــر التبشـــير بالإسلام ..

إن ملحمة آلـــپـــاميش – سواء من الناحية العقائدية ، أو من ناحية الفلسفة الشعبية ، أو حب الوطن و التمسك بالأرض ، و مفهوم الوطن و الوطنية ، و إدارة الأهالي أي الرعيَّة و المواطنين بشكل عادل– تحمل الكثير من السمات البارزة ٠

إن روح الشعب هي المسيطرة على الملحمة .. و تُبين كيفية التلاحم بين أبناء الشعب الواحد ضد العدو المهاجم .. إن أي من الشعب لا يقبل التفريط فـــي أي قطعـــة مـــن أرض الوطن .. و التفريط في جزء من الأرض هو بداية اضمحلال و فناء كل الوطن .. إذا ما تم اغتصاب جزء من الوطن .. فلابد من تقديم كل صنوف التضحية و الفداء لاســـترجاع هـــذا

الجزء السليب .. و لا بد من مقاومة المغتصب مهما طال الزمن .. فكُلما وثقت الأمة بقدراتها .. فرضت اعتبارها واحترامها على كل الأمم ..

— ٣ —

العناصر البديعية و الدينية و القومية في ملحمة آلـپـاميش :

إن كل الملاحم التركية تحمل أو حُملت بقدر ما من الأحداث التاريخية ، بحيث إن هذه الملاحم لو أستبعدت منها المبالغات .. و الخيال الجامح ..و عاد الباحث بها إلى الوراء قليلاً لاستخلص منها أحداثاً تاريخية قد وقعت ، و مما لا شك فيه أن البحث في الملاحم والسير فيه فوائد جمة لإلقاء الضوء على الفترات التاريخية التي سبقت تسجيل التاريخ ...

و إلى جانب كل عناصر الفنون الجميلة .. و أنواع الملابس .. و الخيام والمساكن .. و الأطعمة تعرفنا على الرباط الأسري .. و العلاقة بين أفراد الأسرة الصغيرة .. ومنها إلى العائلة الكبيرة ثم العشيرة فالقبيلة .. قد كانت كلها علاقات تقوم علـى الحب .. و التفاهم والاحترام و طاعة الوالدين و التمسك بالقيم في العلاقة بين الرجل و المرأة و الوفاء بين الزوجين و بين الأصدقاء .. و احترام أوامر الكبار سواء كان شاهاً ، أو خاناً أو أميراً ، أو قائداً ، أو والداً .. فأمر الكبير مطاع ...

إن الباحث المدقق يمكنه أن يجد في ملحة آلـپـاميش الحب العفيف .. والوفاء الصادق . و الصدق في المشاعر .. و الإخلاص للطرف الآخر .. و إن العدل يجمع القلوب و النفوس على الطاعة ..إن عدل الحاكم يوطد علاقة الرعية بالوطن .. و استشارة أهل الخبرة و الحكمة فية فوائد جمه للوطن و الرعية .

إن ملحمة آلـپـاميش فيها الكثير من أسرار الشخصية القومية للجنس التركي بامة .. وقبائل الكونغرات الأوزبكية بخاصة .. فالترابط الأسري و حب الوطن ، و الأرض ، والقبيلة و العشيرة . هي سبب قوة العنصر الأوزبكي على مر العصور ، كما يمكننا أن نستخلص منها الكثير من العناصر التي تدل على بدايات إنتشار الإسلام بين الأوزبك .. وكيف أن الأخ حارب أخاه من أجل فرض الزكاة وجمعها لصالح المجتمع .. و كيف كان آلـپـاميش يستعين بالصلاة ، و بالدعاء ، والتوسل إلى الله في محاربة الأعداء .. السحرة .. و كيف أنه لم يفقد الأمل في رحمة الله و هو في غياهب الجب .. و كأن ذلك تذكير بقصة

سيدنا يوسف في الجب .. و كيف كانت دعوته إلى الإسلام في بلاد القالموق التي لم تكن قد تعرفت على الإسلام بعد .. كما تدل الملحمة على أن قبائل الترك قد عرفت تعدد الإله ثم توصلت إلى وحدانية الله .. و أن رجل الدين – أياً كان هذا الدين – صاحب مكانة و كلمة مطاعة بين الرعية ، كما إن القبائل الأوزبكية قد عرفت دور العرافة ، و الساحرة ، والغانية و تلك الأساليب التي يبتدعها الشيطان لكي يتغلب على أهل الخير .. و بينت الملحمة كيف كانت العلاقة بين الفارس و جواده ، و كيف إن الجياد كانت تسمى بأسماء البشر ، و كيف استعان البطل بالطير لتوصيل الخبر .. و كيف كان المواطن الأوزبكي يداوي جراحة ويطبب جياده و قطعانه بالأعشاب التركية التي عرف أسرارها .

إن خلاصة القول : يمكننا أن نجد الكثير من العناصر الدينية الإسلامية ، والقومية ، و الروحية .. و المعارف .. والمعادن .. و أنواع المستجدات التي وصل إليها الأوزبك منذ فترات زمنية سحيقة .

ففي الملحمة مرت أسماء المعادن كالذهب .. و الفضة .. و النحاس .. والبرونز .. والحديد .. و مما يلفت النظر في ملحمة آلپاميش هي المباراة التي تمت بإطلاق الرصاص على القطعة الفضية من على بعد ألف خطوة . فمعنى ذلك أن الأوزبك قد عرفوا البنادق و رياضة الرماية بها منذ أمد بعيد .. كما أن مكانة المرأة في الملحمة كانت مميزة .. و كانت المرأة صاحبة مكانة .. كابنة .. و كأخت .. وحبيبة .. وزوجة .. حتى إنها كانت رئيسة العائلة بل و القبيلة .. و كلمتها مطاعة حتى من الحاكم .. كما حدث مع العجوز الساحرة .. و زوجة الحكيم آلپاميش عندما طلبت منه إنقاذ والدها ، و عمه مما هو فيه من أسر و إذلال ... كما جسدت الملحمة وفاء الحبيبة لحبيبها .. و الزوج لزوجة .. و طبيعة المرأة في الغيرة .. والانتقام بشتى الحيل بنفس القدر التي كانت فيه نماذج وفية و خيِّرة ..

الخيل في الملحمة :

الجواد في هذه الملحمة يتحرك ، و يتصرف ، و يسمى بأسماء البشر ... جواد أسطوري .. صديق وفي للبطل ... يكسب معه المعارك و يحزن لأسر صاحبه .. يتألم لآلامه .. يطير .. يتخطى العقبات .. ينقذه من غياهب الجب .. فالجواد بالنسبة للكونغراتي كزوجته .. أو كطفله .. يرعاه .. يداويه .. يداعبه .. يلاطفه ، الجواد هو عدة المحارب " ..

و أعدوا لهم ما استطعتم من قوة و من رباط الخيل .." و من هنا كانت أهمية الخيـل لـدى العرب .. و الترك .. و كافة المسلمين .. في هذه الملحمة الجواد يُسمى بالبايـچيبار . يُكْسِب [قاراجان] الرهان رغم المسامير التي دقت في حوافره ، و ينقذ آلـپـاميش من الجب بذيله بعد أن طار فوق القالموقيين . وأتى حيث يرقد سيده في البئر . يحقق النصر لسيده على كل الفرسان الذين طاردوه بعد أن علموا بخروجه من غياهب الجب .. و هذا الجواد مثل حـي ، وتجسيد لكل الخيول الأسطورية في الملاحم التركية ... فالخيول لها دور في الحرب كالبطل المغوار تماماً تؤدي مهامها على خير وجه .. و تسجل أسماءها في صفحة التاريخ التركي ؛ فإلى جانب تاچيبار في ملحمة آلـپـاميش هناك قيرآت في كل أوغلان .. "أينجـه محمـد " يُشار كمال .. فالتاريخ يُسجل لها أدواراً بارزة ..

الأولياء و المسنون في آلـپـاميش:

إن المسنين .. و كبار السن هم الذين ينصحون الحكام .. سواء أكانوا خاقانـاً .. أو خاناً .. أو سلطاناً .. هم الذين يشيرون عليهم بما يجب عمله في الأزمات والملمات .. هـم حكماء القبيلة .. و العشيرة ، و كافة الأفخاذ .. و ذوو اللحى البيضاء .. و الشعر الأبيض .. و العصي البيضاء هم أهل الخبرة هم الذين يحيطون بأولي الأمر .. خاصة إذا كانوا شباباً .. هم الذين يقدمون لهم النصح و الإرشاد.

فالوزراء من أصحاب الشعر الأبيض و اللحى البيضاء . هم الذين يديرون أمور الدولة و الرعية بالحنكة و التجربة و العدل .. أما الأولياء .. و هم ضمير الأمـة الحـي الـذين يظهرون وقت الملمات .. مكانتهم مرموقة .. كرامتهم مصدقة . لهم التبجيل من الكبير قبـل الصغير .... فهؤلاء الدراويش .. و المجاذيب ينصحون الرعية .. والحكماء .. و يعلمـونهم كيفية الوصول إلى الحقيقة .. فهؤلاء مع كبار الدولة .. وحكماء الرعية هم الـذين يخلقـون نوعاً من الديمقراطية الشعبية في الحكم و الإدارة .. فهم أهل الرأي و الخبرة.. و من هنا كان في الملحمة موضوع الدارسة " مجلس الحكماء " هو الذي يقرر الحرب أو السلام ، هو الذي يحدد موعد ولائم السلطان .. فالولائم نوع من الاحتفال الشعبي و التكريم العلني لهؤلاء الذين قدموا خدمات جليلة للحاكم .. و الوطن و الأمة .

التراث الموسيقي في الملحمة :

إن الموسيقى منذ القدم ، هي محركة الوجدان الديني لدى الأمم منذ العصور السحيقة في القدم ، تخاطب المشاعر و الوجدان .. و لقد أوضحت الملحمة منذ البداية الدور الإيجابي للموسيقي .. ففي حفلات الزواج .. و عند التضرع إلى الخالق .. وعند حفلات السبوع والختان .. و عند الخروج إلى الحرب .. و حفلات إتمام مراحل التعليم أو الانتهاء من تدريبات الرماية و الفروسية .. كان الغناء و الرقص لهما مكانة كبيرة في الغواية في حفلات الخداع .. و كانت الموسيقى هي صوت الضمير عندما يفيق البطل من غيبوبة المخدر .. كانت الموسيقى هي نفير الحرب .. و نفخة الإيقاظ في البئر ..هي رفيقة النصر .. و قرينة حفلات الابتهاج في الأعياد الدينية و المناسبات القومية ٠

لم تكن الموسيقى في ملحمة آلپاميش مجرد تسلية .. أو مرح و مصاحبة لموائد الطعام و الشراب فقط .. بل كانت – كما سبق القول – إيقاظاً للضمير وتطهيراً للنفس و هي نغمة العرفان و الاعتراف بالحب و الهيام .. يسمعها البطل مع حفيف الشجر .. شقشقة الطير .. و تغريد البلابل .. انطلاق الرمح .. وقعقعة السيف .. هذه بالنسبة للبطل موسيقى النصر .. و بالنسبة للمهزوم تراتيل الندم ٠

لقد شغف الترك منذ القدم بالموسيقى .. و تعددت لديهم أدواتها .. فمن الرباب .. والساز .. و القُبوز .. إلى الفلوت .. الناي .. ففي هذه الملحمة نرى آلپاميش و هو في غياهب الجب " يصنع فلوتاً " من عظم الأغنام و الضأن و يبعث منها أنغاماً يتعرف منها أصدقاؤه على مكانه .. فالراعي المسن الأمين .. يتعرف على نغمات آلپاميش .. و يرشد ابنة الشاه القالموقي التي هامت بحب هذا البطل ، فلعلها تنقذه من الجب .. فتناجي الحبيب .. و تداوي بالعشب الأزرق جواد البطل الذي يتمكن من إنقاذ سيده .... إن صديق آلپاميش يعلم أن ابنة الشاه القالموقي مغرمة بالموسيقى ، فيرسل لها آلة موسيقي تصدر أنغاماً بديعة .. فتصر الأميرة على معرفة صانع الآلة .. فيكون آلپاميش الذي تهيم به حباً ، فكأن الملحمة أرادت أن تقول : إن الموسيقى هي الحب .. وواسطة العشق و الهيام ٠

و مما يلفت النظر و يتعلق بعلاقة التركستان بالموسيقى .. أن الحفريات الأثرية التي تمت بالقرب من طورفان قد أخرجت نقوشاً أويغورية فيها رسومات لما يمكن أن

يكون فرقة موسيقى أوركسترالية . و أن هذه الفرقة تستخدم أنواعاً متعددة من آلات العزف الموسيقية ، و أنواعاً من آلات النفخ ...

العناصر المتعلقة بالدين الإسلامي في الملحمة :

يمكن أن نعدد بعض العناصر الأخرى إلى جانب ما سبق ذكره مما يمكن استنباطه أو استشفافه من بين حنايا الملحمة . فهناك عناصر كثيرة مثل :

أ- حب الخيل و الاهتمام بها ..

ب- الإلقاء في غياهب الجب ...

ت- الأحلام و الرؤية . و شرب الخمر خلال الرؤية ...

ث- عدم مساس النار آلـپـاميش .. و مقاومة شتى أنواع الأسلحة .

ج- جمع الزكاة و الحض عليها .. بل و الحرب من أجلها ..

ح- تكرار ظهور شخصية الدرويش التي تذكر بأولياء الله الصالحين.

خ- النضال ، وكفاح المسلمين ضد الكفار .. و اعتبار ذلك من الجهاد في سبيل الله .. ورفعة الدين .. الذي يدعو إلى وحدانية الإله ... و أن الكافر إذا ما حسُن إسلامه بعد أن يسلم يكون أشد ضراوة على الكفار .. كما حدث مع قاراجان القالموقي .

د- نستشف من الملحمة رعاية الترك و قيام آلـپـاميش بنفسه بتربية الماشية والقطعان .. و الاهتمام بها و العطف عليها ..

ذ- نرى في ملحمة " آلـپـاميش " قافلتين للتجارة .. و أن التعامل التجاري كان يتسم بالصدق و الأمانة .

ر- نفهم من سياق الملحمة أن الميراث ينتقل من الجد .. و يصل حتى الحفدة . وكان للأنثى نصيب من الميراث .. و حتى الفروسية .. و الجندية .. والشهامة .. والبطولة و الكرم حتى هذه الصفات كانت تورث .. و من أهم الميراث الأدوات الحربية ... والطفل هو أحسن هدية تقدم للأب .. و أحسن ميراث ترثه الأم عند الأوزبك .. والأم هي المدرسة التي تُعلم الأبناء الدين .. و النظام .. و حب الوطن .. و التضحية .. والأخلاق .

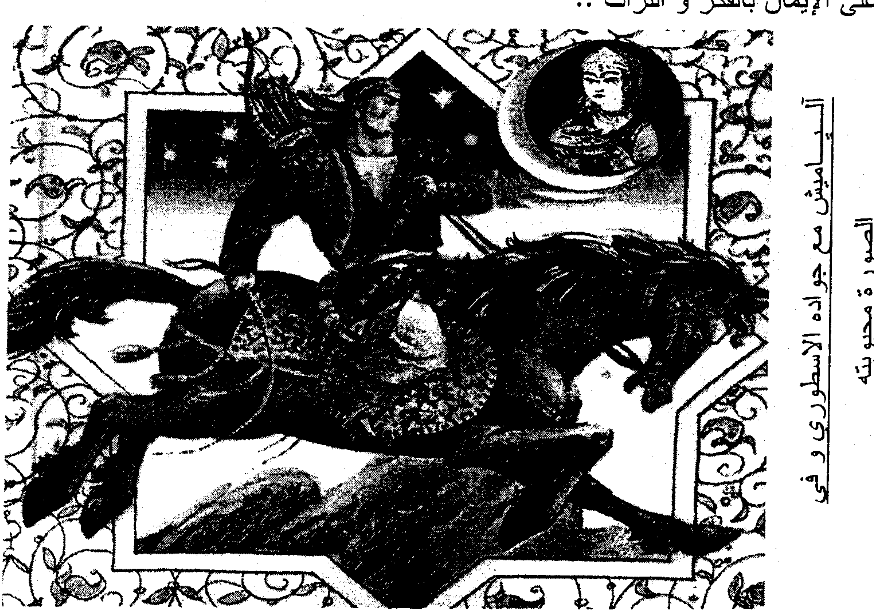
و كلمة أخيرة .. فمهما كانت قيمة الملاحم و السير فإنها مصدر مهم من مصادر دارسة التراث و أنها من أهم عوامل منح الثقة في الأمة لكي تنجز أعمالها العظيمة . وتساعد على العودة الحميدة إلى الهوية القومية التي من الممكن أن تكون الأمة قد أُجبرت على البعد عنها لأسباب متعددة •

و من الممكن أن تلعب السير و الملاحم و الأساطير أدواراً مهمة في إيقاظ الشعور القومي لدى الأمة .. و هذا مما لا شك فيه مما يحمي الاستقلال ، و الحرية ، و عودة الوعي و الروح إلى الأمة ...

و يعتقد معظم شعراء الرباب الذين ينشدون الملاحم ، أنهم قد ألهموا الملاحم التي ينشدونها .. و أن إلهام الشعر كان و مازال بوحي سماوي .. تختلف أشكال نزوله عليهم .. وتتخذ صوراً متعددة و لكنهم متفقون في أمر واحد ومهم .. وهو أنهم مختارون من قِبَل الله عز وجل لحمل الرسالة .. و بث الهداية •

و إيمان الشعراء راسخ بقداسة السيرة و الملاحم ، و قداسة رسالتهم .. و هم يضفون هذه القداسة ليس على وظيفتهم فقط ، بل على مسلكهم أيضاً ..

إذن فمهمة الشاعر المنشد للسيرة أو الملحمة تتجاوز سرد التاريخ إلى استلهام العبرة ، و الحث على الإيمان بالفكر و التراث ..



ألباميش مع جواده الأسطوري و في الصورة محبوبته



آلـــبـــاميش على جواده الأسطوري متجهاً لإنقاذ محبوبته من أيدي الأعداء

المبحث الرابـــــع

مفهوم الدين عند الأتـــراك

* ـ الدين و الأبجدية ....
* ـ الشامانية ....
* ـ البـــوذية بين الأتراك ...
* ـ أثر الدين على الفن ...
* ـ مراسم الدفن عند الاتراك .

المبحث الرابع

مفهوم الدين عند الأتراك القدماء

إذا أردنا أن نفهم الحياة الروحية لقوم ما ، وجب أولاً أن ندرس عقائدهم الدينية .. و الآثار الموجودة لا تذكر شيئاً كافياً عن هذه العقائد لدى الترك ، و إن كانت تتحدث عن عبادة السماء و الأرض – كما سبقت الإشارة – ، و ذلك لأننا كثيراً ما نصادف في نقوش أورخون عبارة [تورك كوكي Türk göğü] وعبارة [تورك يرصـوبي] = " أرض الترك و ماؤهم " . و تستعمل أيضاً كلمة " طـانري Tanrı " بمعنـى " سـماء " وبمعنى " الألوهية " .. و يمكن أن نستنتج من العبارات أن كلمة يرصـوب أي " الأرض والماء " أن الأرض و الماء يكونان ألوهية واحدة لا ينفصل جُزآها .وأنه لا يـراد بهـذه الكلمة مجموعة الأرواح الأرضية ، و إنما يُقصد بها إله واحد معين ... إذا كـان هـذا كلام رادلوف ... فقد زاد طومسون غموض هذه الكلمة " يرصوب " في ترجمته الأخيرة حيث ذكرها بصيغة الجمع " أراضي الترك و مياههم المقدَّسة " . و من بين الألوهيـات المنعزلة عن غيرها يذكر روحاً واحداً هو الروح الحارس للأطفال الرُضع و المسـمى " أوماي " = Umay . و قد كان الخان يقرب دائماً بين هذا الروح الحارس و بين أُمــه . ومازال الأتراك الشامانيون في الآلتاي يقدسون أوماي ٠

و يذهب رادلوف إلى أن الأتراك " توكيو " كانوا شمانيين مع أن الكلمة التركيـة المقابلة لكلمة " شامان " و هي " قام " = Kam " لا ترد أبداً في النقوش الأثرية . و تذكر نقوش ينيسى كلمتي [طانري = ته كرى " Tanri]و [بل Bel] و لا شـك أن Bel هذا هو أحد أرواح " الجن " التي يقدسها الشمانيون . وإن كانت هذه الكلمة لم تـرد فـي نقوش أورخون الأثرية . و مع أن انتشار الديانات المتحضرة بين الترك كان موضـوع بحث في المصادر الصينية فإن نقوش أورخون لا تذكر شيئاً بهذا الصـدد . و تـروي المصادر الصينية أن الخان أراد إقامة معبد بوذي في عاصمة ملكه و لكن مستشاره [تون

يوقوق] حوّله عن هذا الرأي بقوله : " إن الديانة البوذية تؤثر تأثيراً سيئاً على خصائص الترك العسكرية"

لقد كان انتشار الأبجدية الإيرانية بين الترك نتيجة محضية للعلاقـات التجاريـة (مثلها كمثل الأبجدية الفينيقية في العصور القديمة) ، و من هنا فلم يكن لانتشارها بـين الترك أي تأثير ديني ، فضلاً عن أن الديانة القومية للإيرانيين وهي الزرادشتية لم يكن لها نشاط تبشيري عالمي ، و قد ظلت الولايات الشرقية لإيران مفصولة عن الولايات الغربية بعد فتح الإسكندر لها و تعرضت بذاك للتأثير البوذي الوافد من الهند . و قد كان مروّجو الديانة البوذية من الهنود يستخدمون في تبشيرهم الأبجدية الهندية .و بين أيدي البـاحثين الآن [بفضل البعثات الأثرية الأوربية] وثائق تركية مكتوبة بالحروف الهندية . و مـع هذا فإن البوذيين ما لبثوا بعد استخدام هذه الحروف أن تحولوا بسـرعة إلـى الحـروف الصغدية التي انتشرت بينهم فيما بعد كما رأينا .

لقد عرفنا أنه قد دخلت إلى آسيا الوسطى أبجديتان أُخريـان همـا : الأبجديـة المانوية ، و الأبجدية السريانية ، و ذلك أن الديانتين المانوية و المسـيحية دخلتـا هـذه المنطقة ابتداءً من القرن الثالث الميلادي ودخلت مع كل منهما أبجديتها الخاصة . و مـع أن المانوية ترمى إلى التوفيق بين الزرادشتية و المسيحية و البوذية فإنها فيما يبدو دخلت في آسيا الوسطى قبل المسيحية ، معنى هذا أنه قد نشأت علاقة بين الدين و بين الأبجدية ؛ فاستعمل المانويون أبجديتهم و استعمل النصارى أبجدية أخرى سموها السريانية.

كانت الفرق المسيحية المختلفة التي انتشرت في آسيا تستخدم أنواعاً مختلفة مـن هذه الأبجدية السريانية ... و هكذا ظل الترك و الإيرانيون الـذين قبلـوا المسـيحية أو المانوية يستعملون أبجدية هذه أو أبجدية تلك بحسب الديانة التي أُدخلوا فيها . و مع هـذا فإن هناك نصوصاً مسيحية و مانوية كُتبت بالخط القومي و هـو الأبجديـة الصـغدية . ويوجد إلى جانب هذا نص مانوي كُتب مرة بالأبجدية المانوية و أخرى بالأبجدية الصغدية . ولم تكد تسقط دولة الأتراك الغز حتى أخذت المانوية تنتشر بين الترك على نطاق واسع

و يمكن للدارس أن يتساءل إلى أي مدى كان نجاح التبشير الديني مطـرداً مـع اتساع التجارة الصغدية في الاستبس فيما بين القرنين السادس و الثامن ؟..

لا شك أن الطريق التجاري المؤدي إلى الصين كان مجالاً لنشاط المبشرين والتجار من الصغد . و قد تأسست في هذا الطريق مستعمرات صغدية حتى منطقة لوب - نور . و أنها كانت تتمتع بنوع من الحكم الذاتي .. و في نفس الوقت كان التجار من الصغد يجدون لبضائعهم سوقاً في مناطق الاستبس التركية ، و بخاصة في معسكرات الخان ، و على هذا النحو تكونت مستعمرات صغدية في تلك المناطق .

الشامانية :

تظهر العقائد الشامانية في مراسم الجنائز و الدفن عند الترك .و تروي المصادر الصينية أن الأتراك يُقيمون إلى جوار قبور الجند تماثيل لقتلى هؤلاء من الأعداء . و قد عززت نقوش أورخون – كما رأينا – هذه الرواية . و هي تحدثنا بأن هذا النوع من التماثيل كان يُسمى " بالبال " Balbal .

و لكن نقوش أورخون لا تحدثنا عما إذا كانت هناك مراسم خاصة تُقام في أثناء وضع هذه التماثيل أم لا .. فأما المصادر البيزنطية فتتحدث عن أن الرؤساء العسكريين الذين يقعون في أسر الترك كانوا يُذْبَحون عادة إلى جوار قبر الخان . و لا شك أن أساس هذا التقليد يرجع إلى عقيدة توجد عند شعوب أخرى شامانية ، و هي أن القتلى يُصبحون في العالم الآخر خدماً لقاتليهم أو لمن كان القتل باسمهم.

و هذه العقيدة حد فاصل – بدون أدنى شك – بين ديانة الشعوب البدائية وديانة الشعوب المتحضرة ، و ذلك أن الشامانية و ما شابهها من ديانات البدائيين لا تقوم على أسس أخلاقية ، و ليس معنى إيمانهم باليوم الآخر أنهم يؤمنون بالحساب و بأنهم سيُسألون عما يفعلون . و لذلك فإن القاتل عندهم لا يخاف عقاباً يوم القيامة ، بل يعتقد أن منزلته ذلك اليوم تزداد ارتفاعاً بازدياد عدد من قتلهم من الأعداء .

لقد أيدت آثار أورخون و التماثيل التي وجدت معها المعلومات التي وردت في الكتب . و أبطلت الأفكار التي كانت تنزع إلى تجريح هذه المعلومات والتشكيك فيها . وقد لاحظ الباحثون أن هذه التماثيل المسماة (بالبال) و التي ترجع إلى القرن الثامن هي من حيث الشكل عين التماثيل التي يُسمّيها الروس (المرأة الصخرية) = (طاش نيته) (Kamonnaya boba) و التي تُوجد في مساحات واسعة في مناطق الاستبس . كما أن

هناك معلومات تُؤيد أن الأتراك المقيمين في جنوب روسيا و الذين يسمون (قومـــان) = Kuman "أو [بالوويتس] كانوا يُقيمون تماثيل تُشبه تماثيل الـــ " بالبال " و كانـــت تُقـــام بحيث تكون وجوهها متجهة إلى الشرق ٠

يرى رادلوف أن ما ترويه المصادر الصينية عن أن الترك كانوا يحرقون جثـث الموتى تناقضٌ بين روايات الكُتب و بين ما تدل عليه الآثار المادية ؛ و ذلك لأنه لم يجـد أي أثر لعادة إحراق الموتى في كل القبور التي درسها ، و كل ما تمدنا به نقوش أورخون في هذا الصدد هو أن الترك يعتقدون أن روح الإنسان تتناسخ بعد موته ، فتصبح طــائراً أو حشرة ، و يقول الترك إذا مات ميتهم إنه [أوجــدي] . و معلوم أن أتراك الغرب حتى بعد إسلامهم كانوا يقولون في كلمة (اولدي Öldü) مات العبارة التركية " شونقار بولدي Şunkar buldu أي لقد صار صقراً . و يتضح من هذا أنهم كانوا – في الغالــب – لا يعتنون بالمحافظة على الجسم الإنساني . و يذكر رادلوف أيضاً .. أنه مع هذا ، فهنــاك رواية خلاصتها أن جثة قائد تركي وقعت في أيدي العرب عند الفتوح العربية ، فكان ذلك عند الترك أشد من الموت . و لكن يُحتمل أن يكون هذا الإحساس غير راجع إلى الـــدين و لكن إلى الشعور بالكرامة ، فقد كان الترك يرون أن الذل كل الذل هو أن تقع المرأة أو أن تقع جثة القائد في يد العدو أثناء الحرب ٠

رغم كثرة الحفريات التي جرت لم تؤد إلى ظهور أي قبر حتى الآن ، ويحتمل أن يكون الترك – شأنهم شأن غيرهم – يحفرون عند دفن الخان حفراً كثيرة و يضعون جثة الخان أو رماده في إحداها – صوناً للخان من أن يُهان أو أن يُحقَّر بوقوع جثته في يــد العدو ٠

أثر إيران الثقافي و ظهور البوذية بين الأتراك :

الواقع أنه منذ العهد الساساني كان تأثير المدنية الإيرانية قد بدأ يحل محل المدنية الهندية في آسيا الوسطى . و كانت إيران تُسيطر على طرق التجــارة العالميــة البريــة والبحرية . و معنى هذا أن إيران قبل سقوط الدولة الساسانية كانت قد بلغت أقصى المدى في ميدان التجارة كما كانت قد بلغته في سائر الميادين ٠

لقد كان الساسانيون كما كان الأكمينيون من قبلهم لا يستطيعون – و هم يخوضون الحروب في الغرب – أن يحافظوا على حدودهم في الشرق . و قد أفاد الترك من هذا الوضع فسلبوهم حوض نهر جرجان الذي يصب حالياً في بحر الخزر. و لكن الأتراك بإستيلائهم هذا ، وقعوا تحت تأثير المدنية الإيرانية ، ودخلوا الديانة الزرادشتية .. و يدل هذا المثل على أن إيران الساسانية كانت تُؤثر – بفضل مدنيتها و أهميتها الاقتصادية – على جيرانها دون أن تنتصر عليهم عسكرياً .و ربما أمكن بهذه الصورة أن نتبين كيف رسخت أقدام المدنية الزرادشتية في الصغد بعد اضمحلال الديانة البوذية هناك . و يمكن بفضل أوصاف الرحَّالة الصيني هيوان – تسايج الذي طاف أواسط آسيا في سنة ٦٣٠ أن نقول : إن انتصار الديانة الزرادشتية على الديانة البوذية في أواسط آسيا بدأ في أواخر أيام الساسانيين . ففي عهد هيوان – تسايج كانت البوذية قد انقرضت تماماً في بلاد الصغد فنجد أن حينما جاوز هذا الرحَّالة تركستان الشرقي حيث بلغت البوذية غاية الازدهار لم يقع نظره على أديرة بوذية ،إلا بعد أن تجاوز الحدود الجنوبية للصغد ووصل إلى طخارستان . و في سمرقند عاصمة الصغد وجد ديرين اثنين للديانة البوذية و كانا خاليين. و لم يكن الزرادشتيون يدعون رجال الدين البوذي يجتمعون في هذين الديرين ، بل كانوا يطردونهم و يقذفونهم بالحطب المشتعل .

لقد تم اكتشاف نصوص بوذية في لغة الصغد في التركستان . و هذه النصوص قد ترجمت إلى لغة الترك و أنها أثرت عليهم . و يُحتمل أن تكون بعض مستعمرات الصغد المتعددة في أواسط آسيا قد احتفظت بالبوذية ، و في أثناء سيطرة المدنية البوذية على بلاد الترك لم يكن مروّجو الديانة البوذية من الهنود هم وحدهم الوافدين على بلاد الترك بل كان التجار الهنود يفدون عليها كذلك .

لقد زاد تأثير إيران على آسيا الوسطى بعد الإسلام ، فلم يظل تأثيرها في العهد الإسلامي ثقافياً فقط ، بل اتحد الإيرانيون في فارس مع الإيرانيين في آسيا الوسطى في دولة واحدة لأول مرة منذ عهد الإسكندر المقدوني و السلجوقيين .وجاء كثير من الإيرانيين مع العرب و توطنوا تركستان . ووقف إيرانيو آسيا الوسطى –عن طريق الوافدين حديثاً – على مناقب ملوك إيران القدماء . و بدأ اللسان الفارسي يحل محل

اللهجات الإيرانية في آسيا الوسطى . و ظهرت لغة أدبية فارسية واحدة لإيرانيي إيـران وتركستان ٠

لم يكن لإيران و للفارسية هناك إلاً خصم واحد هو اللغة التركية ، و كـان صـراع اللسان الفارسي التركي فاشلاً في أكثر الأحيان وكثيراً ما كان يميل إلى صالح الترك حتى في داخل إيران ذاتها ٠

الديانةالمانوية :

لا شك أن العرب قد عرفوا عن كثب نواحي " بش باليق " حـين كـان يسـكنها التغزغز " دوقوز اوغوز " أي الأويغور . و في أثناء رحلة [تمـيم بـن بحـر] كـان بأراضي التغزغز من الأتراك من يدين بالزرادشتية و من لا يزال يدين بالمانوية ، و في بداية الأمر كانت ديانة زرادشت هي السائدة ، و كانت المانوية في العاصمة فقط ٠

هذه الديانة (مثلها كمثل البوذية) ترقق شمائل الإنسـان و مزاجـه ، و لـذلك أضعفت الروح العسكرية لدى التغزغز. ويروي الجاحظ المتوفى ٨٦٩ أن التغزغز كانوا قبل اعتناقهم المانوية أمة محاربة باسلة ، و أن الغلبة كانت لهم علـى القـارلوق فـي الحروب التي خاضوها ضدهم ، حتى حين كان عددهم أقل . فلما دخلوا ديانة ماني بدأوا يذوقون الهزائم . و يؤخذ من رواية الجاحظ هذه أن التغزغز كانوا يعيشون منذ زمن بعيد في تركستان الشرقية حيث عرفهم العرب ، و أنهم كانوا في صراع طويل مع جيـرانهم الغربيين = القارلوق ٠

لقد كشفت بعثات الآثار في آسيا الوسطى عن وثائق مانوية مكتوبـة بالفارسـية والصغدية و التركية و الصينية . كانت المانوية - كالبوذية تماماً – تهدف إلى أن تنتشر بين جماهير الشعب . و كانت تعاليم الزهد في الديانة موجهة ضد نظام الطبقـات الـذي كانت الديانة الزرادشتية تحتفظ به . و من أجل هذا كتبت النصوص المانوية لكي يفهمها العامة ٠

كانت كتابات المانويين التركية واضحة و بسيطة . و أهم نصوصـهم المكتوبـة بالتركية (صلاة التوبة) = المسماة خواستوا نيفت Khwa astwa nift. و بعد دراسـة هذا النص تبين للدارسين أن المانوية قريبة الشبه بالبوذية . فقد كان يُعاقب على التطاول

على المقدسات المانوية بنفس الطريقة المتبعة في الديانة البوذية . و يظهر تقارب الديانتين بوجه خاص فيما كان بينهما من المصطلحات المشتركة التي تدل في نفس الوقت على أنهما كانا يتأثران ببعضهما البعض ، حتى إن الدارس يجد صعوبة في الجزم بأي الديانتين انتشر أولاً بين الترك ، المانوية أم البوذية ؟..

فالمانويون يسمون قديسيهم " بورخان " و هي الكلمة التركية التي تدل على بوذا وعلى التماثيل البوذية ، و البوذيون يطلقون على كتبهم المقدسة كلمة " نوم Nom " وهي اصطلاح مانوي مازال مستعملاً حتى الآن في اللغة المغولية . وقد حاول البوذيون و المانويون كما حاول المسيحيون و المسلمون أن يصوغوا مصطلحاتهم الدينية من اللغة التركية حتى يسهل انتشارها .و لكن ذلك لم يكن ميسراً في كل الحالات كما ذهب رادلوف . فلئن كان الاصطلاحان الدالان على كلمتي (الله) و (إبليس)موجودين في الديانة الشامانية ، فلم يكن بتلك الديانة اصطلاح يدل على " الملك " و قد اضطر المبشرون المانويون و النصارى والمسلمون المزاولون نشاطهم التبشيري بين الترك أن يستعملوا الكلمة الفارسية " فرشتة " و أن يكتفوا بها . و قد أشار محمود الكشغري في كتابه " ديوان لغات الترك " إلى أن الترك ليس عندهم تصور لمعنى " المَلَكْ " .

أثر الدين على الفن :

إن المصادر الصينية تحوي معلومات متعددة الجوانب عن الهون جيرانهم الذين كانوا يتحدثونهم في كثير من الفترات .. من بين هذه المعلومات و المعارف العادات و التقاليد ، والمعتقدات الدينية التي أمكن استخلاصها من هذه المصادر المتعددة . و قد استخلص العلماء من هذه المصادر أن الهون كانوا من الذين يؤمنون بالإله الواحد القاطن في السماء ، كما أثبتوا أن لهم ثقافات متعددة فيما بينهم حول الشمس و القمر و الأرض و المياه . و أنهم كانوا يلتفون حول الباشبوغا الذي كان يمثل بالنسبة لهم الرئاسة الدينية . و كانوا يلقبونه بـ تنگري قوت [Tengri Kut] أي ابن السماء .

كان الخاقان عند خروجه من خيمته صباحاً ينحني نحو الشمس مقدماً إليها التحية .. وفي المساء يقوم بنفس الحركة تجاه القمر . و خلال الاحتفالات الدينية كان الخاقان يوجه وجهه دائماً نحو الشمال .. و كان لهم معبد من الخيام في [آوول Avul] أي في حوش

أمام الخيام ، و في رأس السنة من كل عام يتم إقامة مراسم واحتفالات عظيمة في هذا المكان بالاشتراك مع أهم أربع و عشرين من رئيساً دينياً لتجمعاتهم . و كما كان الصينيون يطلقون على الخاقان [شان – يو] فقد كانوا يُشيرون أيضاً أنه يتلقى قدرته و قوته من السماء أي أن الخاقان = الباشبوغ يتلقى قدرته من السماء = [قدرتلرينى گوك يوزنذن الان باشبوغ] أي الباشبوغ الذي يتلقى قدرته من السماء .. وفي نقوش أورخون التي سبق الإشارة إليها يذكر أيضاً .. [طانري گبى گوكده أو لمش تورك بلگه قاغان = Tanrı gibi Olmuş Türk Bile Kağan] = بلكة قاغان الترك الذي صار في السماء مثل الإله " .. هذه العبارة تُثبت أن المعتقد الديني قد انتقل كما هو من الهون إلى الـگوك تورك . إن مجتمع الهون الذي رعى قطعانه في الإستبس المتناهي الاتساع ليلاً و نهاراً تحت قبة السماء الساحرة التي يشاهدها ويتأملها ؛ قد دخلوا إلى عالم الروح الذي تصوروه في [قبة السماء] . و لهذا فقد أطلقوا على إله الآلة [باش طانري Baştanrı] . وگوك طانري " أي إله السماء . و هذا هو نفس المعنى الذي عبَّر عنه الأتراك القدماء بـ [تنـگري Tengri] أي الله . و لقد تطور الاسم في اللهجات التركية و صارت كلمة [Tengri] أحياناً [Tengere] و أحياناً [Tangara] وفي مجتمع تركي [Tengri] و في مجتمع آخر [Tanrı] و كلها و إن اختلفت الأصوات لها دلالة واحدة و هي التعبير عن [إله السماء] .

إن الحفريات الأثرية التي ظهرت في المناطق المختلفة من بلاد الهون قد دعَّمت ما ذهبت إليه المصادر الصينية المكتوبة .. بل زادت على ذلك أن نتائج هذه الاكتشافات الأثرية التي تم الوصول إليها في أعماق آسيا و في [بازيريق = Pazirik] و [نوايـن – أولا Noin Ula] و شبيه = Şibe] و [قاطاندا Katanda] و [بَرَل Berel] قد ألقت الضوء على الكثير من الفعاليات الفنية و المأثورات الثقافية التي كانت مبهمة .

لقد أوضحت هذه الاكتشافات التي خرجت من حفريات بازيريق العديد من الجوانب حول دفن الهون لموتاهم ؛ فقد اتضح أن الآلتائيين كانوا يجعلون الجسد مسجياً نحو الشرق ، بينما الوجه ينظر دائماً نحو الغرب .. و بدراسة هذه العادة اتضح للعلماء أن أقدم المجتمعات التركية كانت تعتقد أن الحياة الأخرى التي سوف يحيونها بعد الموت ستُعاش في الغرب . و ربما يكونون قد استنبطوا ذلك من غروب الشمس إلى الغرب كل يوم . و كان الهون يراعون

الدفن في مواسم معينة من السنة ، وبخاصة في الربيع و الخريف . و قد استمرت هذه العادات المتعلقة بالدفن لدى الـگوك تورك أيضاً حتى القرن الثامن . فتذكر المصادر الصينية أن الـگوك تورك كانوا ينتظرون حتى تصفر الأرض أي إلى الخريف لدفن مَنْ يتوفون في الصيف ، فأما الذين يتوفون في الشتاء فقد كانوا ينتظرون حتى تُزهر الأرض و تتفتح الزهور حتى يدفنوهم .. كانت تُحرق الأجساد أولاً ، ثم يدفن فقط ما تبقى من رمادها في باطن الأرض .

يرجع بعض الباحثين ذلك إلى أن إعداد المدفن بالشكل المناسب كان يستغرق وقتاً .. و يرى البعض الآخر أن هذا قد أوصلهم إلى علم تحنيط الموتى حتى لا تتعفن الجثة أو يفسد الجسد حتى موعد الدفن .. و بالطَّبع كانت عملية التحنيط تجرى لكبار رجالات الدولة و علية القوم فقط . أما إذا كان المتوفى من عامة الشعب فلربما كان يتم الدفن فوراً .. و نادراً – كما تذكر المصادر الصينية – ما كانوا يفتحون الجمجمة .. و يستخرجون المخ قبل الدفن للكبراء فقط .. حيث إن أجساداً تم استخراجها من مدافن صغيرة و لم يثبت فتح الجمجمة ... بينما كانت الممياوات المستخرجة من حفريات [شيبه Şibe] وجدت أعضاؤها الداخلية و المخ منزوعة من الجسد . و تم إعادة توحيد أجزاء الجسد بشكل بدائي . و اتضح بعد دراسة الممياوات المستخرجة



<u>ممياوات أجساد هونية معروضة في متحف الهرميتاج في لننجراد</u>

من الحفريات الثانية في بازيريق أن المخ قد استخرج عن طريق ثُقْب قد تم فتحه بقلم معدني حاد خلف الرقبة . و أن الجمجمة قد حُشيت بأعشاب عطرية و رماد و شرائق صـنوبرية . كما أُفرغت الأحشاء من محتوياتها و حُشيت هي الأخرى بنفس التركيبة النباتية .



رسوم وشم ظهر على أجساد مدفونة

هذه الممياوات مازالت معروضة في متحف الهرميتاج في لنجراد في روسـيا ولكـن أصابها العطب . و هذا ما يفسر أن علم التحنيط المصري قد وصل إلى أن يكون علماً عالمياً .. و لم يصل الترك في هذه المناطق إلى سر التركيبة التي تحفظ الجسد و تمنع عنه العطب

إن فن التحنيط كان شائعاً لدى الهون استناداً إلى الحفريات التي جرت في المنـاطق المشار إليها سابقاً .. و قد أكد ذلك المؤرخ هيرودوت الذي تحدث عن عـادات الـدفن بـين الإسكيت الذين كانوا يقطنون شمال البحر الأسود حيث يصف هذه العادات المتعلقة بالدفن كما يلي :

{ .. بعد وفاة باشبوغا ={ حاكم مدني وديني } الإسكيت ، يتم حفر حفرة رباعية الشكل في نفس المكان الذي وجد فيه .. خلال هذه الفترة تُشق بطن المتوفى ، و بعـد أن يـتم تفريـغ الأعضاء الداخلية ، يتم حشو المعدة بخلطة مسحوق من العديد من الأعشاب و أجـزاء مـن بعض حبوب الأشجار العطرية .. ثم يُعاد خياطة البطن . ثم يغطى الجسد كله بطبقة رقيقة من الشمع .. و إذا كان المتوفى من عامة الشعب ؛ يوضع جسد المتوفى فوراً في عربـة .. و

يتم الطواف به على منازل كل الأقرباء والأحباب .. و يكون المنتظرون قد أعـدُّوا للقـادم احتفالاً كبيراً و تُعد الولائم والتلهيات المتعددة ..] .

و حسب ما ذهب إليه هيرودوت ، فإن قسماً مهماً من طعام الوليمة يُخصص للمتوفى .. و لما كانوا يقتنعون بالحياة في الدنيا الأخرى ، فقد كانوا يقدمون الطعام للجسد حتى الدفن .. و كانوا يدفنون مع المتوفى و في قبره ملابسه اللازمة ، و أدواته المتعـددة : أسـلحته .. محظية أو خليلة أو خادمة .. خيول مطهمة و الجواد الخاص بـالمتوفى .. و ظهـر فـي حفريات الهون في آلتاي أن رجالاً و نساءً قد تم دفنهم سوياً .. و هذا يُشير إلى أن المتـوفى كان يصطحب في حياته الأخرى محظيته لتقوم على خدمته . و ظهـر ضـمن محتويـات الحفريات الثانية و الخامسة في بـازيرق لحد قد حُفر من جذع شجرة ضخمة و تم دفن رجل و امرأة معاً في نفس اللحد . و في الحفرية الرابعة ؛ تم العثور على لحدين في أحدهما رجل ، و في الآخر امرأة .

إن عادات الدفن الهونية هذه ظلت مرعية بين الكثير من الأقوام التركية في أعمـاق آسيا طول قرون عديدة . حتى إننا نصادف بعض الإشارات لهذه العـادات المتوارثـة فـي الملاحم التركية الإسلامية . و أشهر هذه الملاحم و السير التي تُحافظ على هذه الموروثـات هي ملحمة [ماناص = Manas] . سنلقي نظرة على الكيفية التي تصور بها الملحمة مراسم دفن أمير ماناص حيث تقول :

[يقولون : إن روح ماناص التي تُشبه البعوضة قد صعدت]
ذهبت حيث بيتها الحقيقي .
يقولون : إنهم أقاموا قصراً أبيضَ و أسجوه فيه .. ،
أقاموا قصر السماء ووضعوه فيه ..
يقولون : إنه انتظر تسعة أيام ،
فذبحوا تسعين فرسة .
يقولون : إن ملابسه المطرزة بالذهب ،
مُزِّقت إلى تسع قطع .. وصنعت حلقة .

صنعوا لحداً من شجر الصنوبر الضخم .

يقولون : إنهم غطوا باطنه بالفضة .

و غلَّفوا خارجه بالذهب ..

اسجوا ماناص في تابوت هكذا ..

قالوا : إن الندى و البلل لا يتسلل من الذهب

– حتى لا تمر أشعة الشمس من فوقه

– دفنوا التابوت داخل السراي .. ››

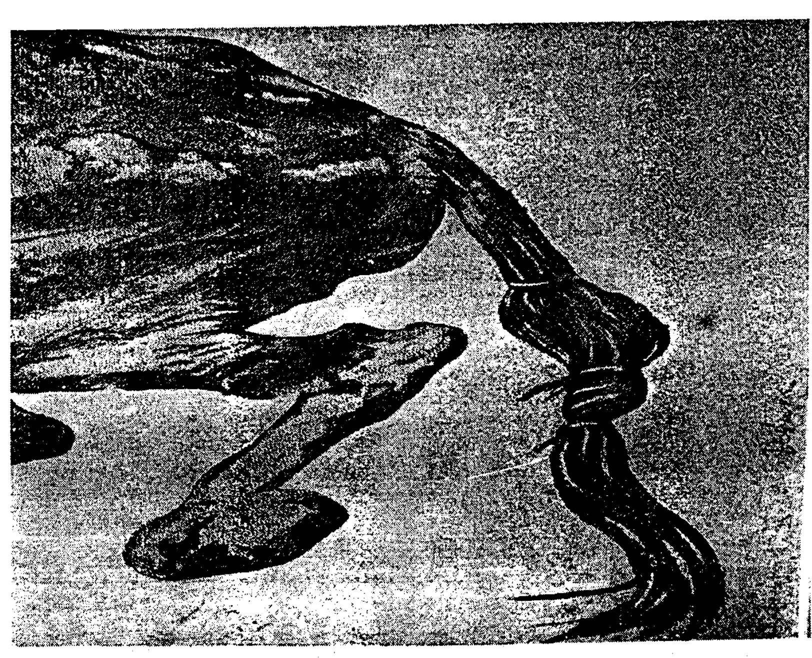
إن هذه العادات و التقاليد متفقة تماماً مع المكتشفات الأثرية المستخرجة من حفريات مناطق بازيريق و شبه و قاطان و نايون أولاً و غيرها من حفريات الهون .. و ما يُشير إلى أن هذه الحفريات ترجع إلى أزمنة سابقة عن الإسلام هو أن المسلمين ليست لهم أي علاقات بالتوابيت المغلفة أو المطلية بالذهب أو الفضة .

لم تفلت هذه الحفريات من نهب اللصوص ؛ حيث قاموا بقطع و نشر جذوع أشجار الصنوبر التي كانت تلف حول المقبرة ، و كذلك الكتل البرونزية ، و نهب اللصوص كل ما وصلت إليه أيديهم من الأشياء ذات القيمة . لهذا خلت التوابيت المعروضة في الهرميتاج من أي نقوش أو زخارف تصور حياتهم . أما التوابيت التي نجت من أيدي اللصوص .. فنشاهد عليها لوحات رسومية مزخرفة بهياكل حيوانية مصنوعة من الجلد و من النحاس .. و لما كان اللصوص لم يروا أهمية لهذه اللوحات لذلك لم ينتزعوها ..

إن ما يمكن استنباطه من هذا الجزء من الملحمة أن العديد من الذبائح تُنحر من أجل الميت ، و أن التابوت المحفور من جذوع أشجار الصنوبر كان قد تم وضعه في مزار بالقصر .. نفس الملْحَمة تورد نصيحة الخان كوكه تي [Köketey] وهو على فراش الموت إلى شعبه و فيها الكثير من النقاط التي تُلفت النظر .

{ .. شعبي .. قومي في الوقت الذي أغمض فيه عينيَّ اغسلوا جسدي بالقيميز .. ››
.. و تستمر الوصية .. ".. وجِّهوا رأسي نحو الشرق .. حَملوا الجمال الحُمْر بالجوخ .. والنوق السود بالقطيفة السوداء أَقْبلوا على خانِي المؤسس بقافلة مكوَّنة من أربعين ناقَة .. } .

إن أجساد الخيول المستخرجة من حفريات الهون وُجد أن ذيولها مقطوعة أو معقودة . ويمكن أن يُعد ذلك من أهم عادات الحزن و التعزية القديمة لدى الترك . فلقد كانت من عادات المجتمعات المرتحلة أن تقطع ذيول خيلها التي تركبها أو تعقدها .. و أصبح هذا من مراسم الحزن التي لا تتغير .. و يمكن تعقب هذه الموروثات حتى على النقوش الحجرية و الرسوم التي رسمها الـگوك تورك فوق الصخور و الأحجار . ووفقاً للمعلومات التي تُقدمها المصادر الإسلامية فإن آلب آرسلان السلـچوقي قبل موقعة ملازگرد ١٠٧١ م ، بعد أن قام بالدعاء تلا ذلك بعقد ذيل حصانه ، و تبعه في ذلك كل الجنود و القواد . و لسوف نصادف ذلك على كثير من نقوش الأواني والأعمال المعدنية التي ترجع إلى العصر السلـچوقي .



صورة ذيل معقود لجواد

لنستمع إلى كيفية استمرار هذه العادات والأعراف لدى القيرغيز من فم رحَّالة إنجليزي جاب هذه المنطقة في منتصف القرن التاسع عشر فمما قال :

{ ... ما أن أخرج السلطان [دارماصيريم] نَفَسَه الأخير ، حتى توزع القيرغيز على النواحي المجاورة و نشروا خبر الوفاة . و يُستخدم لهذا الغرض أسرع الخيول ومن الأماكن التي أوصل النجابون إليها الخبر ، تنطلق خيول جديدة لإيصال الخبر إلى القيرغيز الآخرين حيث يكونون . و بهذا الشكل و في ظرف بضع ساعات يكون خبر موت السلطان قد أُعلن وسمع في محيط يبلغ مائتي ميل . و على الفور يتحرك السلاطين و رؤساء القبائل و العشائر و مسنو كل البطون و الأفخاذ للمشاركة في جنازة السلطان دارما صيريم ، و يتوجهون نحو حوشة . و على باب اليورت قد نُصب مزراق مغلّق فوقه شارة سوداء . و يكون المتوفى قد أُلبس أفخر ثيابه ، ويُسجى الجسد أمام الخيمة .. و عند مكان رأسه قد وضعت [المخدة] أي = السديرة التي تُرمز إلى مكان العرش و السلطة .. و بجوارها سَرْج جواده ، و لجامه ومهامزه .. و تكون ملابسه و أسلحته و معداته الأخرى قد رُصت و تُسدل الستائر المصنوعة من الحرير الصيني تتدلى منها شراشيب مُزَخْرَفة بزخارف و رسوم الموطن . وتصطف نساؤه و بناته و النسوة الآخريات راكعات على ركبهنّ ووجوههن نحو المتوفى و يرددْن مرثياتهن و بكائياتهن . و يهززن أجسادهن مرة إلى الأمام و مرة إلى الخلف و هن يعدن ... هذه المرثيات هي من السمات البارزة في مراسم الدفن الدينية . و الرجال الوافدون من بعيد على هيئة مجموعات يركعون على الفور ويشاركون مع [كورال] الجنازة .و يترنمون بأصوات بطيئة و عميقة مما يخلق نغمة حزينة مؤثرة .. ليس هناك صراخ أو عويل أو لطم أو تمزيق للملابس أو نزع للشعر . و تُنهي المجموعة واجب العزاء بهذا النوع من الموسيقى .

[الرحّالة الأجنبي لو كان يدرك أو يفهم اللغة التي تتم بها هذه المراثي لأدرك أنها ليست موسيقى .. بل يمكن أن نطلق عليها مراثي جنائزية ، أو تعازي للميت] .

و يطلق القيرغيز و القازاق على [مراسم الدفن] أو [حفل المأتم] هذه وإلقاء قصائد الرثاء فيها مصطلح [çoktav = چوقتاو] أو [يوغلامة Yoğlama] .

يتابع الرحّالة الإنجليزي وصفة قائلاً :

{ .. بينما كانت تتردد أصوات المراثي في كل المكان .. كانت هناك مجموعة من الأشخاص يقومون خلف مرقد السلطان بذبح عشرة جياد و مائة من الأغنام من أجل حفل الجنازة .. و بجوار هؤلاء تماماً ..يتم طبخ اللحم في عدة قدور [قازانات] كبيرة من الحديد .

و يقوم الرجال نصف العرايا بإخراج القطع التي نضجت بمغارف كبيرة من الخشب .. وبينما مجموعة من الرجال قد شمروا عن سواعدهم و هم منهمكون في عملية الذبح و قد تلونت أياديهم و أذرعهم بالكامل باللون الأحمر .. تكون مجموعة أخرى مشغولة بعملية السلخ وتقطيع اللحم .. و بعد تسوية الكمية الكافية من اللحم .. يجتمع كل الضيوف .. و يلتفون في شكل نصف دائرة أمام موطن = خيمة المتوفى ، و يجلسون القرفصاء .. السلاطين و المسنون في الوسط ، والأقل رتبة و حيثية ، كل قد أخذ مكانه فيما حولهم . و على مسافة ليست بعيدة عنهم ، قد أخذت النسوة أيضاً أماكنهن ...

هذه الضيافة أو الوليمة و هذا الاجتماع استمر لمدة سبعة أيام .. و خلال هذه المدة كلها لا تنقطع جموع المعزين من القيرغيز و الأهالي الأصليين من المرور من أمام الخيمة [= وكأنهم يلقون النظرة الأخيرة] . لقد اشترك في هذه الجنازة ما لا يقل عن ألفي شخص . في اليوم الثامن يواري السلطان في الثرى و عند رفع النعش من أمام الخيمة تُغيَّر الملابس التي كان يرتديها عند الوفاة بملابس أخرى . و يُحمَّل فوق جمل من أجل إحضاره إلى المدفن الذي سيدفن فيه ، و تكون [سديره الحكم] قد حُمِّلت فوق جمل آخر يسبق الجمل الذي يحمل الجسد ..و خلف النعش تماماً يسير جوادان من أحب جياده إلى نفسه ، و خاصة جياد الركوب .. و يعْقب ذلك نسوة السلطان و بناته و بقية نسوة القبيلة . فيسرن خلف الجنازة مرددات مراثي التعزية . وينضم إليهن الملالي و المشايخ و الرجال ، فيعبق المكان بترانيم و آهازيج حزينة تؤثر في الوجدان . و بمجرد الوصول إلى الضريح ، يُسجى النعش في الحفرة المعدَّة لهذا الغرض . و يقوم الملالي بالدعاء . و يتم تناول الأعمال العظيمة التي قام بها المتوفى . على الجانب الآخر يكون قد تم إعدام اثنين من أجود جياد ركوبه و يدفنان إلى جوار صاحبهما .. و بعد أن يُغطى الضريح أو المدفن .. يعود الموكب مرة أخرى إلى حوش المتوفى ، و مرة أخرى يتم ذبح مائة من الخيول و ألف من الأغنام و تُقدَّم كقربان على شرف السلطان المتوفى . و يتم البدء في طعام الجنازة • **عقب عودة النسوة من المقبرة ، يتجمعن أمام حاجيات المتوفى و أدواته كالأسلحة و معدات الخيل و الصيد .. و يرتلن دعاء الموتى أمامها لمدة ساعة تقريباً .. بعد ذلك يتجمع أفراد العائلة مرة أخرى أمام الخيمة .. و ينضم إليهم السلاطين الآخرون الموجودون ،**

ورؤساء القبائل و العشائر . و بعد هذه المراسم الكبيرة يتوزع الجميع .. ، و تستمر الذبائح و الضيافة إلى أن ينصرف سائر المعزيين و عند كل مشرق شمس و غروبها يــتم الــدعاء للسلطان المتوفى .. } •

يتضح من هذا السرد و الوصف أنه رغم قبول الأتراك للإسلام فإن هــذه العــادات والأعراف ظلت مرعيَّة فيما بينهم إلى منتصف القرن التاسع عشر . ومازالت هذه العــادات والتقاليد متبعة فيما بين الأتراك في أعماق آسيا و بخاصة القازاق منهم .. فحتى إذا ما توفى أحد الأثرياء القازاق ، تقام في اليوم السابع وليمة ضخمة للمجتمعين . للتعزية وبعد الضيافة يوضع السرج بالمقلوب فوق جواد المتوفى .. و ترص فوقه ملابس المتوفى و عمامته أو غطاء رأسه . و بهذا الشكل يتم ربط حصان الركوب في عربة المتوفى . ووسط آهــازيج الحزن و أغانيه يُقص ذيل الحصان و عرفه .. و منذ هذه اللحظة لا يركبه أحد ..و يُطلــق عليه اسم أرمل [Dul] و مازالت هذه العادة متبعة فيما بــين القــازاق . و يطلــق عليهــا مصطلح الترمل [طولامق Dullamak] . و في اللغة القيرغيزيــة المصــدر طولامــق Tullamak] يفيد معنى الحزن و الترمل و الحداد . و من المعــروف أن كلمــة [دول = Dul] التي تعني الأرمل أو المطلق ما زالت مستخدمة في شتى اللهجات التركية . بل هناك من المجتمعات القيرغيزية من يقطعون ذيول جياد الموتى و ينصبونها فوق مزار أو مقبــرة المتوفى •

و الكتب التركية التراثية مثل [**ده ده قورقوت حكاية لــرى**] مليئــة بمثــل هــذه الحكايات المليئة بالمراسم و العادات المتعلقة بكل شئون الحياة و مناحيهــا .. بأفراحهــا و أتراحها ..

و مما يلفت الانتباه حول أجساد الخيول التي تصادف وجودها في مقــابر الهــون ، وعثر عليها في الحفريات الأخيرة ما يلي :

١. تدفن الخيول مع المتوفى ..
٢. قطع ذيول و أعراف الجياد ..
٣. تحويل الجياد كلها إلى " أحصنة " عربات ..

٤. جميع الجياد المستخرجة من المدافن ؛ وجدت إشارة على إحدى [أذنيها = بصمة] تدل على القبيلة التي أخذت منها . حيث كانت هناك دمغات أي بصمات معينة للجمال و الخيول و الأبقار للتعرف عليها و نسبتها إلى أصحابها عند اللزوم.

و كتاب [ديوان لغات الترك] يحتوي على الكثير من المصلحات و الإشارات التي تدل على ذلك و تفسره . و ما زالت عادة اختيار الحيوان الذي ستتم التضحية به في أي مناسبة من بين ذكور هذا النوع مرعيَّة حتى يومنا هذا .

ومن العقائد و المعتقدات التي تحمل مفهوم الدين عند الآلتاى ، فالكائنات عند [الياقوت] مكوَّنة من : طبقة عليا .. و طبقة سفلي .. و طبقة وسطى يسكنها بنو الإنسان . الطبقة العليا .. السماوات السبع . و هنا خالق كل شئ .. [**گوك طانري Gök Tanrı**] إله السماء . أما في القسم السفلي فموطن الإله المخيف .. و هو تحت إدارة [آرصان دو أولاى Arsan Du Olay] .

و إذا ما انتقلنا إلى آلهة الطبقة الوسطى ، فهم يعيشون مثل [الياقوت] في خيالاتهم و يتم التعبير عنهم بمصطلحات مختلفة لدى المغول و الآلتاى ، ويتخيلونهم في تماثيل وهياكل ، و كانوا يعبدونها . و كانت هذه الآلهة تُشبه لعب الأطفال التي تُصنع الآن من الأخشاب أو الوبر أو الجلد أو شعر الماعز ..

أرواح الطبقات الثلاث لا تلتقي ببعضها البعض .. فكل منها تعيش في منطقتها التي تقع تحت سيطرتها الكاملة .[انظر صور الهون و الـگوك تورك]

نفس هذه الأعراف الموجودة بين الياقوت أثبتت الدراسات الأخيرة المعتمدة على الحفريات الأثرية أنها متشابهة إلى حد كبير بين كل الأقوام التركية .

إن الأتراك الذين يعيشون في ظروف مناخية و بيئية شديدة البرودة و شديدة الحرارة ، و شديدة الجفاف .. و المغطاة بالجليد أحياناً.. جعلتهم دائماً في صراع مع الحيوانات المفترسة ، منطلقين في ذلك من معتقدات ورثوها عن الأجداد ، و تجسدها فنونهم .. و جعلتهم في بعض الأحيان يعبدون عناصر الطبيعة فيما يُسمى [طوطاميزم Totemizm] .. و لكن رويداً .. رويداً .و بعد أن نجح هذا البدوي المرتحل من استئناس هذه الحيوانات البرية خرجت من مفهومه السحري و المحمي .. و أضبحت أمام عينيه .. يتعامل معها بالأسلوب الذي يرتضيه هو .. و إن ظلت بعض الطيور الجارحة هي [قام =

Kam] أي إله متدثر في شكل طائر . و هذا [القام (*) = الرسول = المبشر يعمل في خدمة الشامان ومساعدتهم . و لسوف نصادف في فنون الهون و غيرهم من الأقوام التركية العديد من هياكل الحيوانات التي تحمل معاني خرافية.

لقد مزج الآلتائيون و الياقوت بين الجمادات و كثير من الأرواح ، و في حالة ما إذا لم تُرْعَ حقوق هذه الأرواح ، فإنهم على قناعة أنها سوف تُصيبهم بأضرار جسيمة . هذه الأرواح تعيش في الجبال و الأنهار و آلات الحدادة و أواني احتساء الخمر المسمى [قيميز] . ولدرء خطرها يمكن أن تُقدم لها بعض القرابين ، فمثلاً يُقَّدم لـ [الروح] الجبل شعر حصان أحمر. و لروح [النيران] نقط من بعض الدهون المعينة ، أو بضع قطع من الزبد لطفل رضيع . ووفقاً لمعتقداتهم ففي الإنسان نوعان من الأرواح : إحداهما جسدية والأخرى تتولى إدارة الأحداث " Psısik] . و هذه الروح الأخيرة هي التي تحمل مهمة روح المتوفى بعد وفاته . هذه الروح ؛ كانت غير مقيدة تجاه الأحياء ، و لكنها في مواقف معيَّنة كانت تعود إلى ذوات الروح . وقد مثَّلوها في أصنام في حجم الإنسان مصنوعة من الخامات الخشبية ، ثم يُلبسونها معطفاً من الفراء .كانت هذه التماثيل تُعمل حسب الطلب لكي يستدعى بها الـ[قام] روح المتوفى . و يتم الحفاظ عليها في الخيمة متجهة نحو الشمال و لَمْسُ هذا الصنم محرَّم قطعياً ، لأن ذلك يؤدي إلى غضب [الإله] الفتاة [Kız Tangri] بمعنى أن لمس هذا الصنم يغضب ربة البكارة و العُذْريَّة ، و يمكن أن تُعاقب كل أهل الخيمة . و مما لا شك فيه أن الشامان هو الذي يقوم بالوساطة بين الطبقات و الإله / الآلهة التي في السماء و بين الذين يعيشون بالأرواح = ذوات الروح .

إن الشامان لديه القدرة على علاج الأمراض التي ترسل بها الأرواح بقصد أو بغير قصد . و للشامان أيضاً علاقة بالعديد من الحيوانات ، و كان الناس يعتقدون في قدرته.

(*) الـ [قام] = Kam هو رجل دين شاماني و هو الذي يقوم بالاتصال بالأرواح ، و بالمراسم الخاصة بالمعتقد الشاماني . و حسب معتقداتهم ؛ فهذا الرجل لديه القدرة على القيام بدور الوساطة بين الإله / الآلهة و البشر . و مصطلح [الشامانية] مأخوذ عن اللغة التنغوذية . و قد أُطلق على هؤلاء الوسطاء لقب [قام] في أقدم لغة تركية . و انتقلت إلى سائر اللغات التركية .

على إرسال أرواح هذه الحيوانات إلى أصحابها أينما يكونون . و تلعب الطيور دوراً رئيساً في هذا الصدد و كانوا يصنعون أصناماً لكل هذه الطيور . كما سنرى في قسم الفنون .

و من الأصنام = Tözler المهمة عند الآلتاي و الياقوق صنم الدب = Aba = Ayı و الأرنب = Tavşan = Kozan و العُقاب => [Kartal, bürkut, . و كانت الأصنام تُسمى بأسماء هذه الحيوانات و الطيور . و يُعبِّر الياقوتيون بصنم الجواد و العُقاب عن [القوة] و [القدرة] . وعند أقدم الأقوام التركية كان [العُقاب] رمزاً لـ [الشمس] و لـ [رب السماء] .

تُثبت المصادر الصينية أن الهون كانت لهم أصنام من الذهب . ففي خلال حرب دارت بين الهون و الصينيين سنة ١٢١ ق . م ، فقد وُجَد بين الغنائم التي حصل عليها الصينيون صنمٌ من الذهب يُعتقد أنه خاص بالأمير الهوني حيث وُجد في مقبرته . وفقاً لنفس المصادر فمن المحتمل أن أمير الهون كان يُقَّدم القاربين والدعوات لهذا الصنم الذي يمثل الـ [گوك طانري] أي إله السماء .

و مما لا شك فيه أن الأصنام الذهبية هي مرحلة متقدمة و متطورة عن مراحل صنع الآلهه من الجلود أو الأخشاب من وجهة نظر المفاهيم الفنية . و على أي حال فإن تماثيل الأخشاب و المعادن المستخرجة من الحفريات الأثرية الخاصة بالهون هي نماذج متقدمة و متطورة من الناحية الفنية .

كما أن تماثيل الغزلان و الغرفين تحتل مكاناً ملحوظاً فيما بين هذه الأصنام . فتلك [الهُوَيْكلات] الهياكل الصغيرة تحمل قيمة فنية عالية ، حيث أنها تُمثل عودة إلى الطبيعة لكونها قد نُحتت من الأخشاب بمهارة فائقة . فأجسادها تبين مقاييس جمالية متناسقة في بعض الأحيان ، و مبالغ فيها في أحيان أخرى .

لقد اتضح من الدراسات التي تمت على الحفريات أن الهون كانوا يعلقون أصنامهم فوق العمود الأساسي ، أو الدعامة الوسطى للخيمة ، أو على عمود الصواري أي الأعلام و الرايات الخاصة بهم . و مازالت العديد من هذه الأصنام والتماثيل معروضة في متحف الهرميتاج . و مما لاشك فيه أن الاعتقاد الطوطمي لدى الهون و مَنْ قبلهم قد ساعد على تطور هذه الفنون من ناحية الشكل الخارجي للحيوان المستلهم منه التمثال .... ورويداً رويداً

و مع مرور الزمن ، و تقدم المجتمعات التركية و انتقالها – إلى حد ما – من حياة التنقل و الترحال إلى حياة التوطن والتَّحَضُر ، انتقلوا كذلك من صناعة تماثيلهم المستلهمة من حيوانات البيئة و طيورها إلى استلهامها من الإنسان ، و ذلك بدوره تحت تأثير التطور الكبير الذي حدث أيضاً في التلقي الديني لهذه الشعوب .

و لقد تم الاستدلال على ذلك من كتابات أحد الرَّحالة الغربيين الذين زاروا هذه المنطقة خلال منتصف القرن الثالث عشر الميلادي . ففي عام ١٢٥٣ م قام ملك فرنسا ليودويج التاسع IX Ludwig بإرسال الراهب روبروك Rubruk كسفير إلى منجوخان في بلاد المغول . و قد تحدث روبروك عما صادفه ورآه بين التتار و المغول و أقوام أعماق آسيا .. فيقول إنه شاهد خياماً مغطاة بأغطية من الجلود والوبر، و فوق الأغطية رسوم حيَّة و ملوَّنة لهياكل حيوانات و طيور من الجلد الملوَّن أيضاً .. و عندما يقدِّم معلومات عن الشكل الداخلي للخيمة يقول :

[.. الخيمة التي يجلس فيها الأمير بصفة دائمة ، في الداخل يُرى صنم أو تمثال لطفل صغير معلق فوق المكان الذي يجلس فيه الأمير . و يطلقون عليه [شقيق الأمير] .. و في قسم الحريم أيضاً ، و فوق مجلس سيدة المنزل يُرى صنم ، يُجسِّد طفل صغير معلق ، و يطلقون عليه اسم [شقيق الهانم] و نفس الكاتب يقول أيضاً: إنه قد رأى فوق هياكل شقيقي الخان و زوجته هيكلاً أي صنماً آخر قيل له إنه هيكل حامي الوطن و حافظه . و من هذا يتضح أن روبروك الذي طاف مناطق الاستبس في كل [آوار آسيا] لم يشاهد التماثيل التي تُجسد الحيوانات و الطيور فوق الخيام خلال رحلته هذه .

و هكذا .. فإن كانت المعتقدات الدينية في تلك الأزمنة السحيقة قد انعكست على الفنون و أنتجت هياكل ورسوماً للحيوانات و الطيور من الجلد و الأخشاب وبعض المعادن ، فإنه رويداً رويداً بدأت التماثيل و الهياكل البشرية تحل محل الحيوانية .. و إذا كنا قد حصلنا علي تماثيل للذئب و الغزال والغرفين والتنين والقرتال = العُقاب ، ففي العصور الوسطي بدأت الهياكل التي علي شاكلة الإنسان تحل محلها ، أو رأس الإنسان الذي يعلو جسد الحيوان مثل السفنكس " أبي الهول" . وقد وصل هذا التأثير حتى بعد الإسلام ، بل وحتى العصر السلجوقي .

مما لاشك فيه أن تعدد الآراء حول المعتقدات الدينية لدي الأتراك القدماء يُصيب الباحث بالدهشة .. وتُثار في ذهنه مجموعة من التساؤلات .. هل الأتراك كانوا مع تعدد الآلهة أم مع عقيدة الإله الواحد ؟.. هذه الأصنام المتعددة التي خرجت من الحفريات الأثرية التي ترجع إلى مراحل زمنية مختلفة ؟..

إن ما يطرحه الراهب [روبروك Rubruk] يمكن أن يكون فيه الفصل في هذه المشكلة ..

لقد لاحظ روبروك العديد من الأصنام المُهْمَلة في معابد الأويغور خلال رحلته المشار إليها .. و أصابته الدهشة من ذلك . فمما لا شك فيه أن ما يراها هي أصنام .. ولما كان يعلم أن الأويغور يعبدون إلهاً واحداً ، زادت دهشته .. و لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤال الرهبان الأويغور قائلاً : [مادمتم تعبدون إلهاً واحداً فما هو سر هذه الآلة .. فقالوا له :

[.. نحن بدون أدنى شك لم نصنعها كتصوير للإله .. بل عند وفاة أي شخص ممن هم منتسبون إلي معبدنا .. فإننا نعمل صورته ونضعها هنا ، ونحن نحافظ عليها ونحتفظ بها هنا احتراماً لذكري المتوفى .. هكذا .. إن الشامان لم يكونوا ليعملوا أي مراسم أو تائبين لآلهة السماء ولأرض والأرواح الأخرى دون تقديم القرابين . وكما كانت تقدّم القرابين من ذوات الدماء لهذه الموجودات المقدسة ، فكان من الممكن أيضاً أن تقدم قرابين من غير ذوات الدم مثل : الدهون .. أو إلقاء ذيل حصان في النيران ، أو ربط وتعليق خرق من القماش علي الأشجار أو طبل الشامان، وكان أهم أُضحية أو قربان من ذوات الدم مما لاشك فيه الجواد ، وبعد الجواد في المرتبة يأتي الكبش الجبلي .. وكان الآلتائيون يسلخون الجواد المقدم كقربان أو أُضحية ويعقلون الجلد مع الرأس فوق خازوق مرتفع . ويحرصون علي أن يأخذ شكل الجواد . القربان يقدم إلي " اولغن = Ölgen ،، إله السماء . وكانوا يراعون الدقة عند اختيار الجواد ،لابد أن يكون أبيض أو علي الأقل صاحب لون فاتح ولما كان "اولغن = Ölgen ،، هو أكبر الآلهة .. فمنذ أقدم العصور والأتراك وفقاً لمعتقداتهم الدينية يسمون (إله السماء = Gök tanri) ، اولغن = Ölgen ،، فاولغن هو مخلوق علوي يريد الخير لكل الناس ولأي شخص .. وهو الذي خلق الشمس . والقمر والنجوم والنيران .. وأقام لنفسه كرسياً = عرشاً فيما بعد الشمس وفي داخل أعماق السماء

. ويشترط عند تقديم القرابين إليه ألاَّ تواجد النسوة ٠٠ أما إذا كانت القرابين المقدَّمة مـن الخراف والأغنام فيمكن للنسوة أن يشاهدن تقديم القربان .. وكما سبق القول فإن أفضل ما يقدم من الأضاحي والقرابين هي الأغنام الجبلية = Ovis ammon] وفي المناطق التي لا توجد فيها فلا بديل عن الكباش . ومازال عند الآلتاى في تركستان الشرقية يطلقون على المراسم التي تجرى عند تقديم القربان إلى إله الأرض Yere Tayılga] مصطلح [إرسال الحيوان = Mal Kagıp yat = Hayvanı Gön derme] .

و قد جسَّدت فنون الترك هذه المراسم ، و الحيوانات التي كانت تقدم . و كان مـن المتعارف عليه لدى كل الأقوام التركية أن الخيول تُقدَّم إلى إله السماء أما خراف الجبال أو الكباش فتقدم إلى إله الأرض و التربة . و هذه المعتقدات كانت مرعيَّة بدقة لدى كل أتراك آورآسيا و إلى عهد قريب ، فإن بعض التجمعات التركية تُصر على أن يكون شاهد القبـر على شاكلة رأس كبش



شاهد قبر على شكل كبش وُجد في ناهجوان في آذربيجان يرجع إلى القرن ١٦



شاهد قبر على شكل جواد وجد في منطقة لاچين في آذربيجان يرجع إلى القرن ١٦



شاهد قبر على شكل حصان تم اكتشافه في منطقة ناهجوان في آذربيجان يرجع إلى القرن السابع عشر

لقد استنتج الباحثون من الحفريات التي ظهرت في آلتاى عام ١٩٣٩ م أنهم وجدوا في مقبرة ترجع إلى القرنين الثامن و العاشر جواداً مدفوناً مع الرجل ، بينما وجدوا مع المرأة كبشاً مدفوناً . و أن هذه الأعراف و المعتقدات كانت منطلقة من أنهم كانوا يدفنون معهم رموزاً للحيوانات التي كانوا يقدمونها إلى الآلهة .. و أن هذه الأعراف كانت متبعة بين الأويغور أيضاً .

و انطلاقاً من الدراسات التي تمت على الحفريات الأثرية التي ترجع إلى الهون ، وُجد أنهم كانوا كثيراً ما يقدمون الأغنام الجبلية أو الكباش إلى إله الأرض ، و ذلك لأن إله الأرض هو أكثر ما كان يخيفهم بين الآلهة و الأرواح الشريرة التي تعيش داخل حدوده .أما الخيول فقد كانت تُقَدَّم إلى إله السماء ، و لو تدبرنا الأمر من زاوية أهمية الحصان أو الخيل بصفة عامة بالنسبة للمجتمعات التركية و مدى احتياجها لها ، و أهميتها بالنسبة لهم لأدركنا لماذا كانوا يقدمونها قرباناً لإله السماء .. ففي اكتشافات الهون – و التي ترجع إلى الطبقة الأرستقراطية – و جدوا العديد بل المئات من جثث الخيول مدفونة معهم ، حيث كانوا يقدِّمونها إلى [گوك طانري = Gök Tanrı] أي إلى إله السماء . و لما كان [گوك طانري اولغن = Gök Tanrı Ölgen] هو رمز الخير، فقد كانوا يقدِّمون له أعداداً قليلة من القرابين ، بينما كانوا يقدمون أعداداً أكبر لآلهة العالم السفلي ، لكي يحموا أنفسهم من شرورها .. كما أنهم صنعوا الكثير من الأقنعة و الأدوات المستوحاة من قرون الكباش الجبلية كأدوات أو رُقى و طلاسم ضد الحسد و الأرواح الشريرة . و دخلت في العديد من الفنون ، و صنعوا لها التماثيل و استوحوها في العديد من أدواتهم و معدَّاتهم الحياتية اليومية

إن الفنون المتعلقة بالخيول و الكباش سواء أكانت من الجلود أو من الأخشاب أو من المعادن ظلت رائجة و مرعيَّة جداً فيما بين أتراك الغز و الآوار و اقيرغيز والقازاق والقراقالپاق و الچوواشيين و البلغار و التركمانيين مع فوارق قليلة جداً بين هذه المناطق وتلك . و استخدموها كعناصر زخرفية على العديد من الزخارف و النقوش والمنسوجات و بمقاييس حسابية دقيقة . و بتحويرات ملموسة . و كثيراً ما نصادف رسومات الكباش الجبلية على السجاد و الأكلمة و بكثرة ملفتة للنظر لدى التركمان بصفة خاصة و الأتراك بصفة عامة . كما كان أتراك أواسط آسيا قد اعتادوا أكل لحوم الأغنام الجبلية فقط في أول ليلة يظهر فيها الهلال في أول الشهر القمري .

ووفقاً لما تقدمه المصادر الصينية من معلومات فقد كان الهون يقومون بالمراسم و الاحتفالات في الخريف و عند اصفرار الأوراق و تساقطها ، بينمــا كـــانوا يحتفلـــون و يكررون هذه المراسم و الولائم و الاحتفالات مع اخضرار الطبيعة ومقدم الربيع .. ومـــن الطبيعي أن الشامان كانوا يقدمون الخيول و الأغنام الجبلية و الكباش كقرابين للآلهة خلال تلك الاحتفالات ؛ الخيول لإله السماء و الخراف و الكباش لآلهة الأرض كما سبقت الإشارة . و يمكن أن نلاحظ استمرار ما يُشبه هذه الاحتفالات فيما بين العديد من شـــعوب أواســـط آسيا حتى أيامنا الراهنة .

المبحث الخامس

فنون الهون ودول الترك القديمة

* - المدخل ..
* - ثقافة الفروسية ..
* - مولد طراز الفن الحيواني في آسيا الوسطى ...
* - السجاد عند الترك القدماء ...
* - خيام الرُحّل و مساكنهم ...
* - العائلة في مجتمع الترك ...

* - القمـــــــــــــــيز ...
* - القدور و الأقداح ...
* - الخاقان و الجيش ...
* - الوشـــــــــــم ...
* - الأحزمة ...
* - السهام ...
* - نمط المعيشة لدى الترك ...
* - شخصية الرعاة ...
* - ثقافة الخيل وفنونها ...

المبحث الخامس

فنون الهُون ودول الترك القديمة

المدخل :

منذ أمد بعيد ومؤرخو الفنون يشغلهم موضوع الفنون التركية .. و كان ذلك في المراحل التي لم تكن مناطق الترك قد فتحت أبوابها أمام الباحثين بعد . و لكن أصبحت مجاهل آسيا محل أنظار الباحثين . و لما كانت المنطقة شاسعة – كما رأينا – و سكنتها العديد من العشائر و القبائل و الأقوام و الشعوب و الأمم ، و قامت على أراضيها دولٌ و خاقانيات و إمبراطوريات متعددة و مترامية .. من هنا تعددت ثقافاتها و حضاراتها . و كان من الصعب أن نجد كتاباً أو عملاً بحثياً واحداً يُغطي هذا المجال الجديد والمتشعب الجوانب .

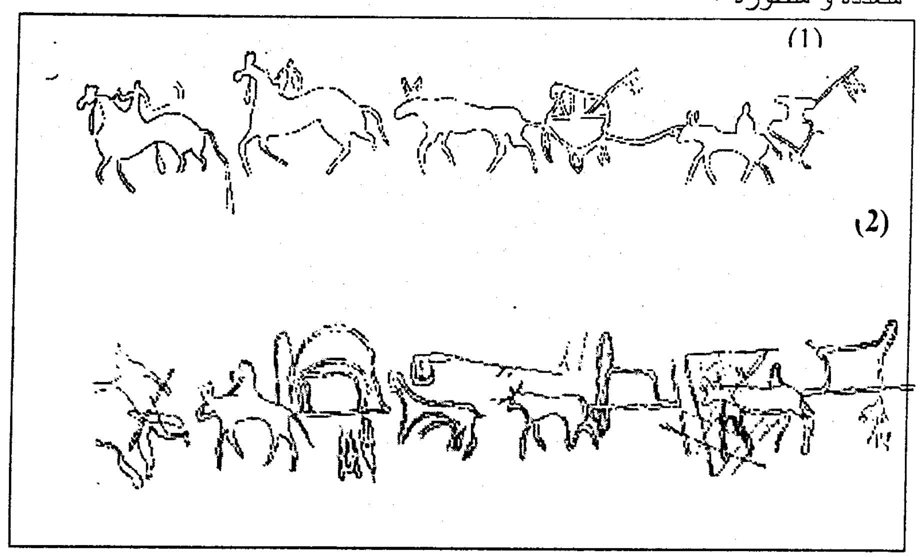
و لكن بعد أن تعددت الحفريات الأثرية .. و شملت معظم أواسط آسيا أصبح هناك كم هائل من المواد الفنيَّة التي تستحق الدارسة ؛ فمن الرسوم إلى التماثيل إلي الأدوات و المعدات التي كان سكان أواسط آسيا يستخدمونها في حياتهم اليومية وكانت مرتبطة بحياتهم الرعوية و ثقافة الخيل و الفروسية . و ما حرصوا عليه من زخرفتها و نقشها و حفظها ،لقد شهدت العقود و الأعوام بل لنقل : إن القرنين الماضيين شهدا زخماً كبيراً من بعثات الآثار السوفيتية في مناطق أواسط آسيا و أوراسيا ، و لكن على الرغم من هذه المساعي الحميدة – بسبب مصاعب النشر السوفيتية– لم يتمكن باحثو الغرب و الأتراك من الاستفادة منها بالشكل الكافي .

و بعد أن تسارعت جهود العلماء و مؤرخو الفنون الذين استفادوا من التقارير الأثرية السوفيتية من بين علماء الغرب ، و انضم إليهم بعض الباحثين من الأتراك أمثال عبدالقادر اينان (١٩٣٩ م) و ذكي وليدي طوغان (١٩٤٦ م) و جلال أسد آرسون و أوقطاى

أصلان آبا و بهاء الدين أو گل و أمل أسين أمكن الاستفادة من تقـارير هـذه الأبحـاث و اكتشافاتها في مناطق الهون و غيرهم ٠

و شكّلت هذه الدراسات أساساً طيباً أمكن الاعتماد عليه في وضع تصـور تـاريخي لعصور الفنون المختلفة للمجموعات البشرية التركية التي عاشت في أواسط آسيا ٠

و قد لاحظ مؤرخو الفنون الذين اهتموا بهذه المنطقة وجود نمطين متضادين لثقافتين مختلفتين ، أولاهما ثقافة التنقل و الترحال و الحركة المستمرة للمجموعات البشرية التي تقطن الشمال بينما رصدوا على الأطراف المائية في الجنوب جماعات متوطنة و أصحاب حضارات متعددة و متطورة ٠



رسم (١ ، ٢) يبين اتراك رحل في حالة حركة مستمرة ، وُجد فوق حجارة في جنوب سيبريا، يتضح في القافلة قطعان الخيول ، الفرسان ، والمقاتلين ، و الخيام وآعلام ثلاثية الشرائح و في النهاية صورة طائر طوطمي ٠

و يعلل البعض أن السبب وراء ذلك أن المجتمعات الرعوية البدائية التي كانت تعيش في هذه البراري و الأصقاع بينما كانت تدير حياتها و تستمر في هذه المناطق ، كانت أحياناً

تهاجم بالجفاف المجحف الذي يأتي على الأخضر و اليابس مما يضطرهم إلى الرحيل بحثاً عن مرعى لقطعانهم .

و مع زيادة السكان ، و تكاثر الثروة الحيوانية في الوديان الصغيرة و الكبيرة بدأ الرعاة يتوجهون إلى [البوزقير] الاستبس لرعي قطعانهم الكبيرة ، فبينما كان قلة ممن تعرفوا على الزراعة يبقون في الوديان التي خبروها باحثين لقطعانهم عن مرعى فيها فإننا لم نكد نصل إلى القرن العاشر قبل الميلاد حتى كانت المناطق هذه شبه مسكونة .. و بدأت الجماعات تهتم بقطعان الخيول و تربيتها و تنميتها . و حتى و إن حافظت هذه التجمعات على حياة الصيد و الزراعة ، فإنها كانت قد اكتسبت مهارة وأهمية كبرى في تربية الخيول و قطعان الأغنام و تنميتها .

و كان التغير المستمر الذي يحدث في الوضع الاقتصادي يؤثر بدوره على ثقافاتهم . و كانت فنونهم بالطبع تُصبح نتيجة طبيعية لهذا الوضع الاقتصادي المختلط. و طالما أن قوتهم البدنية كانت تُساعدهم ، فلم يكن أي تجمع منهم يمتنع عن الرحيل والانتقال إلى منطقة أخرى أكثر جاذبية و موائمة .

و كما هو واضح ؛ فإن الترحال و التنقل كان وضعاً طبيعياً قد تولد عن هذا الوضع الاقتصادي المتقلب ، و تطور تحت تأثيره . و فيما بين هذا التطور المحدود كانت تترائى أيضاً التأثيرات الحضارية للمجتمعات المتوطنة التي كانت تجاورها . ولكن هذا التأثير لم يكن أُحادي الجانب أو في اتجاه واحد ، بل كان هناك تبادل و أخذ وعطاء ثقافي . و يمكن التذكير باحتكاك الإسكيت بحضارة البحر الأبيض و علاقة الرحّل القاطنين في الجنوب و الغرب بالهند و إيران . كما لا يجب أن نغفل التأثير الصيني على أعماق آسيا ، و كذلك الهجمات و الموجات الاستيطانية التي قام بها الأتراك القدماء على القارة الصينية و إنشاء أوطان لهم هنالك ، استطاعوا أن يحافظوا فيها على تراثهم الثقافي و الفني . ومع هذا .. فإن تشكيلات إمبراطورية الهون قد نجحت في تطوير الثقافات البدائية المتعددة التي كانت تعيش بين جنباتها ، و أن تطوير ثقافة الفروسية أي الثقافة المعتمدة على الخيل ، و تـؤمّن بذلك ظهور فن أواسط آسيا الأصلي. ورويداً .. رويداً نجح هذا الوسط الاجتماعي في خلق ثقافة جمالية .. و كما أن هناك مقولة : " فن مملكة الطير = Kuşhan Sanatı " فقد ظهرت كذلك

مقولة " الفن في الطراز الحيواني لأواسـط آسـيا = Orta Asya Hayvan Uslübunda Sanat " بدأ هذا الأسلوب يتأثر و يُؤثر فيما حوله من ثقافات . و حافظ الترك على البقايا البدائية لآسيا و تأثروا بتشكيلات أول إمبراطورية مرتحلة على وجه الكـرة الأرضـية ، و أعدّوا بذلك الأرضية اللازمة لفن متعدد الوجوه و متنوع الإنتاج .. ورويداً ..رويـداً ومـع مرور الزمن بدأ هذا الفن يخرج من آسيا و أواسطها لكي يُؤثر فيما حوله ، و إذا كان الـذين اتجهوا إلى الغرب قد أثروا في الزخارف و التلوين الأوربي ، فإن الذين اتجهوا نحو الجنوب كان لهم تأثيرهم الواضح في الفنون الإسلامية و تكفي الإشارة إلى " سامراء " و فن وعمارة الطولونيين و الغزنوين والسلاجـقة .. يُرجع مؤرخو الفنون بدايات ثقافات أواسط آسيا إلـى ما يقرب من خمسة آلاف سنة قبل الميلاد المجيد . في هذه الأزمنة غطت الثلوج أواسط آسيا ، وتكونت المستنقعات والبحيرات ، و ظهرت الغابات الشاسـعة .. ثـم تحسـن المنـاخ .. واستطاع الذين يعيشـون فـي سـيبريا أن ينحتـوا الصـخر ، و يتـابعوا حيـاة العصـر الـ[Mezolitik]= الحجري ، و يتعيشون على صيد الطير و الأسماك و استأنسوا صـغار الخيول ، و تعلموا كيفية الاستفادة من النباتات و الفواكه .

و انتشرت ثقافة الحجر المصقول في أواسط آسيا من منغوليا حتـى شـواطئ بحـر الخزر . و من المعتقد أن هذه الثقافة قد تطورت في التركستان الشرقية و في بـلاد المغـول لأول مرة فيما بين القرنين الخامس و الثاني قبل الميلاد .

أما في تركستان الغربية ؛ فإن منطقة آناو = Anav الواقعة بالقرب من " عشق آباد " من المعتقد أنها هي التي احتضنت ثقافة آسيا الداخلية ، و يقسمون هذه الثقافة إلى أربع مراحل ؛ المرحلة الأولى تبدأ في ٤٥٠٠ ق . م أما المرحلة الرابعة التي تجسد آخر العصور ، فإنها تصل إلى القرن الأول ق . م . و ما زالت الحفريات تقدم لنا الدلائل على أن هذه المناطق قد عرفت هي الأخرى المراحل الأولى من التطور الحضاري .

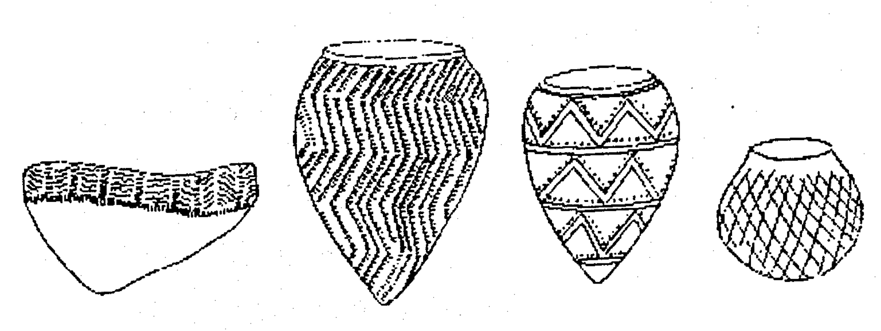
وبصفة عامة ، فإن بعض التجمعات البشرية في أعماق آسيا قد بدأت في الزراعـة و تربية الحيوانات . و اضطروا إلى تغيير نمط حياتهم الاجتماعي . هذه التجمعات التي عرفت الغزل و النسيج ، بدأت تصنع أيضاً بعض الأواني من الطين والفخار الذي اكتسب أهمية فيما بينهم . و استطاعوا أن يدهنوا داخل أدواتهم تلك التي صنعوها من الطين بـاللون الأسـود ،

بينما جعلوا خارجها باللون الأحمر . و يتضح التأثير الصيني و جنوب بلاد المغول في استخدام اللون الأحمر و الأسود على الفخار المسوّي . و كذلك أدوات الزينة النسائية المصنوعة أيضاً من الفخار الملوّن قد بدأتْ تُبدي عن نفسها .

و في دلتا نهر آموداريا في الجنوب و بخاصة في خارزم بدأت في حوالي الألف الثالث قبل الميلاد تظهر مرحلة ثقافية أو حضارية جديدة أطلقوا عليها [ثقافة Kelteminar Kültürü] و بهذه الثقافة بدأت التيارات الحضارية المبكرة لخارزم . وكان لمزارعي آنوا Anva الذين كانوا يعملون بالنسيج و بصناعة الفخار الأحمر والأسود بالقرب من " عشق آباد " دورٌ مهمّ في هذا الصدد .

أثبت الباحثون ؛ أن هناك تشابهاً كبيراً بين ما استخرج من هذه المناطق من الأدوات الفخارية و تلك التي وجدت في مناطق قانصو Kansu و خونان " Honan " في الصين ، و تلك التي ظهرت في أوكرانيا أيضاً .

وفيما بين الألف الثالث قبل الميلاد و حتى ١٧٠٠ ق . م ظهر العصر الذي يطلقون عليه [آفاناسيووو] أي دور Afanasievo في مجاهل سيبريا . وتُقدِّم هذه المنطقة في هذه الفترة أهم النماذج المتعلقة بالعصر البرونزى في سيبريا . و قد تركزت أيضاً في حوض نهر ينيسى . و كل ما وصل إلى أيدي الباحثين عن هذا العصر هو مقابره ، و فخاره البسيط الأحمر أو الأبيض بأحزمة بسيطة . و هو كبير الشبه بما وجد في آناو Anav و سيالق Sialk و صوص في إيران



فخار عن العصر النيوليتيك و الذي يعبر عن ثقافة كلتمنار و آفاناسيوا



[فخار عن العصر البرونزي ويعبر عن ثقافة آندرونوڤا و القراصوق]

و فيما بين ١٧٠٠ – ١٢٠٠ ق .م بدأت في سيبريا أيضاً مرحلة ثقافية جديدة ، تسمت باسم مدينة آندرونوڤــو Andronovo في حوض نهر ينيسى في قازاقستان كســابقه . و كانت هذه المرحلة تُعبر عن ثقافة الإنسان المحارب الصَّياد . ولقد انتشرت في ساحات شاسعة في غرب سيبريا . و تم العثور على مــواد نُحاسـية مشــكَّلة و مصــنَّعة ضــمن أطــلال آندرونوڤــو .و ظهر في هذا العصر مجموعة مقابر مغطاة بلوحات حجرية .

المنتسبون إلى هذه المرحلة الحضارية قد وصلوا إلى فترة الهون في آلتــاي وجبــال طانري ، بل وصلوا حتى إلى عصر الگوك تورك .وقد أطلق عليهم الباحث التركي الدكتور بهاء الدين أوگــل Ogel " ما قبل الجنس التركي " . و قد ظهرت اكتشافات شواهد قبــور كبيرة تُعبر عن أرستقراطية عظيمة في نهاية هذا العصــر . وبظهــور ثقافــة قراصــوق "

Karasuk " بالقرب من ينيسى ينتهي عصر آندرونوفــو ، و لكن هذه المرحلة الثقافيــة تتابع مسيرتها لمدة أخرى في المناطق الآلطائية .

و من ثم ظهرت في الاستبس جماعات عرقية بدأنا نراها مرتبطة بثقافة الفروسـية و حضارتها ؛ فبين أيدي الباحثين الآن مقابر هذه الثقافة و حضارتها قـد حملـت اسـم نهـر قاراصوق = Karasuk أحد فروع نهر ينيسى ، حيث يعيش أجداد القيرغيز الأتراك أو لنقل الأتراك القيرغيزيين ؛و هي أكثر من مقابر المرحلة السابقة. و هذا يدل على زيادة السكان . من بين هذه المقابر مقابر مغلقة بلوحات حجرية ، بعضٌ من الموتى الموجـودين فـي هـذه المقابر وُجد ممداً و البعض الآخر وُجِد مكوَّماً، بينما وجدت رفات البعض الثالث ممـا يـدل على أنهم قد أُحرقوا ..

إلى جوار المقابر تم اكتشاف رؤوس سهام وقامات محَفْوُرة ذات وجوه بشرية محوَّرة . و كانوا مايزالون يستخدمون البرونز أو النحاس كمعادن . إن البراري الجليدية لهذه المرحلة قد عرفت الإدارة الاتحادية للرحل . و أن الوحدة الإدارية كانت سائدة آنذاك .

إن ثقافة الفروسية وحضارتها قد سادت في منطقة " مِينُوسينْسـك Minussinsk " وحول بحيرة طاغار Tagar و جزيرتها ، أما في المناطق الآلطائية فقد حملت اسم مايامير " Mayemir " .و خلال هذا العصر بدأت تظهـر أقـوام تحمـل أسـماء " صـاقا Saka " و"الإسكيت İskit " في براري . پـونتيك و لقد ظهر وتطور " الطراز الحيواني " في فنون صاقا و الهون الذي اشتهر جداً في المناطق الآلتائية و جبال طانري وفي ثقافة قاراصوق التي سبقت ثقافة مايامير . فالإسكيت الذي يعيشون في جنوب روسيا قد خضعوا للتأثيرات العميقة لهذا الطراز . و لقد تمكن الباحثون من إبراز التشابه الكبير فيما بـين آثـار الإسـكيتيين و الاكتشافات الأثرية في المناطق الآلتائية و اشتراكها في كثير من الجوانب . و نحن نعرف من كتابات المؤرخ القديم هيرودوت أن الذين كانوا على رأس إدارة الإسكيت قد جاءوا من الشرق و أن المكتشفات الأثرية الحديثة و ما تم عليها من دراسات أكدت ذلك . حيث أثبتت دراسات كل من [روستُوڤـزيف Rostovzpff] و[باروڤـكاBarovka] الروسيان أن الطراز الحيواني في الفن و أُسلوبه قد خرج من المناطق الآلطائية ثم انتشر فيما بعد بين الإسـكيت

الذين يعيشون في الغرب و أن الأقوام التي عاشت في هذه المناطق قد لعبت دور الوساطة بين الفنون الصينية و الإيرانية في تلك الحُقب التاريخية ..

شهدت تلك الحُقب أيضاً تطوراً و انتشاراً كبيراً لتربية الحيوانات ، فبعد القرن السابع ق . م و الحفريات الأثرية تستخرج العديد من جثث الحيوانات التي كانت مدفونة مع الموتى المهمين ، و تم إثبات ما يزيد عن أربعمائة جثة قد تم استخراجها من حفريات ترجع للطبقة الأرستقراطية في القرن السادس ق . م.و لما كانت المعـدَّات و الأدوات المسـتخرَجة مـن الحفريات كانت في أحجام يمكن حملها ، فقد استنتج الباحثون أنها كانت تعود إلى قـوم مـن الرحَّل . كما أكَّدت هذه الاستنتاجات أن الوحدة الإدارية التي شهدتها هذه المناطق قد ظهـرت على أيدي الـ " هيونج – نو " أي الهون الذين كوَّنوا إمبراطورية شاسعة كما سبق القول .

مولد طراز الفن الحيواني في آسيا الوسطى :

من الثابت أن هذا الأسلوب الفني لم يظهر من فراغ في أواسط آسيا ، بل سبقه مراحل بدائية انطلقت أيضاً من المعتقدات الدينية البدائية التي كانت سائدة بين سكان هـذه البـراري الجليدية الشاسعة . ورغم بدائية هذه المعتقدات فإنهم كانوا مرتبطين بها ارتباطاً كبيـراً .. و كانوا يعتقدون أنهم لكي يصلوا إلى هذه القيم الدينية أي الروحية فلابد من السحر و الطلاسـم .. ولم يكونوا قد أدركوا الدور الذي يمكن أن يلعبه الساحر = القام أو الشامان في هذا الصدد . و لم يكن الشامان أنفسهم قد أدركوا مدى انتشار هذه المعتقدات فيمـا بيـنهم . إلاَّ أن قلـة الرزق و الجوع و عدم النوم جعل المواطنين يظنون أن بإمكان الشامان أن يلعب دوراً فـي راحتهم و توفير الطعام لهم ، بل و في الحل المناسب لكل ما يقابلهم من آلام أو مشاكل .. و أن لدى الساحر البدائي أي الشامان طلسماً وسحراً لكل ما يواجهه .. و يكفيه أن يصل إلـى يديه أي شيء يخص عدو الشاكي أو المتألم .. و كان الشامان يضع ذلك في إطار من الشكل الطلسمي ، وإذا ما طُلبت منه العكس .. أي إفساد أثر السحر أو الطلسم المضاد و الذي كـان قد أخذ شكلاً معيناً كقطعة نسيج أو ما شابه ذلك و كانت عملية القضاء على هذا الأثر الضار تتم وسط مراسم دينية محددة . و من هنا كان الأهالي يعتقدون في قوة السـحر وعناصـره الخارقة للطبيعة . و أن هذه القوة يمكن أن تُسبب الضرر للأعداء . إن السحر الذي يُخاطب الأحاسيس و المشاعر قد لعب دوراً مهماً – منذ البداية و حتى اليوم – في حياة الصـيادين ؛

فبعض المجتمعات البدائية كانت تُعلق على مساكنها عظام فك ظبي أو خنزير بري ، ظانين أن الروح الكامنة في العظام سوف تجذب إليها الأحياء . و تَلَقّي مثل هذا .. قد لعب دوراً مهماً في نشأة طراز الفن الحيواني في أعماق آسيا ،و أكسبه بعداً أصليا . وطرح بعض الباحثين نظرية : [إن العظام قد نعبت دوراً مهماً في ظهور طراز الفن الحيواني لأول مرة]. و أثبتت الأبحاث الأثرية هذا الطرح .

و من السحر الذي يخاطب المشاعر ، وبسبب المثل التي تعكس هذا الفكر ، كان البدوي المرتحل يعتقد بانتقال التصرفات الخاصة بالحيوان إلى الإنسان . فمثلا ، لو أن حيوانا مفترساً قضى على قطيع الراعي ، و إذا بذل الراعي جهداً كبيراً في إنقاذ نفسه وروحه في هذا الحدث ، فإنه يصنع شكلاً أو نمطاً لهذا الحيوان المفترس ، ويحمله معه . ربما لأنه كان يريد أن يرى عدوه وجهاً لوجه ، و في نفس الوقت ربما كان يتمنى أن تنتقل قوة هذا الحيوان و قدرته إليه . كما كان الإنسان البدائي يعتقد أن تأثير السحر سينتقل إلى هيئة الحيوان و من هذا المنطق ، فإن هؤلاء الناس كانوا يعلقون و يرتدون أقنعة حيوانية .. و يُعتبر قيامهم بأداء المراسم الراقصة بهذه الأقنعة أول تصرف فني .

و كما رأينا في الأساطير و السير و الملاحم التي أشرنا إليها في سياق هذه الدراسة ، فإن الأبطال كانت لهم أدوارهم مع السحرة الذين كانوا يتقمصون هيئة الطير أو الحيوانات . و كما كان الأبطال يقاومون السحرة ، فإن السحرة كانوا يكيدون للأبطال ، و يطارد بعضهم بعضاً .. هذه المطاردة .. تكررت بشكل ملحوظ في فنون الهون .

و قد تكررت أيضاً في أحلك الفترات التي ينجح فيها الصياد في التضييق على صيده . كما هو مشاهد في الصور التالية و التي ستُعرض خلال هذا المبحث .

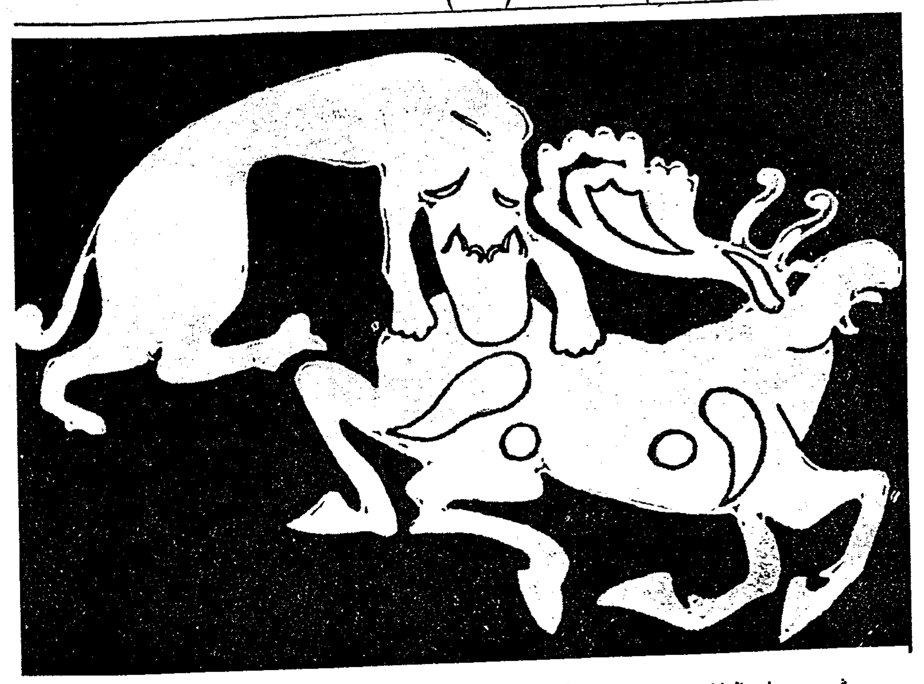
كما كان إنسان هذا العصر يُؤله السمات و الصفات و التصرفات التي كانت تعجبه أو يتمناها . إنهم كانوا يواجهون بآلاف المخاطر و الأهوال في هذه البراري الشاسعة . و كان عليهم أن يكونوا سريعي الحركة و شديدي القوة للتغلب على هذه المخاطر و الميالك : إما بالوقاية منها أو تعقبها للتخلص منها .. أو تأليهها لكفّ خطرها .

إن استلهام النموذج أو الموديل من الحيوانات أو الطيور لمحاكاة هياكلها كان شائعاً . القدر الواسع في آسيا و بخاصة في مناطق أواسطها .. و قد استخدمها الهون رمزاً للحرب .

ومما لا شك فيه أن تأثير " الطراز الحيواني " الذي أوصلته العناصر التركية من حدود الصين إلى أواسط أُوروبا و الشرق الأوسط قد انتقل أيضاً إلى العديد من جيرانهم . و أنه كان من الموضوعات المحببة إلى نفوس الفنانين و الحرفيين والصنّاع داخل أعماق آسيا . إن طاقم الخيول المطهمة ، و الأغطية التي كانت توضح تحت السَرْج كانت كلها مزخرفة و منقوشة بالهياكل الحيوانية و الرسوم الحيوانية .



هيكل غزال قد تم حفره من الخشب و القرون . تم استخراجه من الحفرية الثانية في بازريق



مشهد صراع العقاب مع الغرفين الأسدى . وحدة زخرفية **فوق غطاء سرج مستخرج من حفريات آلتاي**



هجوم فهد على كبش جبلي فوق غطاء سرج مستخرج من حفريات جبال آلتاى



هجوم فهد أو نمر على كبش جبلي مستخرج من حفريات آلتاى وهو عبارة عن زخرفة مصنوعة من الجلد على غطاء سرج



مشهد صراع العقاب مع الغرفين الأسدى . وحدة زخرفية فوق غطاء سرج مستخرج من حفريات آلتاي

وكذلك التبطين الداخلي للخيام المصنوع من الوبر و السجاد و المنسوجات السميكة كانت هذه كلها مشغولة بمشاهد الصراع مع الحيوانات كما كان الفرسان و الخيَّالة يعلقون توكات مصنوعة من المعادن التي نُفِّذتْ " بطراز الحيوان " على الأحزمة الجلدية التي كانوا يتمنطقون بها .. هذه كلها كانت تجسيدٌ الحيوانات و الطيور التي كانوا يعايشونها في طول هذه البراري و عرضها . إن الهون الذين كانوا يعيشون تحت هذه الظروف المناخية القاسية كانوا أحياناً يصطادون هذه الحيوانات البرية المتوحشة ، و أحياناً أخرى كانوا يهربون منها

الطوطمية :(*)

ومما لا شك فيه أن هذا الفن كان يعكس أيضاً معتقداً .. و من الواضح أن هذا

(*)-الطوطمية هي الإغراق في عبادة الحيوانات و الطيور و النباتات ، و تُمثل قواها الخارقة في معظم مجتمعات العالم القديم .

و الملاحظ أن النظام الطوطمي لم يكن يستهدف التمثيل بالحيوانات القومية فقط ، بل هو يتمثله في تملكه لقدرة خارقة حرم منها الإنسان ؛ فالطائر يطير في جو السماء و على رأسه ريش ، كما أن الحيات والثعابين تمتلك قدرات الغوص في أعماق مياه البحار و المحيطات . إلى جانب قدرتها على تغيير جلدها وإطالة أعمارها بالإضافة لقدرات لدغقها القاتلة .

و هناك أقدم طوطمية تنتمي للأسماك و الحيتان التي تمتلك هي الأخرى الغوص في أعماق البحار والمحيطات و ما أكثر الأقوام و الكيانات و القبائل الطوطمية التي شهدها التاريخ . و ما أكثر الطواطم النباتية من نخل و جميز و عوسج و يقطين = القرع ...

إن مرد ذلك إن الحيوان و النبات يمدان الإنسان بطعامه ، و الاحتياج إلى الطعام يستوجب المكان أو الحمىَ أو الوطن وهو ما يتطلب الحماية و الأمن .

خلاصة القول أن الحيوان و النبات يُشكلان رابطة أو علاقة بين الإنسان البدائي و الطبيعة . لذا تحفل السير و الملاحم و حكايات و مأثورات الحيوان و النبات الطوطمية بأخص خصائص الحيوان أو الأشجار أو الزواحف المقدسة . فلقد كانت القبيلة و أسلافها و الأرض التي تعيش عليها ، وما يتحكم فيها من عوامل مناخية واجتماعية وحدة تنحدر من الطوطم السلف الأب ، سواء أكان حيّة أو نعامة أو حمامة أو كلباً أو جملاً أو جراداً أو ديدان أو بيضة أو حوتاً .

وطبعاً كان الحيوان الطوطم يدافع عن القبيلة ويحميها ، مثل هدهد سليمان و بلقيس ، وحادث تلصصهما أو تجسس أحدهما على الآخر .. و مازالت بعض الشعائر الطوطمية مثل الهلال و النسر رمزاً موحداً للعالم الإسلامي فيما بعد . انظر : دراسات في التراث الشعبي ، شوقي عبدالحكيم ، مكتبة الأسرة . مايو سنة ٢٠٠٥ .

المعتقد لم يكن سوى " الطوطمية(*) " و كانت موضوعاتها تختلف من جنس إلى آخر ومن شعب إلى آخر ، و تُعبِّر عن نفسها في مظاهر مختلفة . كانت هذه العقيدة التي أطلقـوا عليهـا " طـوتم Totem " مبنية في الأساس على عبادة الأجداد ، و الإيمان
بمجموعة من الأشياء التي تبدو نتيجة لذلك ، فمثلاً كانوا يعتقدون في مخلوقات نصفها إنسان و نصفها حيوان ، أو مخلوق نصفه إنسان و نصفه نبـات ، أو يعتقـدون فـي مخلوقات خيالية ووهمية ، أو يؤمنون بعقيدة فحواها هي ظهور خليط مـن الإنـسان والخيول . و هي تلك العقيدة التي يسمونها بالطوطمية = " Totemizm " .

إن ملحمة أوغوز قاغان كانت تصوره على أنه إنسان يحمل الكثير من السمات و الصفات الحيوانية ؛ فحسب هذه الأسطورة ، فإن أغوز قاغان لم يحتج إلى لبن أُمـه ولم يشعر بأي احتياج له فيما بعد ، بل طلب حساء لحم غير مسوَّى و شراباً ، و أنـه بدأ في التكلم و التحدث فوراً ، و أنه بدأ في السير ولم يصل عمره إلى أربعين يومـاً بعد ، كانت سيقانه سيقان ثور ، و كفليه كفلي ذئب و أما أكتافه فقد كانت تُشبه أكتـاف الدُّب . و جسمه مغطى بشعر كثيف .

ووفقاً للمصادر الصينية ، فإن الجد الأول لـ [الـگوك تورك] كـان ذئبـاً صاحب خواص خارقة للعادة . كان لهذا الذئب زوجتان ؛ كانتا ابنتي إله السماء و إله الأرض ، يُرزق من ابنته الأولى بأربعة أولاد ذكور ، أحدهما كان بجعة .

و حسب أسطورة أخرى ترى أن أعداء الهون قد قضوا على مجتمـع الهـون تماماً و لم ينج إلاَّ طفل في العاشرة من عمره ، مقطوع الذراعيين و الساقين ، فتجـره ذئبة إلى مغارة و تتولى إرضاعه و تغذيته . و في النهاية تتحد الذئبـة مـع الطفـل وتعاشره . من ناحية أُخرى يعلم الأعداء بوجود الطفل الذي بقي على قيد الحياة فيأتون و يقضون عليه . و خلال هذه الأثناء تهرب الذئبة و تنجو بحياتها ، و تحتمي في واد محاط بالجبال من كل جانب . و هناك تلد أطفالها الذكور العشر الذين يمثلـون أجـداد الـگوك تورك .

وفقاً للأساطير ، فإن الذي أرشد أجداد الهون و هم حيارى و هـائمون علـى وجوههم في ممرات و معابر مايوتيس Maeotis إلى الطريق كان غزالاً مـسحوراً . وهذه الأسطورة مشهورة أيضاً بين الإسكيت . و من هنا تولدت الأهمية الخاصة التـي يوليها الأتراك للغزال.

هم و الإسكيت . و كان نتيجة ذلك العديد من التماثيل و الرسوم التي لا حصر لها و التي أبدعوها للغزال بشكل طبيعي أو محوَّر . و مازالت الزخارف المستوحاه من أُسطورة " الغزالة العسلية سائدة في مشغولات الأناضول .

مما لا شك فيه أن هذه الآثار الفنيَّة التي ظهرت كانت لها أهميتها القصوى عند الرُّحل حيث كانوا يعلقونها على الصواري المرفوعة وسط الخيـام ، و كـذلك علـى الأطواغ و الرايات الخاصة بهم . و أنهم كانوا يعلقون أيـضاً رؤوس الخيـول التـي أحبُّوها و التي كانوا يعتقدون أنها تحميهم ، إلى جانب ما تحمله من معتقدات طوطمية.

و مما لاشك فيه أيضاً أن هذه الأساطير هي التي أيقظت في خيال المجتمعـات التركية القديمة القدرة على صنع هذه التماثيل، و التي تُعتبر بدورها بداية لفن النحـت وإقامة الهياكل و التماثيل الفنية . وأشهر الأساطير التي ابتدعها الخيال الجمعي التركي هي أسطورة [أرغنه قون Ergene Kon] . و في هذه الأسطورة فإن الذي أرشـد الترك إلى طريق الخروج كان ذئباً .. و قد قام بنفس الدور الذي قـام بـه الغـزال . وهناك أسطورة أخرى تحكى عن أن تكاثر أجداد الـگوك تورك كان نتيجـة تكـاثر الذئاب ، بينما هناك أسطورة أخرى تجعل ظهور أجداد الـگوك تورك نتيجة لقاء بين الذئب و غزال أبيض في مغارة مقدسة . كل هذا يدل على أن الطوطمية قـد عاشـها الأتراك القدماء و أنهم يعتقدون في القدرات التي تكمن في الحيوانـات . و إن كانـت هناك الكثير من الشكوك حول هذا الطرح الفكري . و أنهم قد تجاوزوا هذه المرحلة ، و أن الگوك تورك كانوا يعيشون مرحلة الإله الواحد ، و أصبحت هذه حقيقة لا تقبـل الجدال . و لكن ما يمكن استخلاصه من مثل هذه الأساطير هو أن الهون و من بعدهم

الـكوك تورك قد عاشوا فترات طويلة تحت تأثيرها ، و أنهم كانوا يعطـون أهميـة كبيرة للذئب ، و أنهم كانوا يعلقون رأس هذا الذئب الأغبر فوق الدعامـة الوسـطى لخيمة الخاقان . بل و استمر هذا الاستخدام الرمزي في المنمنمات = " Minyetürler "(*) الإسلامية القديمة . و أن النقاش = الرسام المسلم قد انتقلت إليه هذه الموروثات

إن هياكل و رسوم الذئب أكثر ما نصادفها في الأزمنة القديمة كانـت بـشكل خاص لدى الهون الذين استخدموه بأشكال و أنماط متعددة على الأحزمة التـي كانـت تتدلى على خصورهم . و قد رسموه فوق توكات الأحزمة و رسموه فوق المعادن بشتى أنواعها ؛ سواء أكانت برونزية أو فضية أو ذهبية .

و كذلك صنعوه كزخارف على معدات الخيل و مقابض السيوف ، و بأشـكال مختلفة ، بعضها فرادي ، و البعض في شكل مجموعات . أو كمشاهد لحيوانات تطارد بعضها بعضاً ، أو يهاجم بعضها البعض الآخر . وقد استمر هذا التأثير حتى العـصر السلـجوقي .

كان من أهم خصائص ملابس هؤلاء القوم الرحّل هي تلك الأحزمة التي تتدلى حول خصورهم ، و المزدانة بتوكات منقوشة .

و كما هو معروف ، فإن شكل هذه الأحزمة كان يحمل ماهية ومنزلة رتبة ما بين الأتراك الرحّل في مناطق الاستبس هذه . و ظلت هذه الأحزمـة المتدليـة مـن الخصور عادة مرعية بين العديد من أقوام الترك مثل الكوك تورك و الأويغور

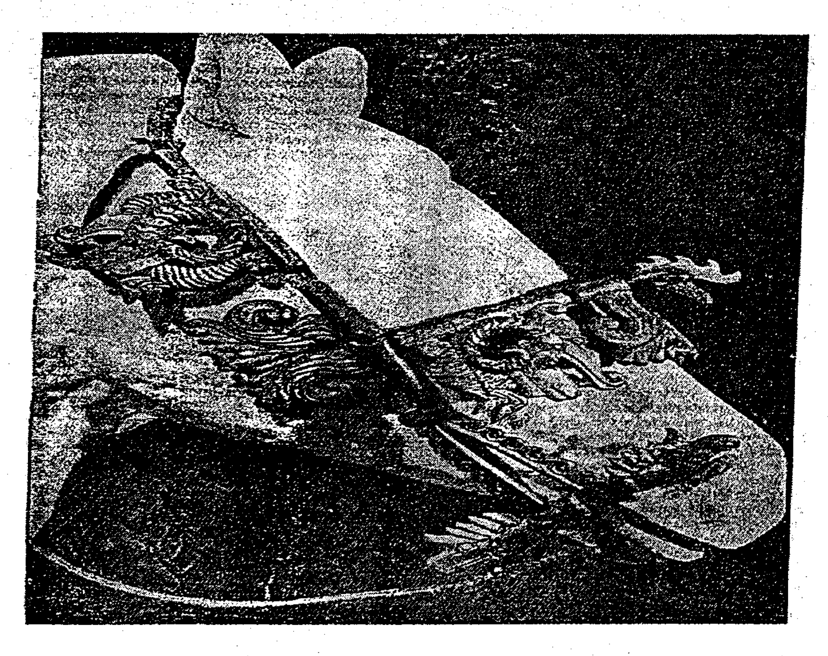
المنمنات = Minyetürs – المنياتور أو المنمنمات مصطلح فني يُستخدم للدلالة أو للتعبير عن الرسوم الدقيقة التـي تـتم بالألوان المائية بهدف زخرفة و تزيين المخطوطات ويُعبر عنه في الخطاب الفني الإسلامي بعبارة النقش وعلى = من يقوم به بعبارة نقّاش .و النقش أصبح يعني الرسم بالبويات . و النقاش هو الرسّام الذي يقوم برسم الصورة الدقيقة أو التبلوهات الطبيعية ، سواء أكانت للإنسان أو للطبيعة بكل عناصرها ، أو للعمليـات الجراحيـة أو المعارك الحربية . و في السنوات الأخيرة أطلق على هذا المصطلح باللغة العربية " منمنمات " للتعبير عن هذا الفن الدقيق انظر أ٠د / الصفصافي أحمد القطوري / أوراق تركية حول الثقافة و الحضارة الكتاب الثـاني – القاهرة – ٢٠٠٣ .

واستمرت حتى بين الغزنويين ، و حتى بين الأتراك الذين وصلوا إلى مركز أوروبـــا وحتى بين السلاچــقة كذلك تحت شروط عديدة ٠

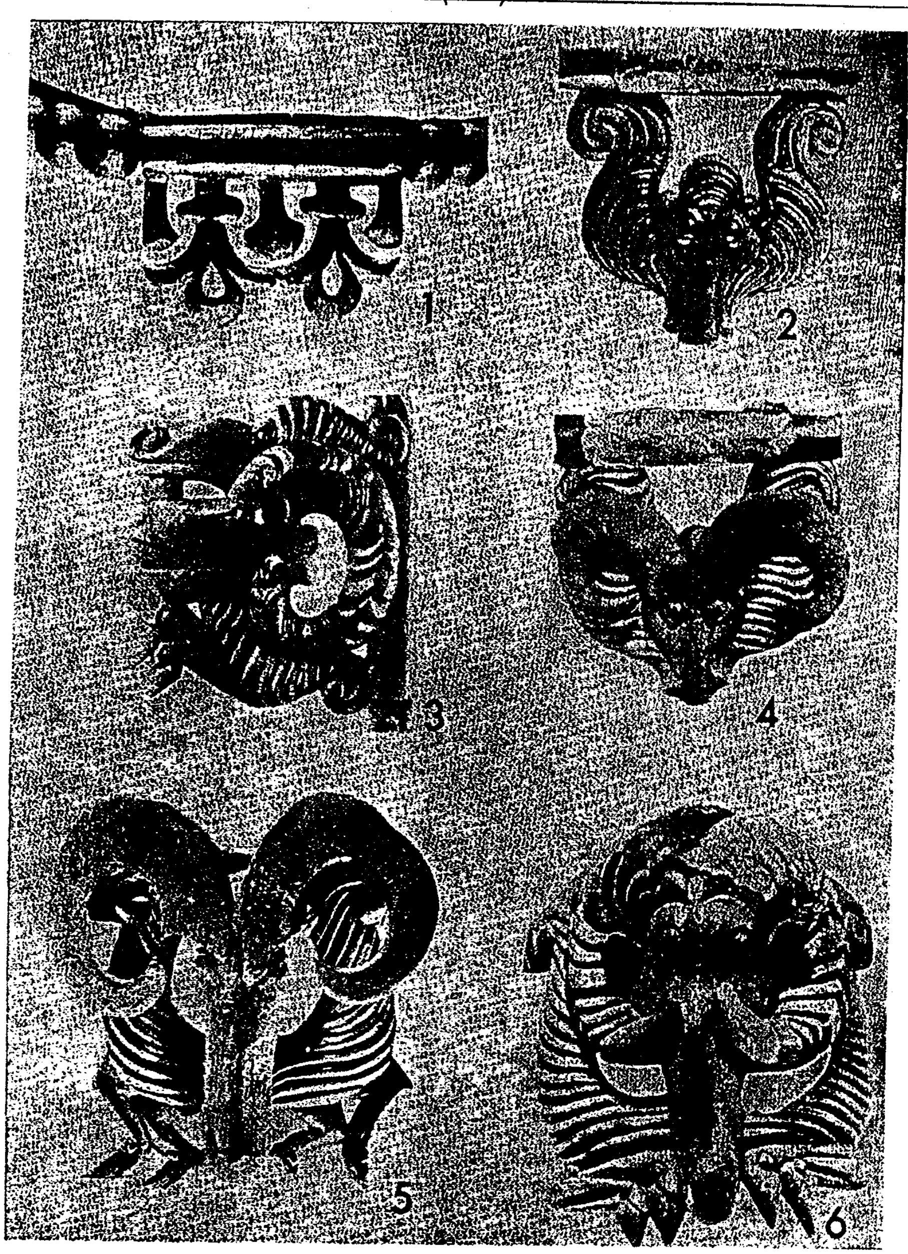
و كان هؤلاء الأتراك يتفننون في نقشه وزخرفته وفي وضع لوحات وتوكـــات تُعلق في الأحزمة من معادن مختلفة ٠

تطور الطراز الحيواني لدى الهون :

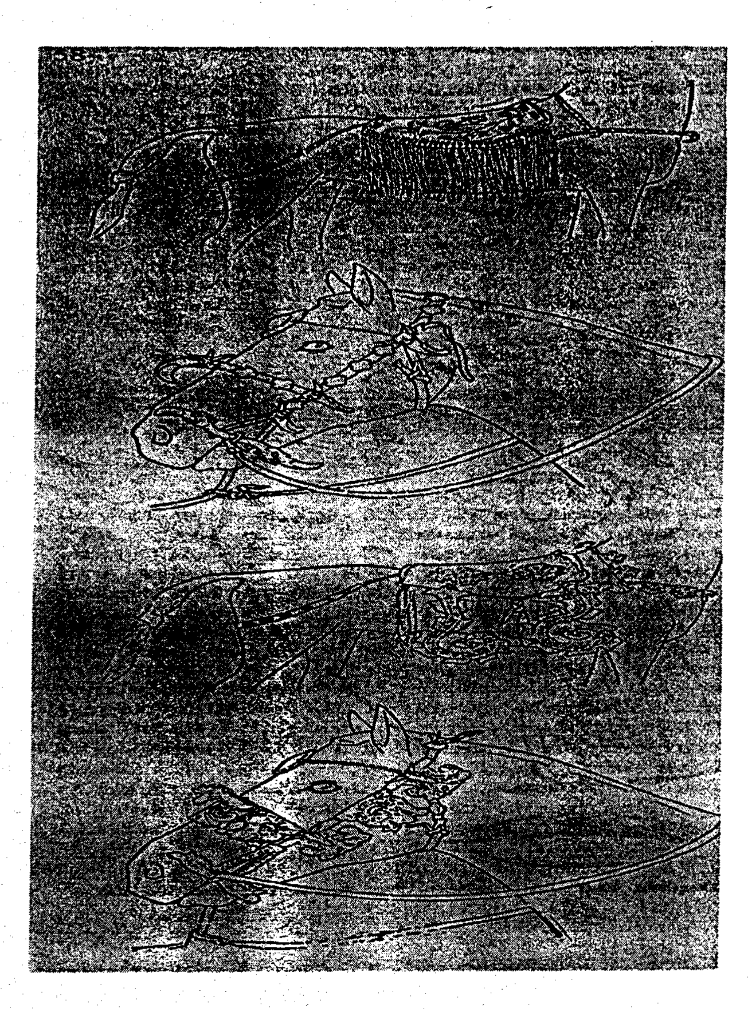
لقد ارتبط الهون بحيواناتهم ارتباطاً كبيراً منذ الفترات الضبابية التي عاشــوها في الاستبس ، و قد مكنهم هذا الارتباط من اكتساب معارف و علوم حول معيشة هــذه الحيوانات . و قد انعكس اهتمامهم هذا حيال الحيوانات على فنونهم و أدى إلى تطــور الأشكال الحيوانية في فنونهم . ورسموا ما أرادوا قوله على أعمالهم بمهــارة فائقــة ، وأظهروا نجاحاً أمكن أن يعكس واقعية مقنعة للموضوعات التي كانت في حركة دائمة فعلى النسيج ،و اللّباد و السيوف و المزارق و السكاكين و أطقم الخيل و أسرجتها ،

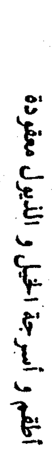


{ طقم لجام وزخارفه من الجلد و الخشب من حفريات پـازيريق الأولى }



{ زخارف أطقم عدة عربة الخيول .. مصنوعة من الخشب





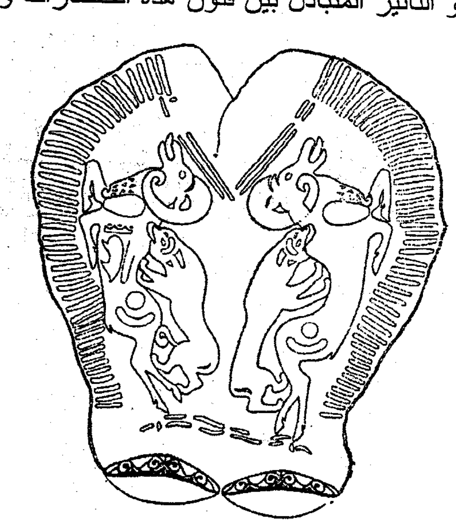
أطقم و أسرجة الخيل و الذيول معقودة

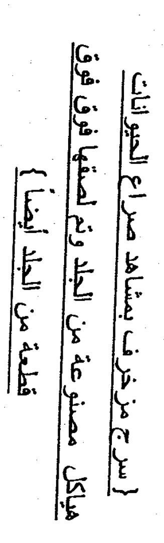
وعلى مقابض السيوف و على آذان المشارب و أبدانها ترى بوضوح أن الهياكل الحيوانية قد احتلت أماكنها بين هذه الفنون الأخرى . و زيَّن الفنان كل ما استحدثه من معَّدات و أدوات بالهياكل الحيوانية دون كلل ، و جعلوها من العناصر الزخرفية الدائمة على أدوات الحياة اليومية . و اهتم بها بخاصة على السرج و الأغطية التي

توضع تحت السرج و قد رسموا بمهارة فائقة و إبـداع طبيعـي و واقعـي حركـات الحيوانات المتصارعة ٠

إن الفنَّان الهوني قد أظهر ميلاً كبيراً للمشاهد التي تجسدها هجوم الحيوانـات المفترسة على الحيوانات الظِّلْفيَّة ؛ كالغزال و الظبي و الجـدي و الخـراف و البقـر ونادراً الجمال . و لم يمل تكرار هذه المفاهيم و المشاهد ٠

و لقد انتقلت مشاهد الصراع بين الحيوانات هذه حتى إلى الزخارف الجصّيـة و اللوحات الجدارية . و أثَّرت في فنون الحضارات المجاورة . و بخاصـة الحيثيـين والحضارات القديمة الأخرى في مناطق إيران و حتى الأناضول . بل إننا نرى تماثيل و هياكل حيوانية قد صُنِعت من سن الفيل و من العظم . و هناك العديد من هذه الهياكل التي ترجع إلى فنون روما و بيزنطة تزدان بها المتاحف التركية ، و لقد أشار مؤرخو الفن إلى وجود مثل هذا التأثير و بخاصة صراع الحيوانات على نمـاذج مـن الفـن الأرمني .. و مما لا شك فيه أن هذا التشابه يُنير الطريق أمام الباحثين لحسم عمليـة التأثر و التأثير المتبادل بين فنون هذه الحضارات وفنون آسيا ٠





{سرج مزخرف بمشاهد صراع الحيوانات هياكل مصنوعة من الجلد وتم لصقها فوق قطعة من الجلد أيضاً}

إن متحف الهرميتاج في لننجراد في روسيا الحالية مزدان بالكثير من هذه المشاهد على العديد من الآثار المستخرجة من حفريات جبال الآلتاي و التي تعود إلى الهون . بل إن الكثير من مشاهد الصراع هذه انتقلت من النسيج و المصنوعات الجلدية إلى الفنون المعدنية التي تعود إلى جنوب سيبريا . و مجموعة القيصر بـــترو الأول تحتوي على العديد من هذه الآثار المستخرجة من هذه الحفريات و المعروضة في المتحف المشار إليه .

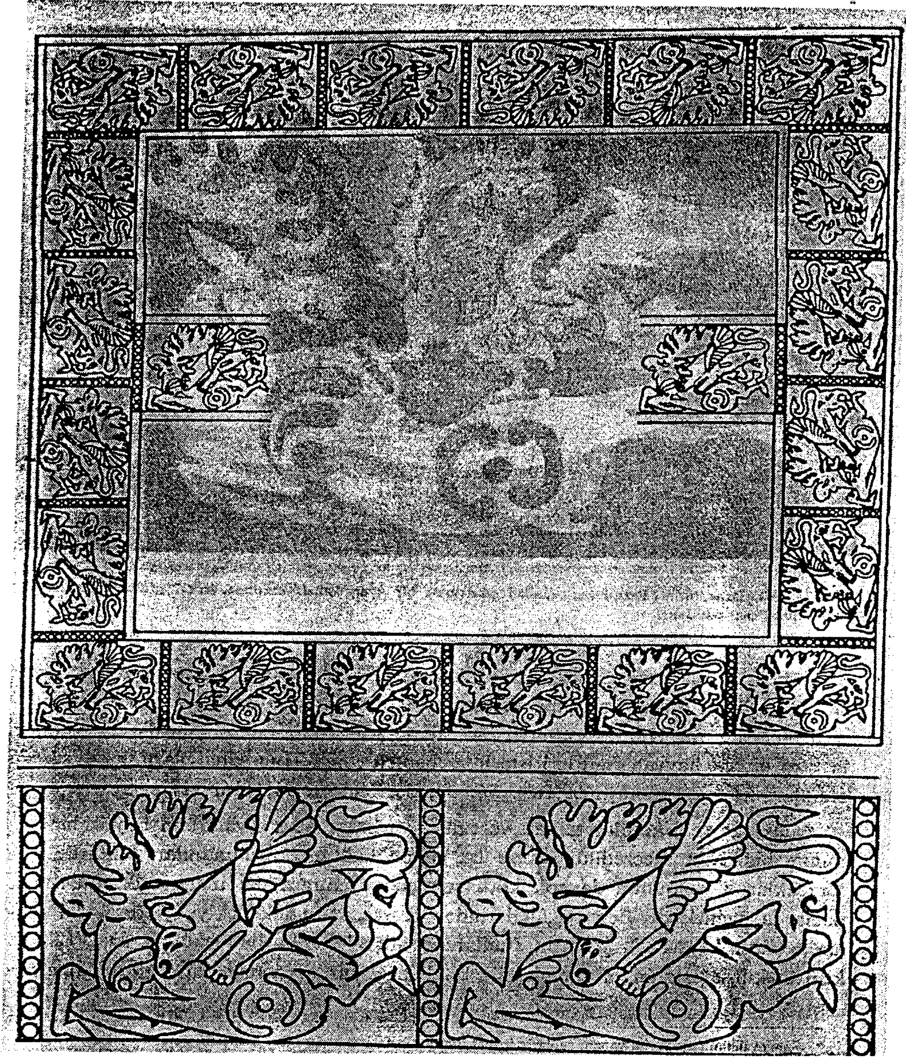
و عدا النسيج فإن مشاهد الصراع هذه قد انتقلت أيـضاً إلـى المـصنوعات الجلدية ، فمن بين المستخرجات التي وصلت إلى أيدي الباحثين مشهد أسد وهو يفترس جدي جبلي مرسومة على قطعة من الجلد .



مشهد يجسد صراع العقاب مع وعل جبلي

و إذا كانت هذه المشاهد تدور أحياناً بين الحيوانات المفترســة و الحيوانــات الأخرى الطبيعية ، فإن هناك مشاهد صراع تدور بين حيوانات خرافية كالغرفين وأبى

وأبى الهول = سفنكس و التي كانت معروفة في مناطق آسيا . و أحياناً بـــين حيـــوان خرافي وحيوان أليف .[انظر الصورة السابقة]



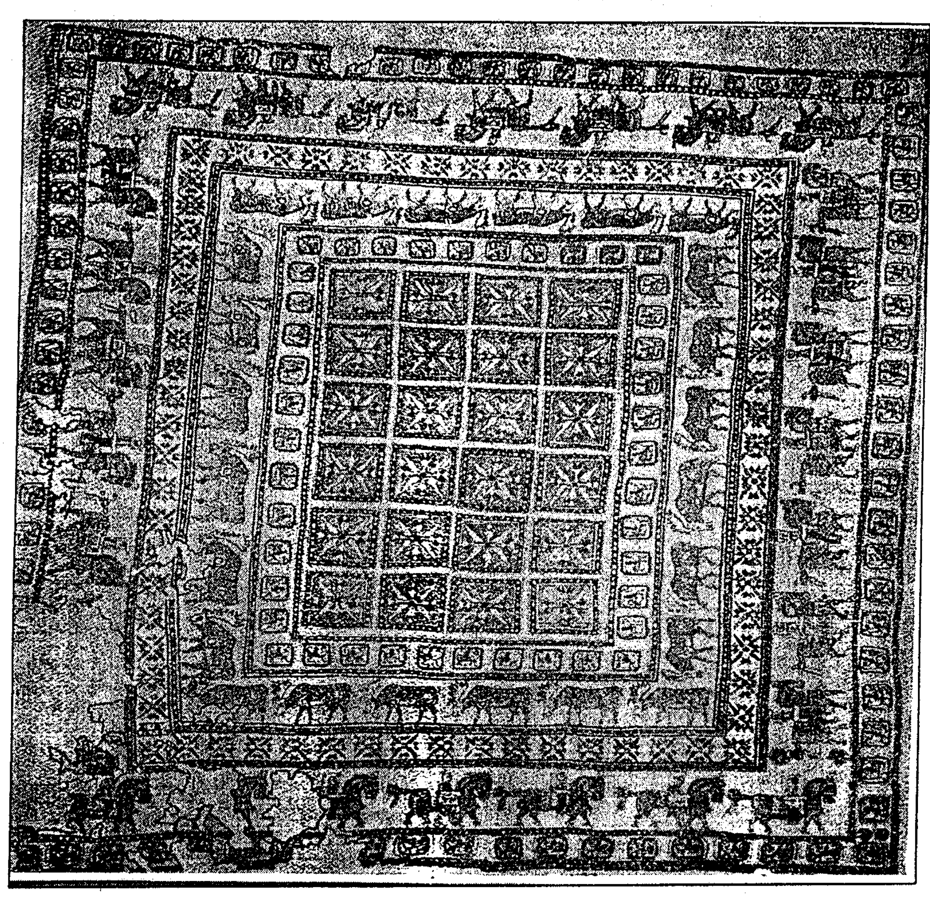
إطار لمفرش من الجلد يجسد هجوم

الغريفين على وعل جبلي " و أسفل تفصيل لوحدة زخرفية ".

و المدقق في هذه الصورَ و المشاهد يدرك أن الفنان في هذه المرحلة كان يدرك الفرق بين الحركة و المقاييس الطبيعية لهذه الحيوانات و الحركات والمقاييس
التحويرية . و أنه قد نجح في تطعيم خامة بخامة أخرى ، فقد وحَّد بين الجلد و المعدن في أطقم الخيل و الأحزمة ، و مزج بين النسيج و الجلد . كما كان يمكنه أن يصنع من الأخشاب و الأحجار و المعادن قطعاً فنية مستوحاه من الحيوانات الطبيعية أو الخرافية الأسطورية التي تعيش في نفس البيئة التي كان يعيش فيها .

السجاد عند الترك القدماء :

إن قطعة نسيج السجاد التي تم استخراجها من حفريات " پازيريــق pazırık " الخامسة في بلاد الآلتاي تُعتبر نموذجاً في غاية الأهمية من حيث التعريف بشكل وتقنية و طراز صناعة السجاد في أواسط آسيا •وصورتها هي التالية :



سجادة هونية مستخرجة من حفريات بازيريق الخامسة ٢م×١,٨٩. معروضة حالياًفي متحف الهرميتاج في لننجراد وهي أول سجادة منسوجة بعقدة [غردس] التركية . هذه السجادة بها ١,٢٥٠٠٠٠ مليون ومائتين وخمسين ألف عقدة •

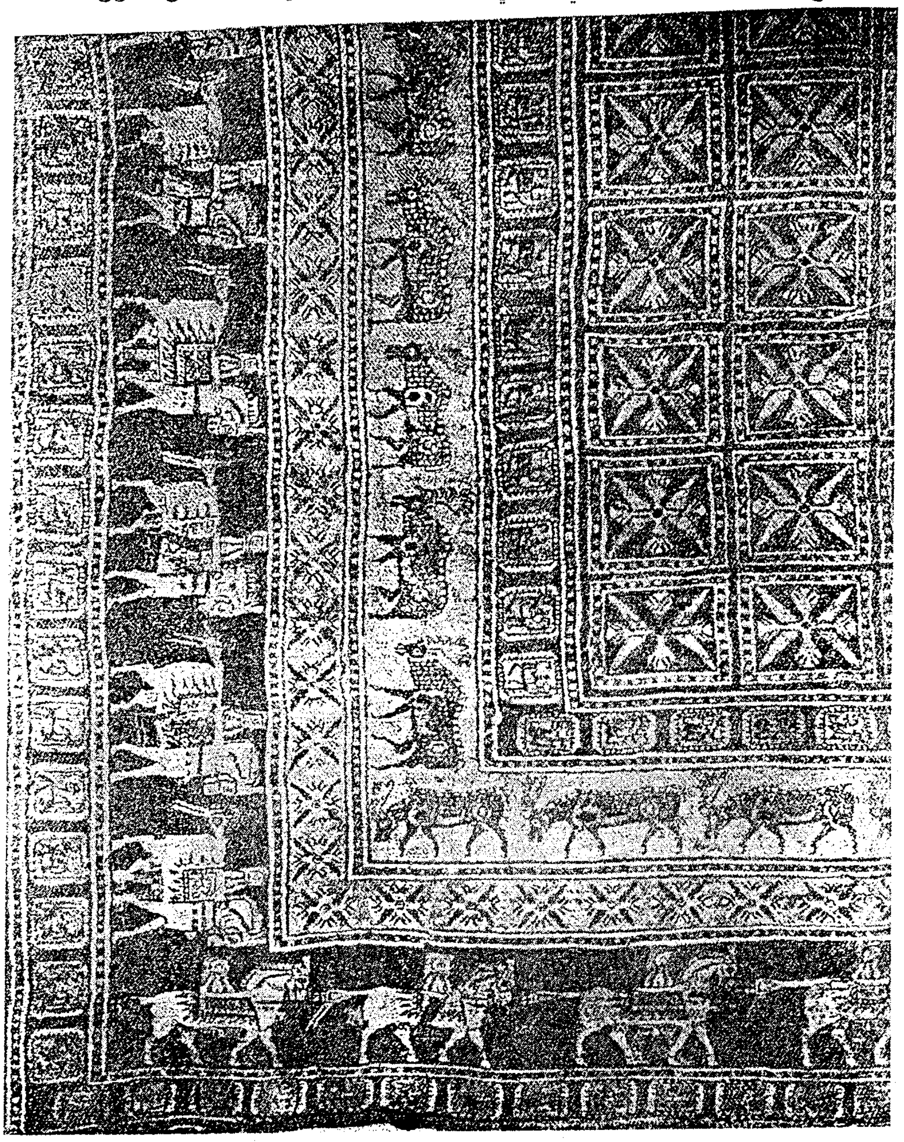
إن قطعة السجاد الهونية التي تم استخراجها من حفريات بازريق الخامسة هذه عبارة عن ٢٠٠ × ١,٨٩ سم و هي تُعتبر نقطة البداية في صناعة السجاد حيث نرى الفرسان و الغزلان و قد نُسجت شخوصهم بإتقان و إبداع رائع . و اتضح بعد دراستها من قبل الخبراء ، أنه لكي تكون صورة الفرسان و الغزلان واضحة ومفهومة فلابد من أن يكون في كل سنتيمتر واحد عدد ٣٦ عقدة ، معنى ذلك أن في كل متر مربع ٣٦٠ ألف عقدة تركية . و أن عدد العقد في هذه القطع ١,٢٥٠٠٠ أي مليون ومائتين وخمسين ألف عقدة . و يستفاد من ذلك أيضاً مدى دقة الصانع من ناحية ومدى رُفْعِ الخيوط التي تم استخدامها من ناحية أخرى . و أن سمك الخيط المستخدم لم يتعدَّ ٢ مم

إن هذه السجادة قد نُسجت من خيوط صوف الغنم . و بدون الدخول في تفاصيل النسج ، فهذه القطعة من السجاد مربعة تقريباً ، فأبعادها كما سبق الإشارة ٢٠٠ × ١,٨٩ سم . ثرية جداً من ناحية النقوش و الشخوص المنقوشة عليها . ومن ناحية التقنية و المفهوم الفني مقبولة و تامة و كاملة إلى حد ما . بحيث يمكن مضاهاتها بارتياح مع أبرع الأعمال الفنيَّة من هذا النوع و التي تعود إلى العصور القديمة . و لما كانت صناعتها رقيقة جداً فمن المحتمل أنها لم تُصنع لكي تكون سجادة أرضية بل من المحتمل أن تكون قد صنعت لكي توضع تحت السرج في مراسم معينة أو لكي تعلق على جدار الخيمة ٠

إن هذه السجادة تذكرّ جداً بسجاد بخاري و تركمان – تكَّه الذي يُصنع بحْرفيَّة عالية في النسيج وبرقة مستثناة و طراز و شكل بديع ٠

إن أقدم سجادة للبدو الرحَّل هذه تتكون من خمسة أشرطة ، اثنان أعرض من الثلاثة الأخر . أرضية وسط السجادة مقسمة إلى مقاسات متساوية كلوحة لعبة الداما . أُحيطت زواياها بإطار رفيع . داخل المربعات زخارف نباتية منقوشة على هيئة زهرة رباعية الأوراق على هيئة أنجم ، و في الشريط الرفيع الذي يحيط بالأرضية التي تُشبه

خشبة لعبة الداما تحتل سلسلة منقوشة بثلاثة ألوان ، وبجواره تماماً شريط واسع ويري فيه قطيع من الغزلان البرية التي ترعي وقد اتخذت اتجاهاً واحداً. انظر صورة السجاد



يتضح في الصورة شريط في الإطار الخارجي تبدو فيه الفرسان و هم يسيروم في اتجاه واحد

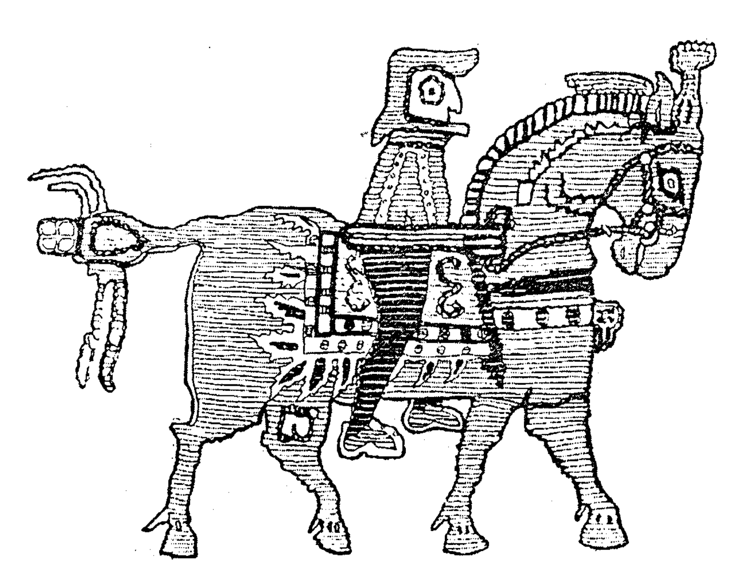
إن أقدم سجادة تركية في العالم والمعروضة في متحف الهرميتاج في لينجراد ذات أرضية باللون الأحمر ، أما النقوش النباتية التي تشاهد داخل المربعات الموجودة في الوسط فباللون الأصفر ٠ في هذه الزهور تري عروقاً زرقاء داكنة رفيعة وبقع بنيَة غامقة ٠ والشريط العريض الذي يعقب ذلك والمزدان بالظباء التي تتعقب بعضها بعضاً في حالة قطيع ؛ فقد رسمت بلون أزرق فاتح يميل إلي الرمادي ، أما أبدان الظباء فقد تم تلوينها باللون الأحمر ، ونقشت فوقها بقع صفراء ٠ القرون والعيــون والموتيفــات التي تأخذ شكل حدوة حصان وفاصله (؛) والذيول والحوافر فكلها باللون الأصــفر٠ علي كل جانب من جوانب السجادة يوجد ستة هياكل للظباء ، في الــشريطين اللــذين يُحيطان بالطرف الخارجي للسجادة وأرضية المركز قد استقرت هياكل أسود وغرافين مكررة داخل المربعات ٠

إن الغرفين قد أدار رأسه إلي الخلف ، ويُري لسانه من منقاره المفتــوح ٠ إن جمجمة هذا المخلوق الخيالي قد استقرت تماماً في مربع الذيل والجناح المنتصب٠

إن الغرافين التي رسمت باللون الأصفر تُشاهد فوق خلفية صفراء أيضاً ، وتم توضيح الرقبة وريش الأجنحة بالأزرق الداكن واللون الأبيض ٠ أما أعرض أشــرطة السجادة ، فهناك مشاة وخيَّالة يتبعون بعضهم بعضاً في اتجاه واحد وهم مــسرعون ٠ هذا الجمع الذي يأخذ شكل صف واحد يأخذ اتجاهاً مضاداً تماماً لاتجاه الظباء . وبينما نرى اثنين من المشاة و هما يسيران بجوار الفرسان الخيَّالة ، فنــرى بعــضهم و قــد امتطى صهوة جواده و يتبعون بعضهم بعضاً. الخيول جميعها تبدو قوية رصينة فــي سيرها ، و قد تم نسجهم في لون رمادي فاتح و لون يميل إلى الزرقة ، ذيــولهم مثــل ذيول الخيول المستخرجة من حفريات " بازيريق " معقودة٠

الخيول كلها ذات أعنَّة . و تم زخرفة بعض الأعنة أيضاً بلوحات زخرفية وتم وضع أغطية من اللَّباد فوق ظهور الخيل . و مع رؤية الــسرج فقــد وضــع ســجاد مزخرف على هيئة يمكن أن يُغطي صدر الجواد و نعل الفارس . وفوق هذه الطنافس

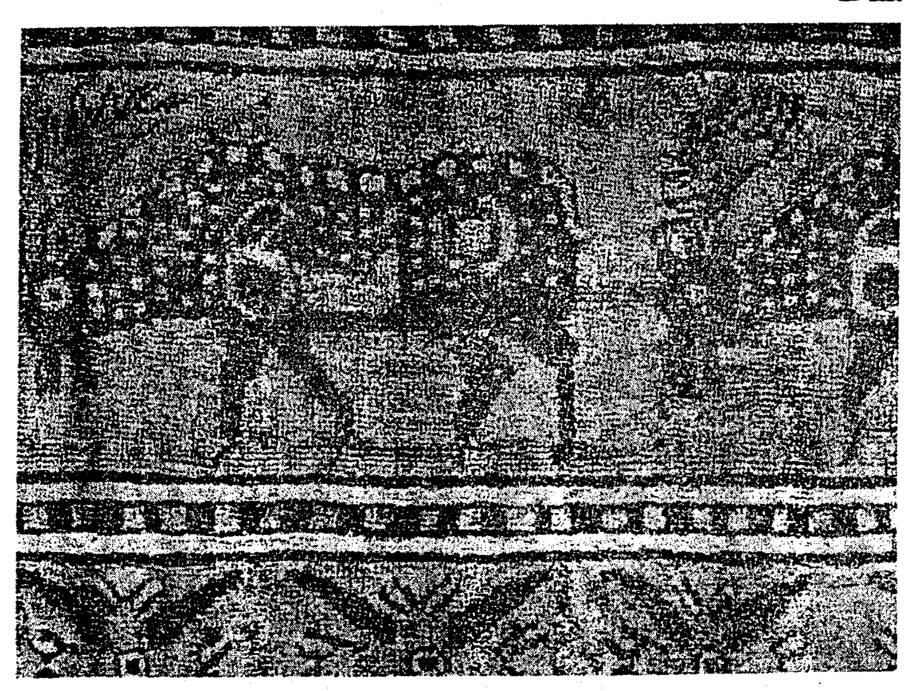
الصغيرة نُشاهد نباتات على شكل حرف " S " و قرون كباش . و تم تصوير الخيَّالة بشكل مخطط . المترجلون يتقدمون على يسار الجواد ، و أياديهم اليمنى مع اللجام على سجادة الجواد . سراويلهم ضيقة و ملتصقة بأجسادهم . لباس رؤوسهم في لون برتقالي . الوجوه بيضاء . الأيادي صفراء . الملابس ذات أربطة حمراء و بيضاء يتخللها خطوط زرقاء . على كل جانب من جوانب السجادة يُشاهد شخوص سبعة من الفرسان .. و قد ارتدوا ملابس كملابس التجمعات التركية التي تعيش في المناطق الآلتائية . إن تيمة الخيَّالة الذين يتبعون بعضهم بعضاً كهذه تُصادفها فيما بعد على السيراميك السلچوقي ...



الشريط العريض الخارجي للسجادة الهونية – و نرى واحداً الفرسان الذين يسيرون في اتجاه عكسي لظباء جبلية .

و مازال هناك خلاف بين مؤرخي الفنون حول منشأ هذه السجادة ، والغرض الثقافي الذي صنعت من أجله .. و هل بدو الاستبس الرحّل يمكنهم أن ينتجوا مثل هذه

الأعمال الفنية ، أم أنها ترَجع إلى مجتمعات يمكن أن تكون قد تحضرت بعض الشيء؟... أم أن طبيعة البلاد في التركستان و آسيا الوسطى هي التي فرضت على ساكنيها أن يكونوا من أوائل الشعوب التي صنعت السجاد الوبري لاستعماله في أغراض شتى توائم طبيعة البلاد التي يسكنونها ، و تتفق و ما يملكون من المواد الخام التي تقوم عليها هذه الصناعة من صوف و صباغة . تمتاز زخارف هذا النوع من السجاد الوبري على أن قوام زخارفها شكل مثمن يعرف باسم [بيلي با Fili ba] أي قدم الفيل و يغلب عليه اللون الأحمر القاني و الأبيض و الأزرق ، أو الأسود كلون مساعد .



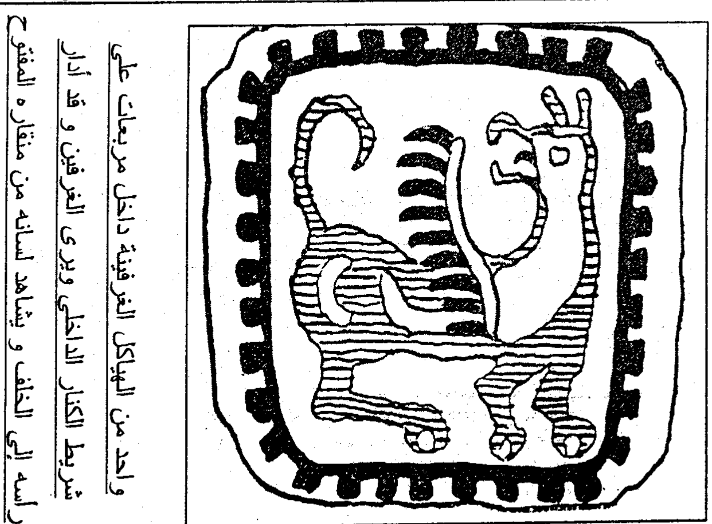
الشريط العريض الداخلي – ونرى عول " أي ظباء جبلية " ترعى وتسير عكس اتجاه الفرسان .

كما كانت لبلاد القوقاز شهرة واسعة في صناعة البسط و الكليم و السجاد الوبري المعقود منذ أقدم العهود . شأنها في ذلك شأن إيران و ذلك لوجود جميع المقومات التي تحتاج إليها مثل هذه الصناعة .

تتفق مناطق صناعة السجاد في القوقاز و آرمنيا و القازاق و شروان بأن تكون مساحة السجاد مقسَّمة إلى معيَّنات يكونها جسم التنين ؛ و ألوانها براقة متعددة .. أُطرها ضيقة نسبياً ، و تتكون من وحدة زخرفية نباتية متكررة في معظم الأحيان . مكوَّنة من زهور مركبة و أوراق مركبة بأسلوب هندسي . و لكن سجاد القازاق سميك و ألوانه يسوده اللونان الأحمر و الأزرق .

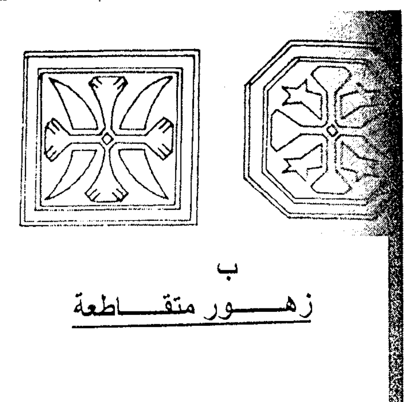
إن ما يستخرج من الحفريات الأثرية التي تتم في أواسط آسيا تدعم الرأي القائل بأن منشأ السجاد في آسيا عامة ، و من المحتمل أن تكون قبائل وسط آسيا أول من صنعته اعتماداً على توفر مادة الصوف الضرورية لهذه الصناعة ، هذا بالإضافة إلى طبيعة البيئة القارسة البرودة شتاء و التي تحتاج إلى مثل هذه المنسوجات الوبرية السميكة .

وحدات زخرفية مستخدمة في السجادة الهونية و تبدو أنها جميعاً مستوحاه من البيئة وقد أبدعتها أيدي المرأة و الفتاه الهونية التي كانت و مازالت تقطن أواسط آسيا

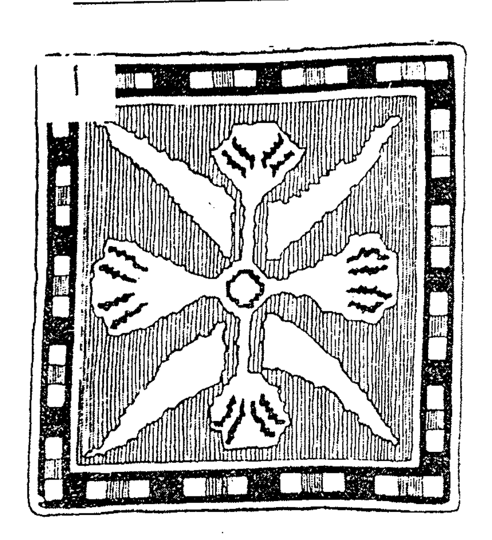


واحد من الهياكل الغرفينة داخل مربعات على شريط الكنار الداخلي ويرى الغرفين و قد أدار رأسه إلى الخلف و يشاهد لسانه من منقاره المفتوح

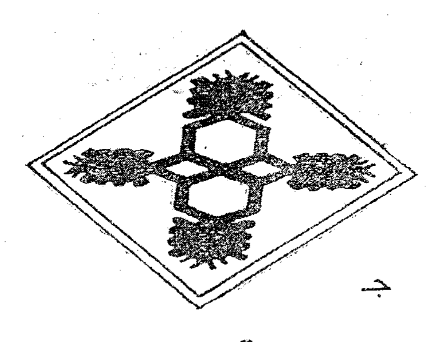
الكنار الخارجي للسجادة و قد ازدان بوحدات زخرفية مستوحاه من الوردة الهونية

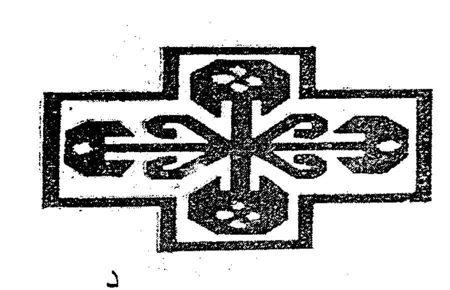


ب
زهـــور متقـــاطعة



أ- تكوينة زخرفية عبارة عن الوردة الهونية





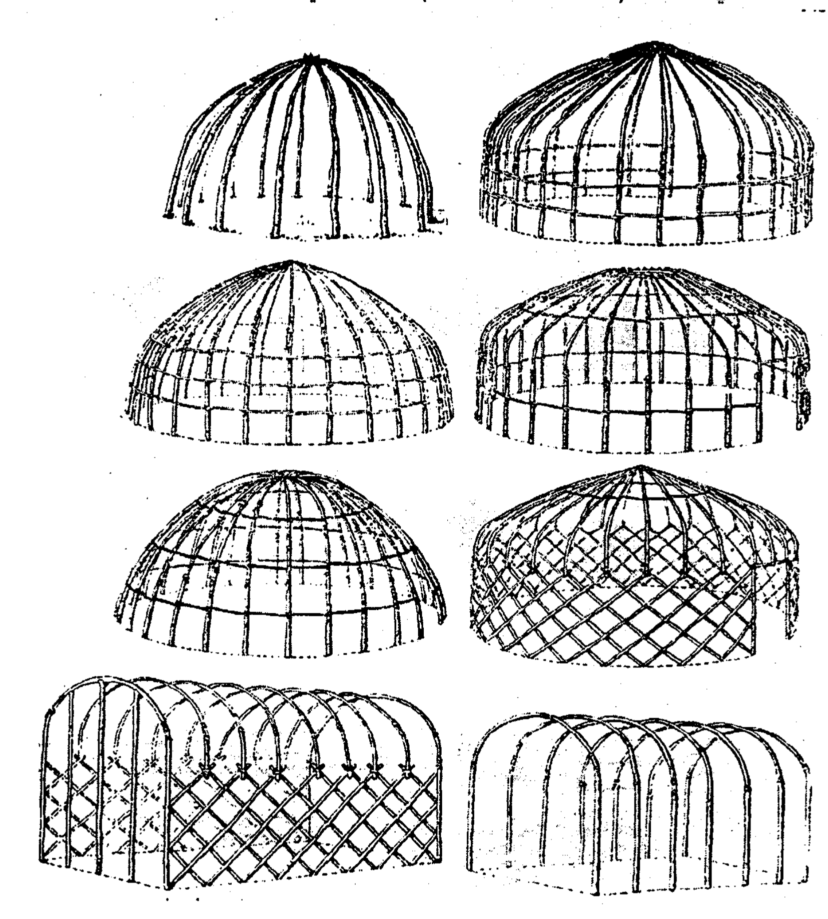
d

جـ - زهرة مربعة متساوية الزوايا ذات ورق تركماني متقاطع

د- زهرة متقاطعة مزدانة بأوراق قيرغيزية

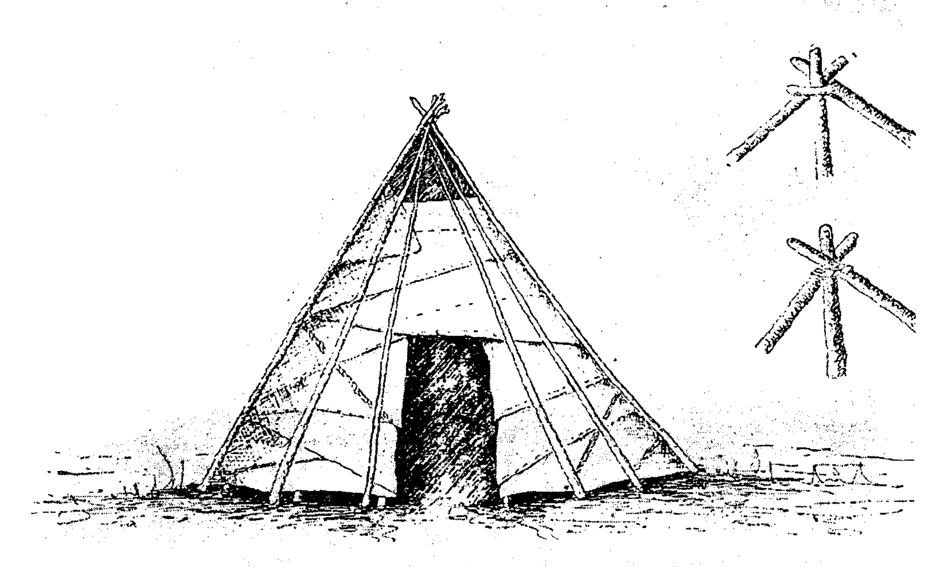
خيام الرحل ومساكنهم :

مما لا شك فيه أن الذي يجعل البدو و العشائر الرحَّل دائماً في وضع الاستعداد و أصابعهم على الزناد هي مساكنهم . توضح الاكتشافات الأثرية الأخيرة أن الهون قد استخدموا بضع أنواع من الخيام .. من أبسطها حتى أعقدها ، و بمختلف الأشكال المعروفة في هذا الصدد كان بعضها مغطى باللباد ، و البعض الآخر على شكل مخروطي أي قُمعي مغطى أيضاً بلحاء الأشجار الصنوبرية . و في الوقت الراهن فإن الخيام المستخدمة في المناطق الآلتائية كما هي واضحة في الصور و في قازاقستان في منطقة (طووا = Tuva) كانت هي الرائجة بين رعاة القطعان



أشكال من الخيام ذات الهيكل الخشبي المستخدمة بين التجمعات التركية في أواسط آسيا و الأناضول

كانت و مازالت هذه النماذج البسيطة محافظة على الموروث منها . في هذه المنـاطق يطلقون على هذه الخيمة اسم "چوم = Çum " أو اسم (قابـا = Kapa) ويطلقون على مختلف أنواع الخيام اسماً مشتركاً هو (لو چـيك = Loçık) و هي التي يُطلـق عليها في الأناضول آلاچـيك Alaçık وهي عبارة عن خيمة أو كوخ معمول مـن الأعواد ، و يشيع استخدامها في حراسة القطعان أو المحاصيل الزراعية فـي مرحلـة النضج ٠



خيمة تسمى چوم أو " قابا "

من أهم المستخرجات مِنَ الحفريات الأخيرة ؛ نموذج مهم يعكس تماماً مفهـوم الخيمة ، حيث إنه مكوّن من ست خشبات سميكة و طويلـة مربوطـة ببعـضها مـن الأطراف بأشرطة من الجلد الطري ، و تثبّت هذه الخشبات في التربة بشكل قُمعـي ، ويغطى فوقها بغطاء من اللّباد . و هكذا بشكل مبسط و سهل أمكن الحصول على مأوى يُحتمي به . و من نفس هذه الحفريات تم استخراج أقمشة كتابية مخيطة مـن طبقتـين حيكت بالعرض لكي تُفرد فوق هذا النوع من الخيام .٠

أما أنواع الخيام الأخرى و التي كانت تُستخدم كمسكن و مأوى ، فلم تكن شيئاً يختلف عن المساكن " Yurd " التي كانت تُشاهد بين الأقوام التركية الرحَّل طوال مئات السنين . كانت معظمها ذات مخطط دائري هيكله من الأخشاب ، ذات أغطية يمكن تكويمها في وسطها عمود مرتفع يخرج من أعلاها ، و يُعلق في أعلاه راية وشارة الجماعة . و كانت هذه الخيام تحمل رسم Keregü = كره گو (*). و هي المسكن المقدَّس للتركي المرتحل منذ الأزمنة السحيقة . هذه الخيام كانت تُنقل أحياناً غير مفككة ، بل بهيئتها الكاملة فوق العربات التي تجرها الدواب ،
كما هو واضح في الصوة حيث الأبقار و الثيران تجر العربة المحملة بالخيمة . وأحياناً أُخرى كانت تُفكك و تُحمل فوق الجمال ، و تنقل إلى حيث ظل " إله السماء " گوك طانري . و يقومون بإعادة تركيبها بشكل سهل و مبسط في المكان الذي يرونه مناسباً . و قد وصفهم المؤرخون اللاتين [بأنهم لا يحب أحد منهم أن يعمل في الأرض .. يهربون من الزراعة دائماً .. و بدلاً من أن يُشيدوا مساكن متينة ، فإنهم يعيشون حياة غير منتظمة و غير معتمدة على مساكن دائمة ..فهم يبدون و كأنهم من اللاجئين الذين يرتحلون بعرباتهم من مكان إلى آخر .



الثيران و الأبقار تجر العربة المحملة بالخيمة

*- كره گو = Keregy تَعني لغوياً المسكن أو المأوى اللازم .

في المناطق الشاسعة التي لا يحدها حد كانت قبائل الهون ، و من بعدهم كل الأقوام التركية يغيِّرون أماكنهم حيث توجد المراعي و العشب .. وكان كل ذلك يتم في جو من الساحرية ؛ فخلف هذه التجمعات الكثيفة تهب رياح الغبار من ناحية ، فتكّون خلفهم سحابات من الغبار .. وفرسانهم في المقدمة و قد تدلت شعورهم الطويلة على أكتافهم ، و علقوا على ظهورهم أقواسهم . و تحتهم جيادهم التي تطير كالطيور الجارحة ، جيادهم مطهمة و أطقمها مشغولة بشكل رائع تدل على استمتاع بما يصنعون . ورسوم الخيول التي وصلتنا يتضح منها ذلك بالإضافة إلى أن الفارس يبدو و كأنه هيكل ملتصق بجواده . خلف هؤلاء الفرسان تزحف سيول البشر و الضأن و القطعان ، و أسراب المُهُر التي لم يتم استئناسها و تسييسها بالكامل بعد . و من خلف كل هؤلاء العربات التي تجرها الثيران ، و من فوقها تُشاهد بعض النسوة و قد جلسن و معهن أطفالهن داخل هذه المساكن التي تحملها العربات ، مما يجعلهم جميعاً يُشبهون قطاراً من القوافل . و تبدو السيدات اللائي تقدن العربات التي تجرها الثيران في قيافات وحلي ملفتة للنظر [انظر الصور] . مما يجعلهن في هيئة جاذبة جداً .

و فوق الخيام تُشاهد أعلام مثل الطوغ ، و على قمة صاري العلم نرى هويكلات معدنية لهياكل حيوانية أبدعها الفنان الهوني .

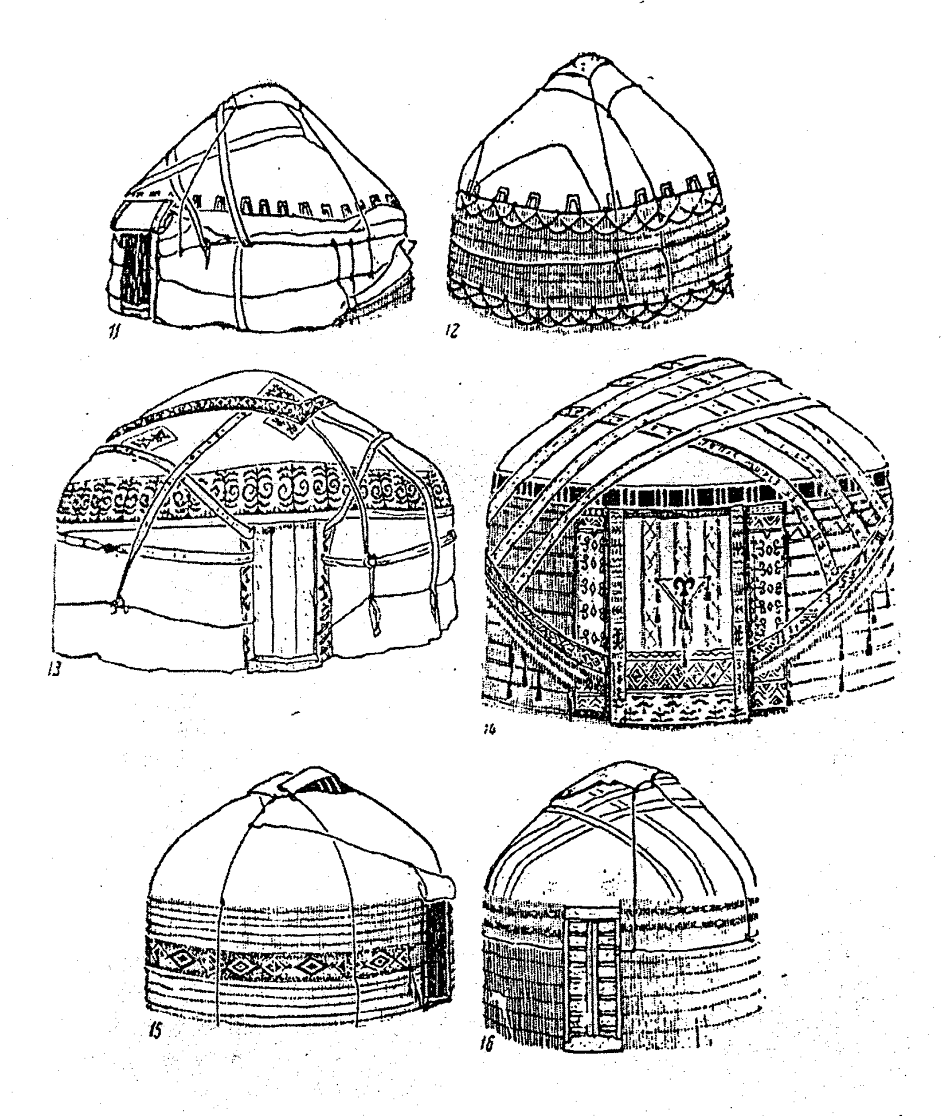


عندما تصل هذه القافلة إلى المراعي التي ستُغَذّى فيها قطعانها ، لا يَستغرق إقامة خيامهم ومساكنهم أكثر من نصف ساعة حتى تستقر ، أما في لحظات الخطــر ، فإنهم يطوونها في أقل من هذا الوقت تاركين المرعى بشكل آني .

وفيما يلي أنماط من خيام ومساكن سكان أواسط آسيا من الهون و الكوك تورك و القازاق و التركمان و غيرهم

أ- **أنواع متعددة من الخيام :**

أنواع من الخيـــام المستخدمة بين تجمعات الترك القديمة



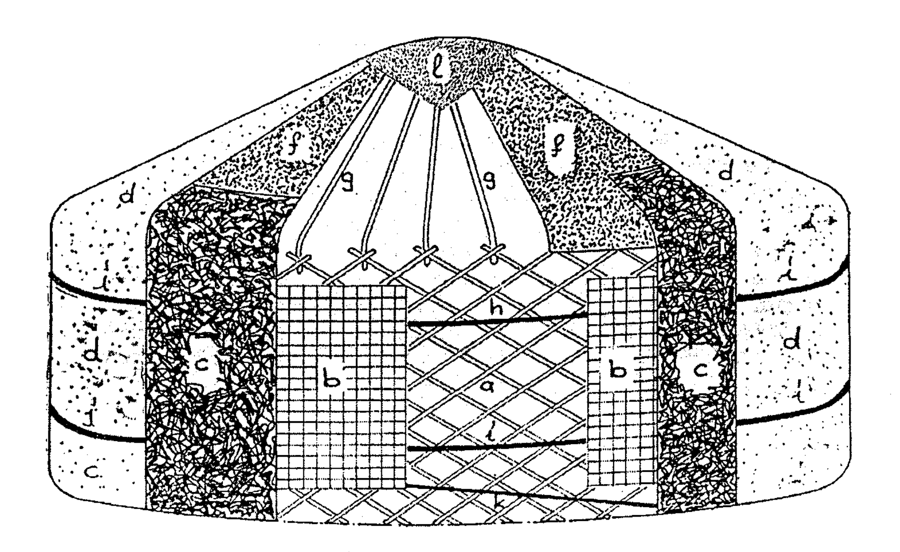
أنواع مختلفة من الخيام المستخدمة في آسيا ؛ ١ ، ٢ مستخدمة بين الأوزبك و التركمان

٣- بين الأوزبك و الكونغرات . ٤- بين الأوزبك و القارلوق

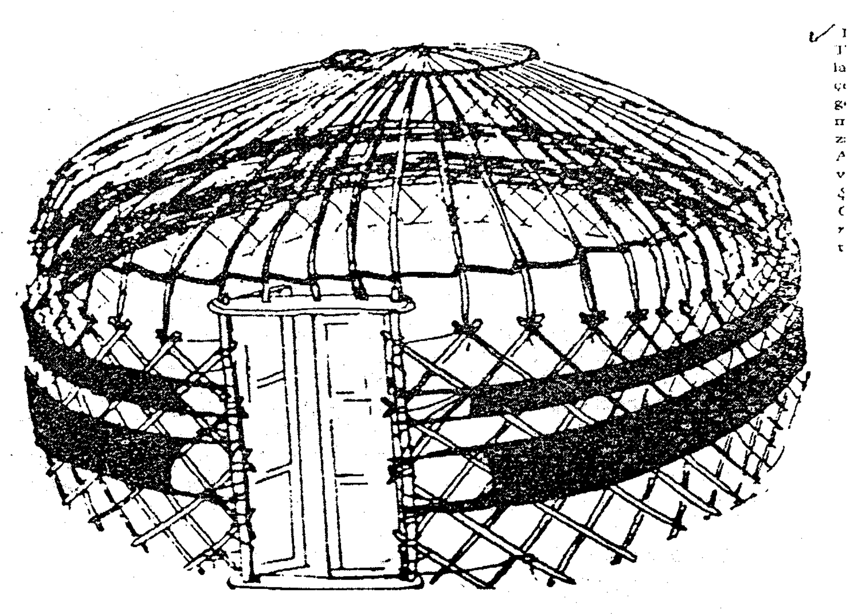
٥- بين الأوزبك و اللوقايين . ٦ - ٧ بين القيرغيزين الجنوبيين

٨- ٩ – بين قيرغيز الشمال ١٠ - ١٣ – بين القازاق

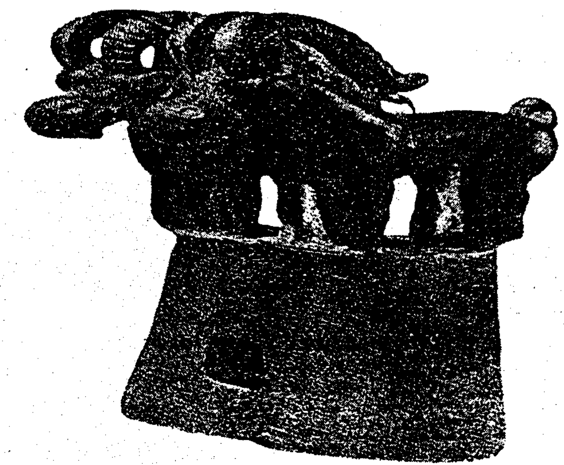
١٤- بين القرة قلباقيين ١٥ – ١٦ مستخدمة بين التركمانيين



مسكن قازاقي مكون من هيكل وباب و جوانب و سقف



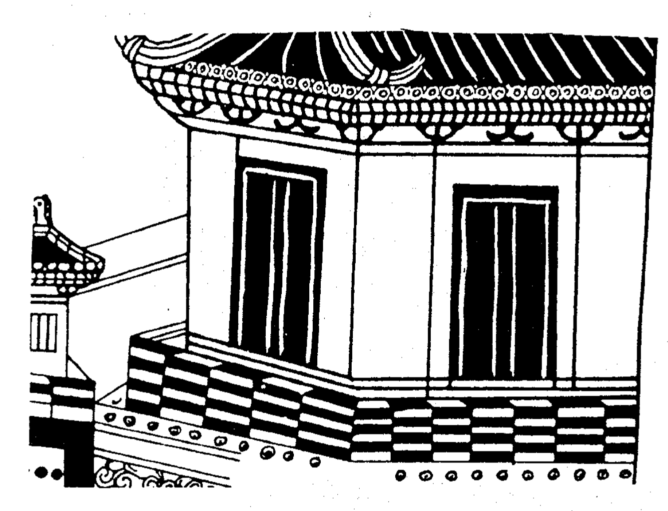
مسكن ذو هيكل خشبي تستخدمة عشائر التركمان و القيرغير و القازاق
و إطار الباب من الخشب





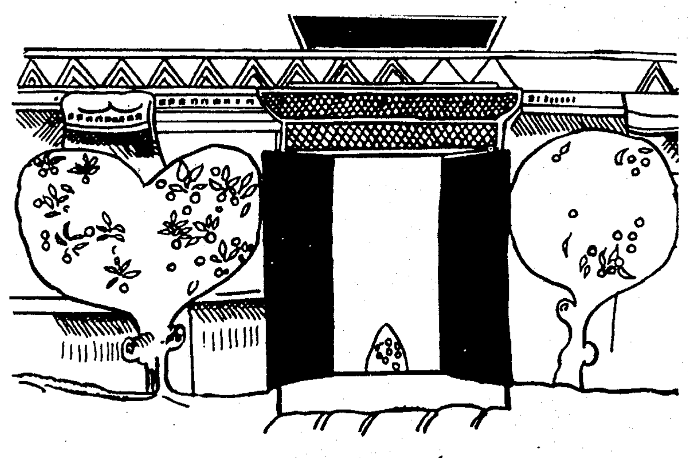
هياكل جديان جبلية ووعول مصنوعة من العظام كانت تُثبت فوق صوارى الخيام وأعلام العشائر كطلاسم منذ أيام الهون وقد تم العثور عليها في أوردوس وكانت توضع على زروة الخيمة كطلسم لحماية أهل الخيام

ب- نماذج من مساكن ومنازل و أبراج وقلاع أويغورية ورسومات مستخرجة من لوحات جدارية كانت على جدران القصور و المنازل في مدينة طورفان

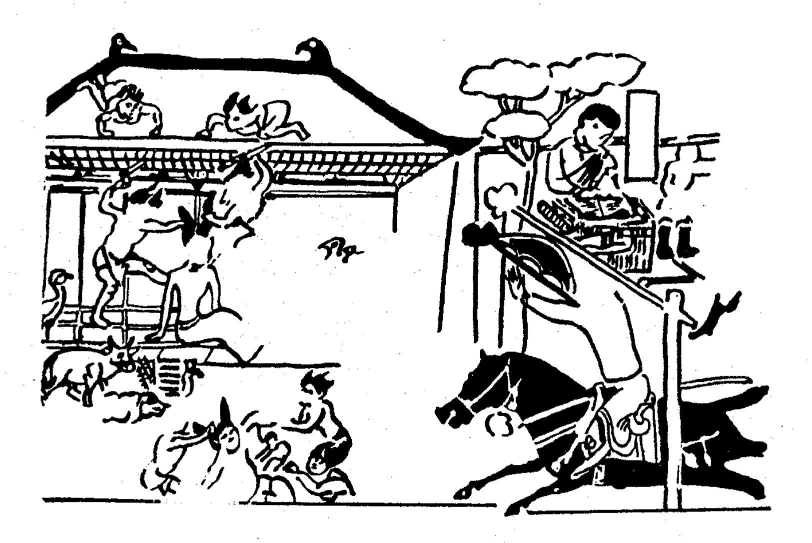


40. Bir Uygur evinin üst katı: Turfan'dan.

منظر للدور العلوي للبيت أويغوري في طورفان



باب قلعة أويغورية من طورفان



متزل أويغوري • مشهد مستخرج من [illegible]



قلعة تركية — اويغورية و أبراجها " من طورفان "

العائلة في مجتمع الترك :

إن وحدة القبيلة في المجتمع الهوني بخاصة و التركي بعامة تعتمد على العائلة أو الأسرة المرتبطة معاً بقرابة الدم . و يطلق عليها بالتركية أيضاً مصطلح " أوجاق = Ocak = أي العائلة المنتسبة إلى نسب واحد . و تتبع العائلة أحياناً بضع خيام حسب الثراء و الغني و النسب المرتبط بها ... و يمكن أن تستقر العائلة وحدها ، أو تتحد مع بعض العائلات الأخرى وتُقيم خيامها في المكان الذي يعيشون فيه و يسمى " آوول = Avul " = حوش وهو أصغر وحدة اجتماعية . ويمكن أن تتجمع بضع آوولات = أحواش وتكوِّن كتلة اجتماعية جديدة تُسمى أوبا = Oba أو اويمق Oymak = فخذ من القبيلة . و ما زاد عن ذلك ، أي من تجمع مجموعة من الأفخاذ يتكون ما يسمى [بوي = Boy] أي بطن ثم يلي البطن [أوروق = Uruk] أي قبيلة و من اتحاد مجموعة من القبائل تتكون الـ [بودون = Budun] ، أو مللت Millet أي الأمة . كان لابد من وجود " باشيوغ " على رأس تجمعات الهون . وقد أوضحت المصادر الصينية أنهم كانوا يتشكلون من أربع وعشرين أوروق أي قبيلة .

[Avul → Oba → Boy → Uruk → Millet]

[حوش ← فخذ ← بطن ← قبيلة ← أُمة] .

إن المنتمين إلى الأحواش و البطون ؛ لكي يمكنهم الحصول على المراعي و القطعان يتعرضون للكثير من المخاطر و المهالك ، ولذلك لابد و أن يكونوا على أهبة الاستعداد . و يعيشون داخل تشكيلات عسكرية منضبطة من الممكن أن يتعرض الحوش إلى هجوم مباغت ليس من الأعداء فقط ، بل من الممكن أن يتم هذا الهجوم من قبل فخذ أو بطن من نفس التجمع ، هذا الهجوم المباغت تطلق عليه التجمعات التركية مصطلح بارانتا = Baranta " . و كثيراً ما كانت تتعرض أواسط آسيا بل بلدان آسيا إلى هذا الهجوم المباغت ، ويتم نهب و سلب القطعان وسبي النسوة و أسر الأطفال ، و لم يكن الطرف المغلوب يملك سوى أن يسير محني الرأس دليلاً على قبوله بالهزيمة و يطلق التركمان على نفس هذه العملية اسم آلامان Alaman .

وكانت هذه التحركات و التحرشات تخلق عداوة مستمرة بين البطون أو القبائل حيث أن المهزوم يصر على استرداد شرفه و سباياه و أسراه وقطعانه المنهوبة . ولا تنتهي هذه العداوة . وعدا هذا الوقت الذي يقضونه في الكر والفر وصد الهجمات أو الرد عليها ..فقد كان بعض الرجال يقضون أوقاتهم في الانشغال بقطعانهم و البعض الآخر كانوا مشغولين في أعمال الجلود و العظام والأخشاب و المعادن المتوفرة و التي يصنعون منها الأدوات و المعدات التي تلزمهم في معيشتهم اليومية .. و هذا بطبيعة الحال مما أعد الأرضية المناسبة لظهور أعمال فنية وحضارية وصلت إلينا منذ زمن الهون •

كانت جميع نساء التجمع الهوني وفتياته ينشغلن بعمل أبسط من اللباد ؛ سواء في الإعداد أو التجهيز أو الجلوس أمام آلاتهم و أنوالهم اليدوية ؛ يبدعون من الأبسطة و الأكلمة و السجاد ما ينبهر بمشاهدته أي مشاهد . من هذه البيئة البدوية قدَّم قدماء الترك السجاد و الأكلمة هدية إلى موكب الحضارة العالمية [انظر الصورة]•

هذا النموذج الرائع ، لا ندري مِنْ بين أنامل من النسوة و الفتيات الهونيات ، قد خرج . فالحضارة العالمية مدينة لهن و لأزواجهن بهذه التحف و أمثالها . و لا يظن أحد أن هذه السجادة المشهورة باسم سجادة پازيريق قد صنعت – كما سبق القول – لكي تُفرش أو تُفرد على الأرض ، بل ربما كانت كغطاء أو مفرش يوضع فوق الجواد فقد كان تزيين الجواد وبهرجة معداته من العادات القديمة التي حافظ عليها الأتراك طوال التاريخ وفي أي مكان و صلوا إليه •

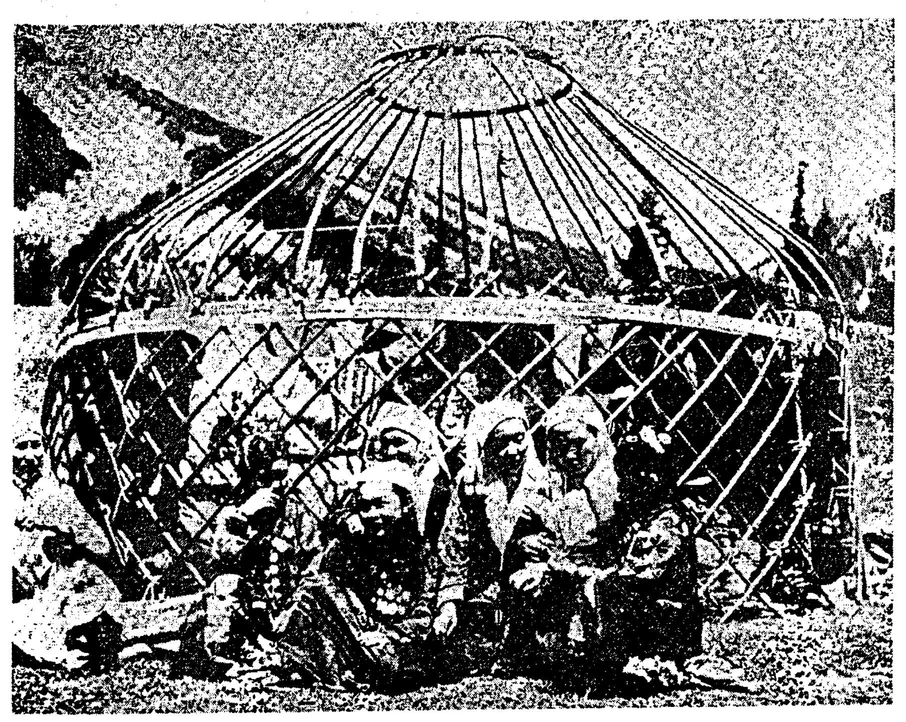
كان هؤلاء الرحّل إلى جوار البحث عن المراعي ، يشعرون بضرورة العمل المستمر في الحصول على الجلود و الصوف و الوبر و الفراء وتشغيله . كانوا يقومون بعملية الغزل و النسيج و حياكة كل أثوابهم و ملابسهم ومتطلباتهم الشتوية داخل خيامهم .. أما صباغة الصوف وعمل الأبسطة فقد كانوا يقومون بها خلال أشهر الصيف •

مما لا شك فيه أن العامل الذي كان يجعل البدو الرحّل يضعون أياديهم دائمــاً على الزناد هي مساكنهم .. مآويهم .. فتلك المساكن أو الأكواخ أو العشش أو الخيــام التي رأيناها في الصـــور فهياكل كل هذه المآوى مكونة من الأخشاب ؛ و يطلق عليها مسميات : " كره كو .. كرهكو .. يورد في التركية و [كبيتقــا = Kibitka] فــي التتارية ، وتُغطي بأغطية من اللباد . هذه الخيام كانت البيت المقدس لــدى التــرك . وحتى في لغة الأتراك القدماء فإن كلمة چادر = أو ← Çadır = EV وقد استخدمت هذه كلمة أو في اللهجات أو اللغات التركية الأخرى أشــكال EV ← eb ← öy ← üy هذه القوالب كلها تعني البيت ← المسكن – المآوى . وحتى الأيام الراهنة ؛ ففي قازاقستان = بلاد القازاق و قيرغيزستان = بلاد القيرغيز يطلقون على الكوخ المغطى باللباد الأسود [قارا أوي Kara– üy] و الكوخ المغطى باللباد الأبــيض [آق أوي = Ak - üy] . وهم في عاداتهم المعاصرة يطلقون على البيت الجديد [آق – أوي] أي البيت الأبيض وهو البيت الذي يُجَهَّز للزواج الحديث . ويطلقون على المساكن المعدة لمراسم الزواج [آق أوتاي = Ak – Otay] أي المسكن الأبيض المبارك . و عنــد الأوزبك و التركمن يطلقون على المساكن التي في المصايف وخاصة المصايف الجبلية و الهضاب اسم قارا – أوي =Kara - oy] أي البيت الأسود .

إن ما يحرص عليه الرحّل هو أن تكون مساكنهم خفيفة الحمــل ســهلة الفــك والتركيب بسبب الظروف التي يتعرضون لها من جفاف الطبيعة وهجمــات البطــون الأخرى و الأعداء . كانت الخيام هي التي تُلبي كل هذه المطالب .

كانت الخيام التركية القديمة ذات مخطط دائري وسطها مثل القبــة المثقوبــة . والسطح أيضاً قُبة قمعية .. ومازالت هذه النوعية من الخيام تُستخدم من حين لأخر في أواسط آسيا و الأناضول . [الصور ترجع إلى الخيام] . هذه المساكن هي مــن أهــم المكتشفات الحضارية الإنسانية التي توصل الإنسان إليها في حينها .

هذا اليورد = المأوى = البيت المعروف في بلاد أواسط آسيا منذ عصر الهون هو مسكن دائري ، ضيق الحيازة ورغم ذلك يحتوي بداخله على أشياء عديدة تمكّن ما بين ١٥ – ٢٠ شخصاً من المعيشة داخله عملية الفك و التركيب لا تستغرق سوى ١٥-٢٠ دقيقة فقط . الهيكل الخشبي خفيف لدرجة أن كل مشتملات الخيمة يمكن أن يحملها جمل واحد ، و إلى جانب هذا ، فإن هناك البعض منها أسطواني الشكل ، السقف شبيه بالقبة خفيف ومتين بحيث يستطيع أن يقاوم أعتى العواصف .



تجمع هوني داخل الخيمة

بناء اليورت = الخيمة – المسكن ← البيت هذا ، يمر بثلاث مراحل **أولاً** فوق دائرة يتم رسمها بخيط مقياسي يتم تحديد الأجنحة ورصها بجوار بعضها البعض ، وبربطها من الأطراف يتكون محيط الخيمة . و حسب حجم واتساع الخيمة يتكون البدن

على شكل أسطواني من خمس إلى ثمان شرائح . و يمكن أن يطلق عليها أيضاً أجنحة . الارتفاع ما بين ١٢٠ – ١٧٠ سم . كانت الشرائح الخشبية تُصنع في تركستان الغربية من شجر التوت . وكان القازاق و القيرغيز وحتى الأوزبك كانوا يصنعونها من شجر الصفصاف الأصفر . بينما التركمان وعشيرة بكديك في جبال طوروس يصنعون هذه الشرائح من شجر الصنوبر ، كان إطار باب الخيمة متجه دائماً إلى مشرق الشمس ، وكانت تربط الشرائح أيضاً في إطار الباب ٠

ثانياً .. المرحلة الثانية هي عبارة عن تأسيس أو تشييد سقف سطح الخيمة .[أنظر الصور السابقة] ٠

إن اتساع الخيمة و ارتفاعها يختلف فيما بين ٥-٧ أمتار اتساعاً ، ٢,٥ إلى ٤ أمتار ارتفاعاً ٠

تُعتبر عملية تغطية القفص المشيد من الأخشاب هي المرحلة الثالثة من تشييد الخيمة بحيث تُلف أحزمة عريضة مطرزة بنقوش ثرية الألوان بشدة فوق الهيكل الخشبي ،و بهذا الشكل يكون المسكن متمتعاً بمقاومة شديدة لشتى أنواع الرياح ، كما أن هذا الثراء اللوني يضفي على هذا المكان الصغير نوعاً من البهجة و الإضاءة ٠ ويُطلق على الأحزمة القريبة من الأرض " حبل القدم " = Ayak ipi " ثم يتلو ذلك فتحات الشباك ثم يعلوها حزام الوسط " bel Kuçağı " المهم أن يغطى الهيكل الخشبي بلباد أو قماش سميك و من فوقها تُربط بأحزمة أخرى بشدة وهذه الأغطية اللبادية تكون قد تم قصُّها على المقاييس المطلوبة تماماً ، ويُغطى الباب أيضاً بقطعة سميكة من اللِّباد أو بسجادة ثقيلة وسميكة أيضاً ، و يلف حول الخيمة بطبقة سميكة من التراب أو من كومات الثلج أو الجليد بحيث يتم منع تيار الهواء و المحافظة على الحرارة و بهذا الشكل لا يحتاج المسكن إلا إلى مصدر بسيط جداً للتدفئة ٠

أما في الصيف ، فيتم رفع اللباد عن الأرض بحوالي ٤٠ سم ويتم فتح فتحة السقف و يتيح هذا الشكل تياراً خفيفاً من الهواء صيفاً . و من الثابت أن اللباد المغطى

به المسكن أو الخيمة فكماً أنه لا يسخن بسرعة تحت أشعة الشمس ، فإنه في نفس الوقت يحافظ على الحرارَة التي يكتسبها و في الصيف أيضاً يتم فتح جوانب الخيمة أو رفعها بالكامل ووضع إطارمكانها من البوص أو الغاب المربوط ببعضه بشكل جيد هذا السياج من البوص ، كما أنه يسمح بمرور تيار الهواء بسهولة فإنه لا يسمح بدخول الحشرات أو العناكب أو الثعابين السامة إلى الداخل .

يسيطر على داخل الكوخ أو الخيمة أو المسكن أياً كان نظام صارم ، فلكل من ساكنيه مكانه ، كما أن للأشياء و المعدات و الأدوات أماكنها المحدودة . و غير مسموح لأحد بأن يُغيِّر هذه الأماكن . فالآلات و الأدوات والمعدات الأخرى تُعلق على أماكن معينة على الجدران وبعض الأشياء توضح في الأخراج و الأجولة و الأكياس حسب نظام معيَّن أيضاً .وبهذا الشكل يُحد من التكدس و يتيح لما يزيد عن عشرين شخصاً أن يسكنوه براحة وحرية . و في وسط الخيمة تماماً يوجد مكان لإشغال النيران ...و هذا المكان كما أنه يُمثل وسط المسكن فهو يُمثل مكانه المقدس . و حوله تتضح وتتحدد أماكن الذين يقطنونه و لا يمكن تغيير هذه الأماكن بدون استشارة رئيس العائلة . خلف الموقد تُوجد زاويةَ الشرف مخصصة لكبار الرجال و للضيوف . وهي يُطلق على هذا الركن في أعماق آسيا اسمُ الركن الأساسي = " Tör = Başköşe " . و هذا المكان يكون مغطى بأبسطة غنية النقوش ، أو بسجاد رقيق تم نَسجُه بشكل بديع . هذا السجاد الذي يُطلق عليه " أوجاقـچـي " أبعاده ما بين ٢ ×٣ أمتار . هذا النوع من السجاد النفيس يوجد فقط لدى التجمعات الثرية من البدو الرحّل أو لدى رئيس القبيلة ، و في المكان الذي يستقبل فيه ضيوفه . إن السجاد المكتشف في آسيا معظمه تصل أبعاده فيما بين ١,٨٠ × ١,٦٠ سم و ما زاد عن ذلك لا يتواءم مع حياة التنقل والترحال •

لا يحتوي المسكن الهوني على أثاث بالمعنى الحديث ، عدا عدد قليل من المناضد الصغيرة التي لا يزيد ارتفاع قوائمها عن خمس و ثلاثين سنتيمتراً ، و تأخذ

شكل قوائم الأسود أو الفهود ولم يتم اكتشاف شيئاً أخراً حتى الآن . فالكل يجلس متربعاً أو مقرفصاً يجلس القرفصاء حول الموقد فوق قطع من السجاد الصغير ، وفوق أبسطة منسوجة تغطي الأرضية في ألوان بهيجة . و على زاويتي الموقد يُبْسَط فراش النـــوم ليلاً ، و ما أن يصبح الصباح حتى يُلَمّ من جديد . ويرفع على شكل دولاب ، ويفــرد فوقه بساط = كليم " منقوش نقشاً بديعاً أو ما يمكن أن نسميه الآن مفرش سرير بـــديع النقوش . وهذا ما يجعل منظره مقبولاً .

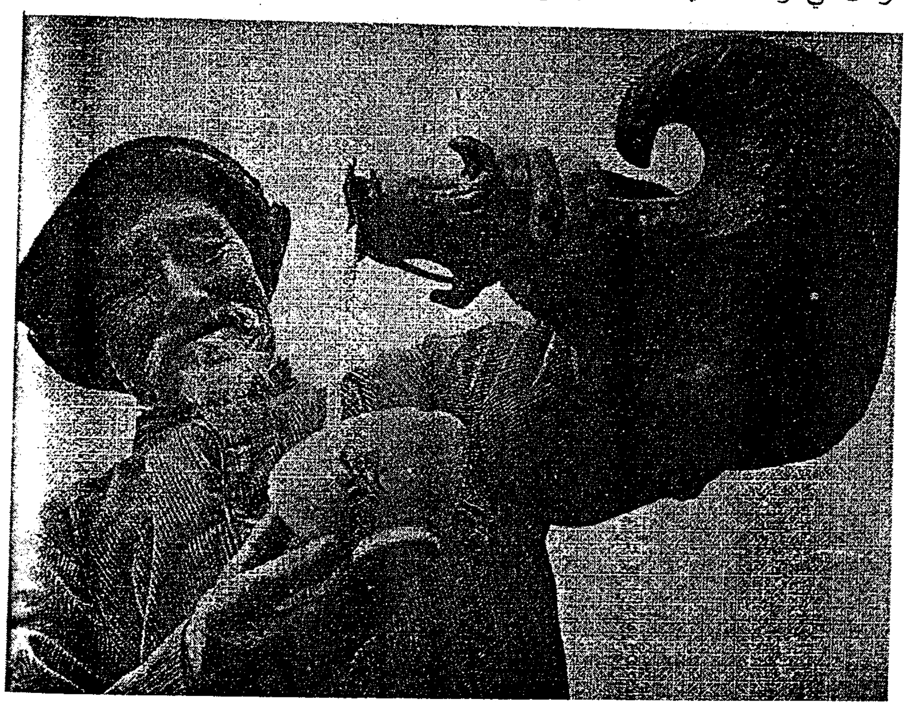
أرضية الكوخ أو الخيمة أو المسكن بصفة عامة مغطاة بالسجاد ماعدا الصرة . فإنها تترك عارية للموقد . فوق هذا القسم المتروك بلا فراش يوضع فيه قدر كبير " قازان " إما على حامل من الحديد ثلاثي القوائم ، أو على قوائم من الحجارة رُصَّــت فوق بعضها البعض ، ومما لا شك فيه أن أهم أدوات البدوي المرتحل سواء أكان ثرياً أو فقيراً هو القدر المصنوع من الحديد = " القازان " ففي هذا القازان تــسوى لحــوم الجمال و الخيل و الأغنام .

عدا هذا القدر الكبير و القوائم الحديدية الــثلاث فبقيــة أدوات المطــبخ مــن الأخشاب .. فالصحون و الأسطال والطاسات المستخدمة في تناول الطعام و الــشرب كلها من الخشب . وبقية مواد المطبخ المستخدمة في صناعة كل منتجات الألبان كلهــا من الجلد . . وكلها تكون في ركن من أركان الخيمة . كما أن الأسلحة و أطقم الخيــل تُعلق بشكل ظريف فوق الركن الأساسي = زاوية الشرف في الخيمة .

كل ما يظهر أو يتراءى في المسكن فهو من إبداع يدي المرأة ؛ فالسجاد الرائع، و الأكلمة و الأبسطة المفرودة على الأرض وبواطن الخيام . و الوسائد و المفــارش المنقوشة كلها مشغولات يدوية نسوية . ومن بين القطع التي كانت تحتل مكاناً بارزاً في الصناعات اليدوية البدوية هي صناعة العَيْبة " الأخراج " و الأجولة .. فهناك عَيْبات = أخراج للجمال وغيرها للخيول .. أما الأجولة ؛ فقد كانت تُنسج وتنقش بشكل ظريــف

وتستخدم في حفظ الحبوبياتَ والأصواف و الملح و طعام الحيوانات . وبعضها كانت تُستخدم لحفظ الملابس في الصناديق ·

إن المجتمعات التركية المرتحلة قد نجحت في استخدام المواد الخام المتاحة وطوَّعتها للصناعات التي تُلبي مطالبها ؛ فقد صنعت من الأصواف ؛ الملابس والأغطية و السجاد و أغطية الخيام و الأبسطة و الأكلمة و اللباد ، و غير ذلك من مفروشات الخيمة . و استخدموا الأخشاب إلى حد ما .. في صنع الصناديق و أعمدة الخيام .. الخ ، كما نجحوا في استخلاص الألوان من النباتات المتاحة و التي تعرفوا عليها . وصنعوا من الجلود إلى جانب ما سبق توضيحه زمزميات القيميز التي تحتفظ بالقيميز دافئاً و الصُراحيَّات التي يُشرب فيها .، و أصبحت الصراحيات في خيمة الرحّل في أواسط آسيا مُعَدَّةَ لا يمكن الاستغناء عنها ·

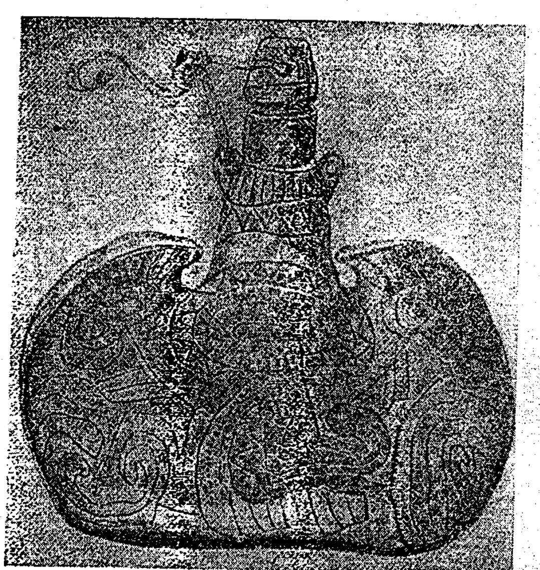


أحد الرعاه يصب القيميز من مشربيته

القيميز :

الألبان هي الغذاء الرئيسي منذ القدم للشعوب الرحّل في شتى بقاع الكرة الأرضية ، وقد كانت بين الأقوام التركية كذلك . وقد حصلوا عليها من قطعانهم . وقد صنعوا شرابهم المشهور بالقيميز = " Kımız " من ألبان خيولهم أيضاً . و يبدأ بدو أواسط آسيا وسكانها في صناعة القيميز منذ بدايات شهر إبريل ، وكان من المعتاد هو حلب الفرس صباحاً و مساء في أسطال من الخشب أو الجلد . و عقب الحلب يُحمل اللبن إلى المسكن .. ويفرغ في القرب المصنوعة من جلود الأغنام .. ثم يتم هز هذه القرب بشكل كثيف .. و يتم الانتظار – وفي غضون خمسة عشر يوماً يختمر اللبن ، ويأخذ قوام الخمر الذي يمنح الدفء إلى جانب القوة و القدرة . وقد كان على كل هوني أن يعلق في سمر جواده قربة القيميز أينما اتجه .





أشكال من مطارة المياه (القميز) مصنوعة من الجلد ومزخرفة



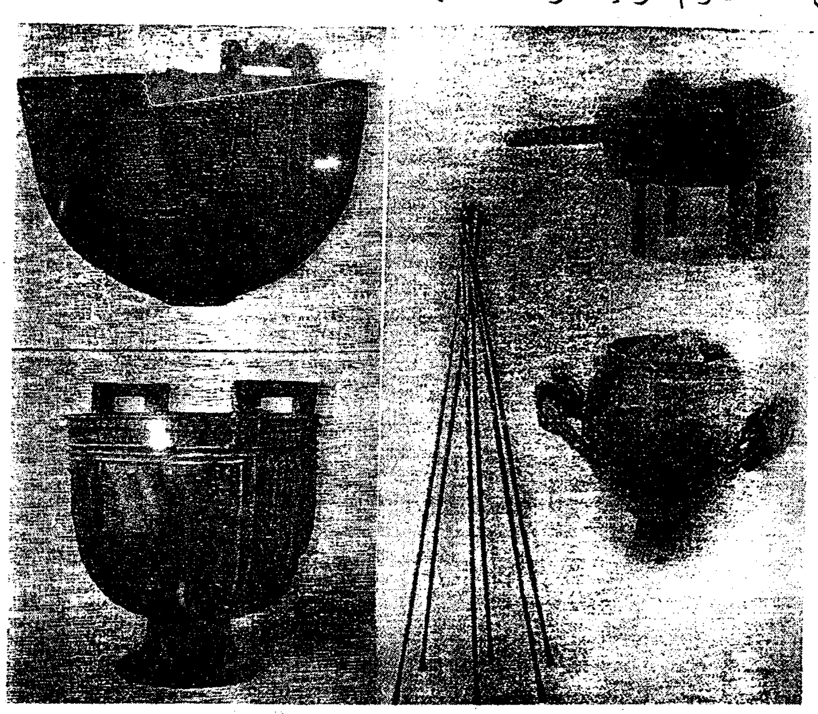


مطارة المياه (أو القميز) المصنوعة من الجلد مستخرجة من حفريات بـازيريق الثانية في الآلتاي . طولها ١٢ سم مزخرفة بمشاهد صراع الحيوانات . معروضة في متحف الهرميتاج في لننجراد بروسيا ٠

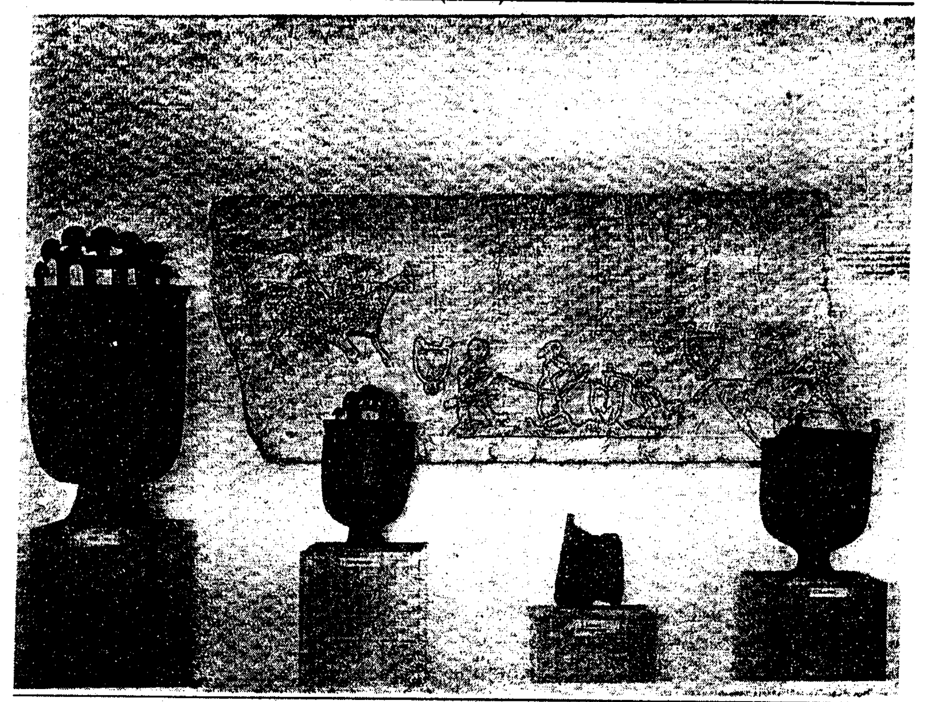
منذ أقدم العصور . و تحـدث عنـه الرحَّـالة البيزنطـي المـسمى زمـارخوس Zmarkhos الذي بعث به الإمبراطور البيزنطي جوستينان الثاني عـام ٥٦٨ ق .م سفيراً إلى استمى خان القاغان التركي فيكتب هذا الرحَّالة في مذكراته .. " أنه قد تـم تقديم كمية كبيرة من الشراب المسكر من غير العنب و يطلقون عليه اسم قومـوس " Komus " . كما أن المؤرخ بـريسكوس " Priscos يـذكر أن شـراباً يـسمى قوموس " Komus " كان يُقدم في سراي آتيلا إمبراطور الهون في أوروبا ٠

لقدور و الأقداح :

إن قدور القرابين و الأُضحيات المستخرجة من المقابر كانت تحمل مفاهيم دينية فكما أنها كانت تُستخدم في المراسم الدينية فقد كانت تُستخدم كمباخر ولحرق البخور يضاً . كما كان القدر و القدح يحمل رمزاً للقوة و السطوة لدى الخاقان . فهما رمـزاً لعظمة و القوة . و لهذا السبب فإن الحفريات الأثرية التي تمت حتى في أوروبـا تـم استخراج عدد كبير من القدور و الأقداح من المقابر التي كانت على طـوال الطـرق التي كانت الأقوام التركية المرتحلة تقطعها .

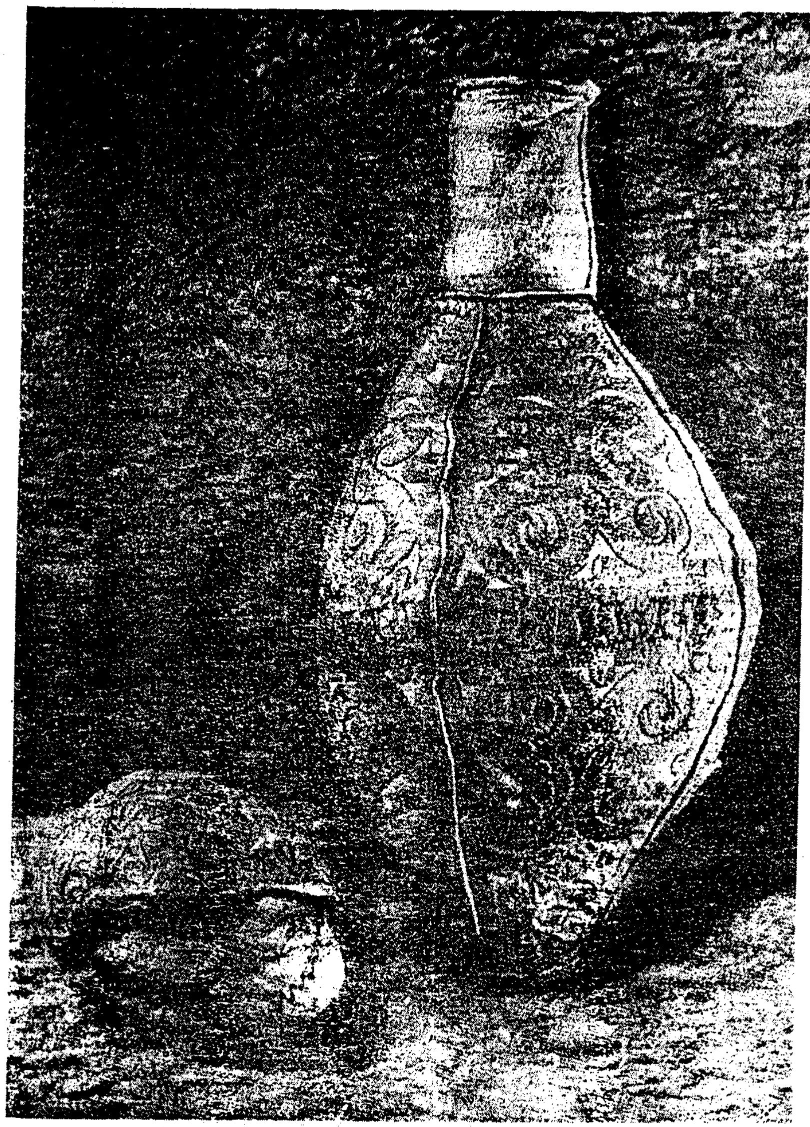


قدور و آواني مختلفة من المعادن لحرق الأعشاب الطبية و البذور و البخور لعمل الطقوس الدينية – وقازانات لطبخ القرابين و الأضاحي .



قدور هونية تم الحصول عليها في المجر . وهي معروضة في المتحف القومي المجري وتبدو رسوم توضح مشاهد من الحياة اليومية الهونية ٠

وازو على هيئة كبش تم اكتشافها في قبر عيزستان . وهي مصنوعة من الفخار .. وترجع إلي ما بين القرن ٣ – ٥ بعد الميلاد.



دورق للقميز مصنوع من الجلد وقد تم استخراجة من حفريات بازريق الثانية و كانت هذه الدوارق تملئ بالقميز وتوضع في غرف الدفن في المقابر

الخاقان و الجيش :

إن الشعب كان يجعل من الخاقان ابناً للإله ، و هـو ظـل الله علـى الأرض . وحتى الخواقين = الخاقانات كانوا يستخدمون مثل هذه التعبيرات للتعبير عن عظمـتهم و امتداد سطوتهم . كما كان النظام الذي يتبعه الجيش الهوني يحمل أيضاً ماهية دينيـة. فطالما أن الخاقان هو ابن الإله أي ابن السماء ، و طالما أنه على اتـصال بـه فـإن الحرب أيضاً تكون بإرادته .. فقد كانوا يرمزون إلى الجهات الأربع الجغرافية بـألوان معينة للجياد التي تصطف فيها .. ففي الغرب الذي يحمل مفهوماً دينياً تصطف الجيـاد الشهباء ، و في الشرق تُصف الجياد الغبراء ، و في الجنوب الكستنائية اللون هي التي تأخذ مكانها . و لكن الشمال تُصف فيه الجياد السمراء . و يتم الهجوم فـي النـصف الأول من الشهر ، و في الصف الثاني يتم الانسحاب و التراجع بسرعة ٠

هكذا ، يتضح أن الدين و الفن يؤثر كل منهما في الآخر. العقيدة تنعكس علـى الفنون . و الفنون تجسد العقيدة ٠

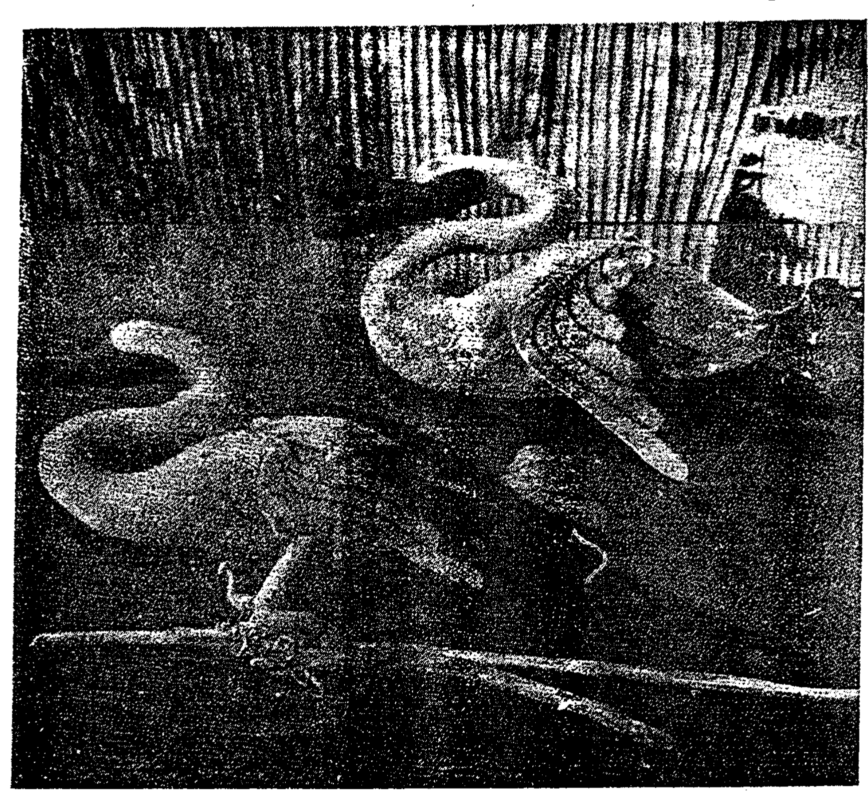
خيمة الخاقان :

وبقدر ما كانت خيمة الخاقان كبيرة وفسيحة و أنيقة ، فقد كانـت مفروشـاتها تتمتع بذوق رفيع حسب قول الرحَّالة الصيني صونج يون الذي مر ببلاد الآق هون = الهون الأبيض ، و أُصيب بالدهشة والحيرة عندما رأى خيمة الخاقان ، فيـصفها لنـا حيث يقول الخيمة مربعة الشكل ، كل ضلع منها أربعون قدماً ، ولما كـان ارتفاعهـا محتشم فقد أمكن رؤية الداخل المنمق الفراش ، تتدلى من على الجـدران سـجاجيد رقيقة. وقد جلس الخاقان متربعا على عرشه المنمق والمذهب والعـرش علـى هيئـة طائر خرافي ٠ وعلى كتفي الخاقان قفطانٌ نفيسٌ من الحرير المطرز بخيوط الصيرمه أي الذهب . وقد أكد ذلك ما تم استخراجه من الحفريات التي تمت في پازبريق ٠

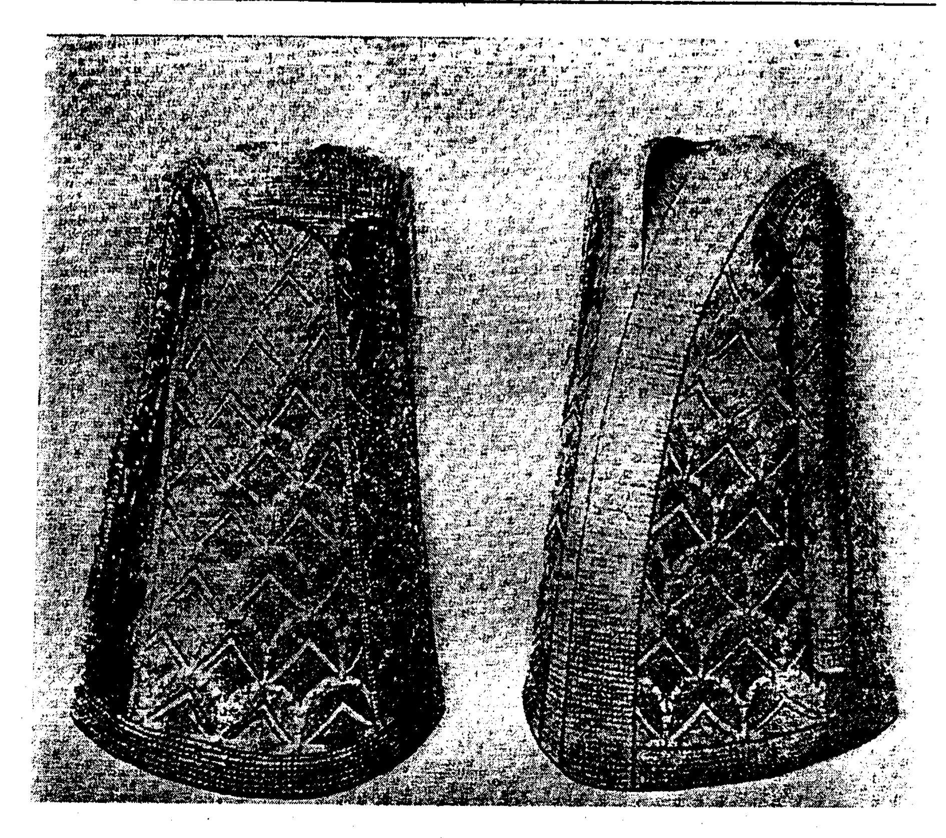
كما يذكر زمارخوس عند حديثه عن خيمة الخاقان إنهـا كانـت رفيعـة المستوى ، وإن جميع أقسام السرادق = الخيمة كانت من الحرير المطـرز ، وكأنهـا كالسراي الفسيح المنمق ٠٠ كل أركانها مزدانة بالفراء والحرير المزركش والمطرز ،

عمدتها مغلفة بألواح من الذهب المزخرف ٠أما تحت العرش وسرير الخاقان فمغطى الكامل بالذهب ٠

كما أن الراهب البوذى الصينى هسيان تسانخ Hsüan Tsang الـــذي وجه إلى الهند للطواف بها فيما بين (٦٢٩_– ٦٤٥) ؛ يتحدث هو الآخر بافتخـــار إعجاب زائد عن خيمة = سرادق الخاقان طونغلى Tongulu بـــالقرب مـــن حيرة ايسيج ، و أنها كانت مشغولة بخيوط الذهب ٠



بجعات كانت تُستخدم كطلسم يوضع علي خيام و مساكن خيام الخاقان الأتراك وكذا علي خيام و مساكن علية القوم .



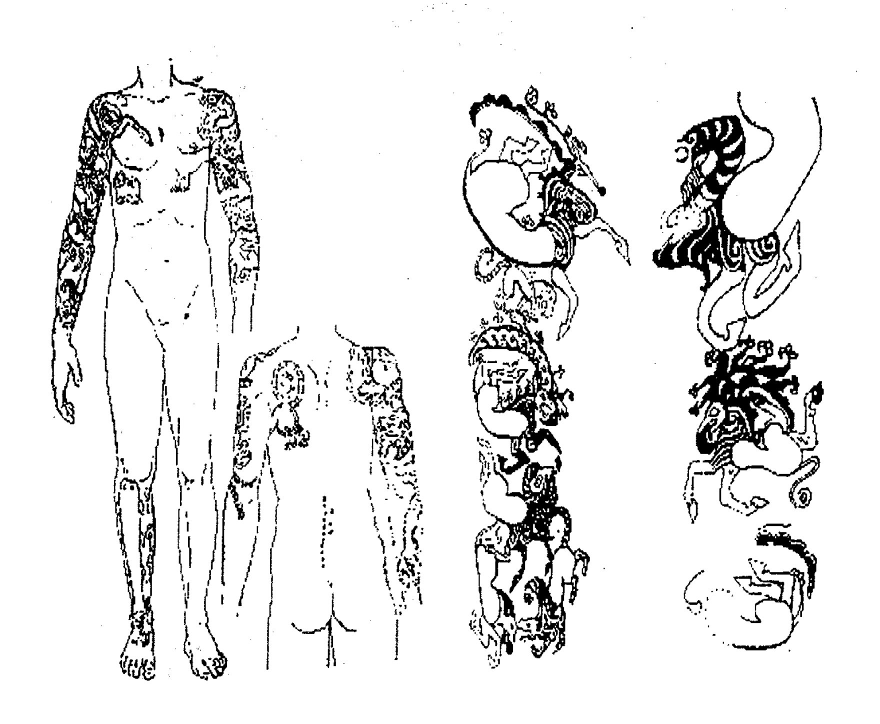
قفطان مستخرج من حفريات الهون ، وهو يعود إلي الخاقانات و نجباء القوم ، و يبدو من الأمام و الخلف وزخارفه الدقيقة



الوشم :

كما اتضح من الأجساد البشرية التي تم استخرجها من حفريات الهون أنهم كانوا يعرفون الوشم ويستخدمونه وانهم قد وشموا أجسادهم برسوم حيوانات خرافية وبشكل حركي واضح كما هو الحال في. وكان الوشم يتم بإبرة دقيقة ورفيعة على الجلد وتملأ هذه الفجوات وتطعم بمادة سوداء . و من المحتمل أن تكون هذه المادة السوداء هي من الهباب ..

خلال العصر الهوني ؛ كان الفتية و الشجعان و الأبطال يحرصون على الرسم على أذرعهم و أكتافهم وصدورهم .. و استمر هذا التقليد في زمن القازاق والقيرغيز .. و ظل تقليداً مرجحاً عند القراخانيين ٠



وشم على الاكتاف و الأذرع و على ظهر الفتيان من الهون و السگوك تورك

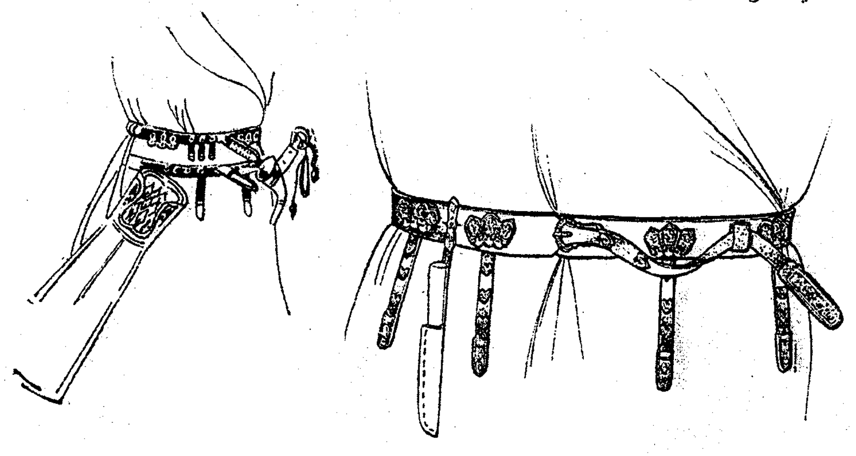
الأحزمة :

كان الفرسان الترك يتمنطقون بأحزمة من الجلد ، بها توكات من المعدن ويحمل بهـا سكاكينه ومعدات الذبح و القنص في كثير من الأحيان ٠

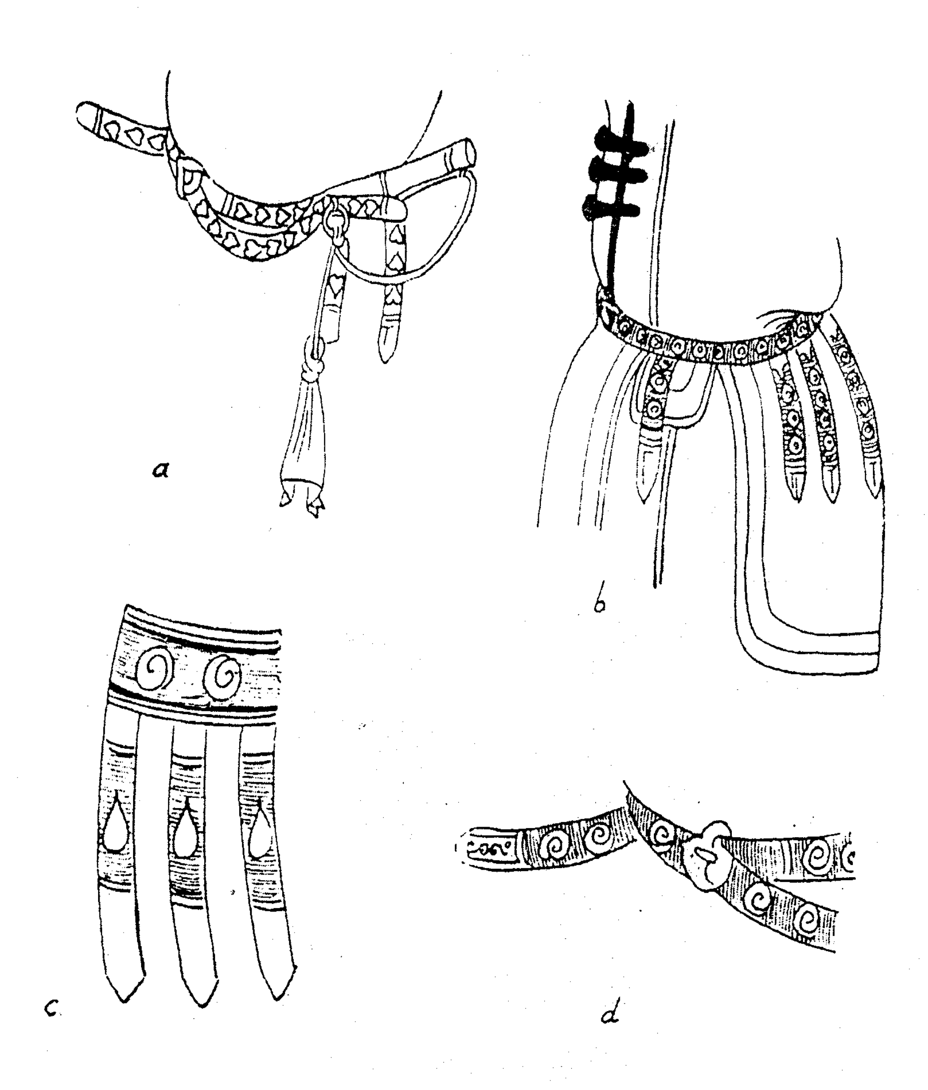
صور الأحزمة :



توك من المعدن .. وتبدو عليها زخارف مستوحه من البيئة و ألتقها الفنان التركي القديم نمط المعيشة و ثقافتها لدى الترك القدماء :



أحزمة من الجلد تتدلى منها محافظ من الجلد أيضاً ليضع فيها الفارس أو الراعي معداته وتظهر على الجلد الزخارف و النقوش المعتادة لدى الترك منذ القدم ٠

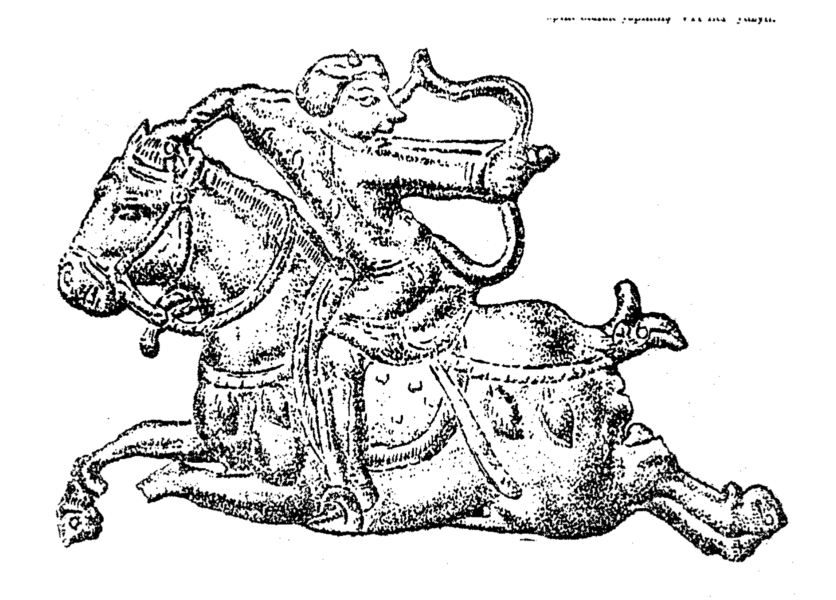


أشكال عديدة من الاحزمـــــة

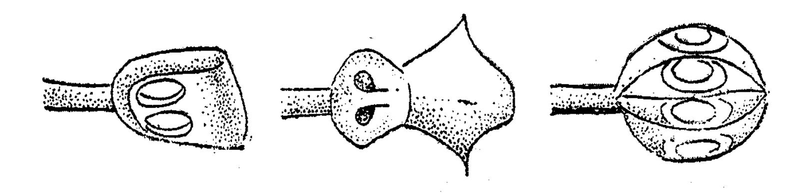
السهام :

كان فرسان الترك مهرة في استخدام السهام و التي كانت تُطلق صغيراً عند إلقائها . و كان يمكنه أن يطلق سهمه و هو متجه إلى الخلف و في الصور التالية نرى :

١- في الشكل المقابل فارساً قيرغيزياً يُطلق سهمه وهو متجه إلى الخلف . ونشاهد دقة التفاصيل الزخرفية٠



٢- في الشكل التالي رؤوس سهام تُطلق صغيراً عند إطلاقها وقد استخدمها الترك منذ زمن الهون ٠



نمط المعيشة لدى الترك القدماء :

إن هذه المنطقة الشاسعة التي أُطلق عليها أواسط آسيا تشمل بين جنباتها سلاسل جبلية مختلفة الارتفاعات ، و صحاري مترامية الأطراف ، و مناطق مغطاة بالجليد و الثلوج ، و مراعي و مستنقعات ، و بحيرات و أنهار . محصورة فيما بين خطوط العرض ٣٥-٥٥ ، و لما كانت معظمها مسكونة بالأقوام التركية ، فيُطلق عليها أيضاً " التركستان " أي بلاد الترك . و أطلق الفرس القدماء عليها منطقة " طوران " و هي من الناحية السياسية الحديثة و المعاصرة كانت مقسمة إلى تركستان الغربية - و قد كانت خاضعة للنفوذ السوفيتي السابق - أما تركستان الشرقية فهي منطقة أراضي شاسعة قد احتلتها الصين ٠

إن الحدود الجغرافية لأواسط آسيا مخيفة ، فالبراري المتناهية و سلاسل الجبال التي تناطح السحاب ، و الطبيعة الوعرة و المخيفة هي المسيطرة . إن حياة الإنسان والحيوان في هذه المناطق يمكن تشبيهها بحبات الرمال التي تذروها الرياح العاتية .. ولما كانت بعيدة عن البحار فإقليمها في منتهى الجفاف . إن السمة الغالبة على أراضي أواسط آسيا هي قسوة المناخ ، و صعوبة الظروف الجغرافية . إن هذه المنطقة مما لا شك فيه قد شهدت العديد من أقدم حضارات العالم القديم و قد نجحت هذه المنطقة في كثير من الأحيان أن توازن بين حياة التنقل و الترحال المتنقلة ، فإن الأثريين يعلنون في كل يوم - بدورهم - عن اكتشاف أطلال مدن جديدة بثقافاتها المتنوعة . و تحت وطأة القسوة اللامتناهية للطبيعة ، أو قسوة الحروب التي كانت تسوى هذه المدن بالأرض ضاعت هذه الثقافات و اندثرت . في ظلال هذه الظروف القاسية لا يمكن القول بتطور حضارة مستقرة و متصلة . يُضاف إلى ذلك فقر الحياة في هذه المجتمعات المغلقة . فبينما قسم من السكان قابع خلف الجدران السميكة للمدينة فكان القسم الأكبر منهم يعيشون حياة غير مستقرة و في شكل موزع بين البراري اللانهائية ، يرتحلون حيناً و يستقرون حيناً. مهتمين بتربية ورعاية قطعانهم من الخيول و العجول

و الخراف . لم تكن حياتهم و نمط معيشتهم تختلف كثيراً عن نمط معيشة أجدادهم من حيث قسوة ظروف الحياة .. القلاقل المستمرة الظهور الغارات والهجمات الحربية تبدو إلى الملأ من حين لآخر .

و فجأة تغيرت مجريات الأنهار و تدفقاتها ، و طالت سنوات الجفاف التي لم تسقط فيها أمطار قط . هذه العوامل و الظروف جعلت حياة الإنسان و القطعان غير ممكنة ، و بينما حرارة الصيف تُقدد كل شيء ، فقد كانت الحرارة في الشتاء تنخفض إلى ما دون الصفر بكثير . و لم تكن هناك بيئة صالحة للمعيشة سوى على ضفاف الأنهار و في الواحات و كانت هذه موائمة لثقافة المدن التي ظهرت فيها . إن هذا الوضع الجغرافي الذي جرَّد هذه المنطقة من البحار الدنيوية ، و هذا الجفاف الفظيع والمناخ القاري قد ولَّد في أواسط آسيا ظروفاً اقتصادية قاسية ، و صعوبة في المعيشة لا تُطاق و هذا بدوره قد انعكس على تاريخ المنطقة . إننا ندرك أن طبقة محدودة عددياً هي التي استطاعت أن تعيش في الوادي و ضفاف الأنهار .. و كان لهؤلاء أيضاً إمكاناتهم الزراعية المحدودة . و تجرى التجارة في المدن على نطاق ضيق في بعض المدن . لم يكن هناك بين المجتمعات أو التجمعات التركية مفهوم عام تجاه الحياة . فالقسم الأعظم من الأهالي يقضون حياتهم في السير ورعاية القطعان . اقتصادياتهم معتمدة على بقع العشب التي تظهر أحياناً و تختفي أحياناً أخرى ، فيضطر القوم إلى الترحال لإنقاذ قطعانهم من الجمال و الخيول و الأغنام من النفوق بسبب الجوع و العطش ، فيتجهون نحو المراعي التي تظهر في أحضان الجبال التي يزيد ارتفاعها أحياناً عن ثلاثة آلاف متر و تبعد عن الأهل و العائلة و الموطن المئات من الكيلومترات ، و هذا – مما لا شك فيه – كان يخلق نوعاً من الترحال و البعد عن الموطن لعدة شهور ، و يولد في نفس الوقت الترحل المستمر ، كانوا يبحثون لأنفسهم عن وديان أخف وطأة من برد وصقيع الشتاء . وقد استمر هذا المنوال لمئات السنين في أعماق آسيا ، و قد وفرت لهم القطعان و تربيتها و تنميتها وضعاً اقتصادياً نشطاً

ي بعض الفترات . إن كل المجتمعات المرتحلة تعتمد على أنفسها في تأمين مأكلها مشربها و مسكنها و وسائل تنقلاتها .و في نفس الوقت كانوا يتبادلون بالمقايضة من جيرانهم الأشياء الأخرى التي تلزمهم كالحبوب و البهارات و الأرز و الشاي.. إلخ وقد أمنت هذه المقايضة لكل عائلة شيئاً من الحرية و الاستقلالية الاقتصادية بعد وصولهم إلى شيء من الاكتفاء ٠

شخصية الرعاة الرحَّل :

إن الشخصية الرعوية تمتلك بعض السمات و الصفات التي تجعلها مختلفة إلى حد ما عن الشخصيه الفلاحية المستقرة . يتأتى على رأس قائمة هذه السمات : تربية الحيوانات و استئناسها ، و هذا مما لا شك فيه أصعب من الزرع و الحصاد ، ويتطلب جهداً و نشاطاً و حيوية و يقظة و تجربة . إن الأمر لا ينتهي عند الاستئناس ، بل يتطلب قدرة من التحمل و القوة التي تساعد دائماً على البحث عن المراعي لهذه الحيوانات و السعي وراء المناطق الخضراء و الماء ، و في مقابل ذلك يتم الحصول على الألبان و اللحوم و الدهون الحيوانية و الجلود و الأصواف والوبر. هذه الحياة المعقدة الصعبة ، و نمط الحياة القاسي تزيد من المهارة العسكرية و الفروسية إلى جانب مهارة الرعي ، وَ تكسب الرعاة قوة التطور الأخلاقي و العضلي و الرؤية المستقبلية و القدرة على تحمل المسئولية و الدهاء و المكر و خديعة العدو ٠

كما أن اليقظة وتوقع الهجوم من العدو سواء أكان حيواناً مفترساً أو جاراً مغيراً من السمات البارزة في الشخصية الرعوية . إنه كان يتوقع الغدر من الجوارح و السباع و الفهود و الذئاب جنباً إلى جنب مع هجوم الباحثين الآخرين عن الخضرة و منابع المياه .. وربما يكون هذا الهجوم من أقرب الجيران أو الفخوذ و البطون في نفس القبيلة ٠

ثقافة الخيل و فنونها :

إن هذه البراري الممتدة في أعماق آسيا قد حافظت على ثقافة الخيل أي الفروسية و تقاليدها طوال مئات السنين .و لكي يتم الوقوف الكامل على السمات العامة

لثقافة الخيل هذه أو الفروسية التركية ، فلابد من توفر المقدرة على الاطلاع على المصادر الصينية المتوفرة عن كل الأقوام التركية مثل الـگوك تورك و الآوار والصاقا ، و ما كتبه الرَّحالة الذين سبقت الإشارة إليهم . و ما يمكن أن يُسهلّ على الباحث في العلوم الاجتماعية عملية الوقوف على السمات العامة لثقافة الخيل هذه ، ما يمكن أن يجده في خيامها ونوعية تلك الخيام ومكوّناتها و مفروشاتها ، ولو عرفنا مأكلهم و مشربهم و كيفية الرعي عندهم .. لو عرفنا كل ذلك أو شيئاً منه ، فمما لا شك فيه أنه سيلقى الضوء على فروسية الفترات الزمنية السابقة .

من الثابت علمياً أن الفروسية كانت منتشرة و معروفة في أعماق آسيا منذ الألف الأول قبل ميلاد السيد المسيح عليه السلام .. و لهذا، فإن هذه التجمعات الفروسية أي المعتمدة على تربية الخيل و استئناسها و ساستها و تنميتها لا بد أن تكون مستعدة للهجرة الآنية و الموسمية و مستعدة أيضاً للهجمات المباغتة ، و لا بد أن تكون لديهم القوة و القدرة على اختراق حدود الجيران لجمع الخراج و الجزية المفروضة .. لابد أن يمتلكوا القدرة الفائقة على سرعة تغيير المكان ، وأن يمتلكوا وسائل هذا التغيير . كما أن الخيول هي التي تمكّنهم من الصيد في الوديان الخضراء والغابات الكثيفة ... فلو لم يكن الحصان ، لما أمكنهم مصارعة الحيوانات المفترسة التي تعترضهم و المصاعب العديدة التي تقابلهم ، و لما أمكنهم امتلاك القدرة الصاعقة على اختراق صفوف الأعداء عند الحرب ... و لولا الحصان .. لما تمكن الهون والـگوك تورك و الآوار و الغزنويون و السلاچقة من تكوين إمبراطورياتهم الشاسعة .

إن الجواد منذ القدم قد خاض الحروب مع الإنسان جنباً إلى جنب ، و ارتبط قدره بقدر صاحبه . و من هذا المنطلق يسجل لنا التاريخ أن أقواماً تركية كانت تتسمى بأسماء خيولها ، و أنهم كانوا يطلقون أسماء بشرية على خيولهم لفرط هذه المحبة التي كانت تربطهم بخيولهم . بل هناك قبائل من الأقوام التركية نُسبت إلى خيولها مثل

(القره طاي) = المهر الأسود و (الصارى طاي) = المهر الأصفر و الـ " بوز طاي " = المهر الأغبر ، و هذه كلها من أهم بطون القاراقالباق Karakalak . وهناك فرع آخر من هذه الأقوام تسمت بـ " قونغرات Kongrat " و قونغرات = تعني الجواد البني .

إن مجتمع الهون كان مجتمعاً فروسياً . وربما يكونون هم أول من ركب الخيل بين الجنس التركي .. و الهوني إذا عرف كيفية ركوب الخيل فلا يعرف كيف ينزل عنها . إن المصادر الصينية تحكي عن الهون أنهم وهم صغار يتعلمون كيف يصوبون السهام إلى الفئران و الجرذان و هم فوق ظهور خرافهم ، ثم يوجهون سهامهم إلى الجوارح الطائرة .. و بعد أن يشبوا عن الطوق قليلاً يصوبون تلك السهام إلى الأرانب و الثعالب .. أما في سن الشباب .. فإن الهوني يمضي حياته في مرحلة الرعي والاستعداد الواعي للصراع و النضال في البراري . و هم في عنفوان الشباب ، يكون الشاب قد أصبح خيالاً ماهراً ، محارباً قوي الشكيمة ماهراً في استخدام سيفه ورمحه وقوسه و مزراقه .

إن المؤرخين الغربيين يتحدثون عن العلاقة بين الهوني بخاصة و التركي بعامة و حصانه بإعجاب وحيرة منقطعة النظير . فواحد من هؤلاء المؤرخين يكتب قائلاً : " .. عندما يكون الهون فوق صهوة جيادهم فيصعب الفصل بين الجسدين .. " .. بينما يقول آخر .. " .. إن الطفل الهوني و هو مازال يتعلم المشي و الوقوف على قدميه لابد من أن يكون إلى جانبه جوادٌ ملجمٌ في وضع الاستعداد دائماً .. ،،.. ومؤرخ ثالث يقول : " إن الهون يديرون تجارتهم و حياتهم اليومية و يأكلون ويشربون ، بل و حتى ينامون فوق ظهور جيادهم ، و يقضون حتى حوائجهم وهو فوق صهوة جيادهم .. والسفراء البيزنطيون يكتبون أنهم وهم في مباحثاتهم مع الهون لم يشأ الهون أن ينزلوا عن ظهور جيادهم و تمت المباحثات و هم فوق ظهور الجياد . إن الهون و الأقوام التركية القديمة لم يختلفوا عن الأقوام التركية المعاصرة مثل القيرغيز و القازاق

والتركمان و الآلتاي و القالموق فهؤلاء مازالوا حتى اليوم يقومون بأعمالهم من فـوق ظهور خيولهم . و مازال هؤلاء شأنهم شأن الأقوام القديمة يشربون القيميز وهم فـوق جيادهم كأجدادهم ، بل إن الرحّالة المعاصرون يكتبون أنهم رأوهم يأكلون و يشربون و ينامون فوق ظهور جيادهم ..

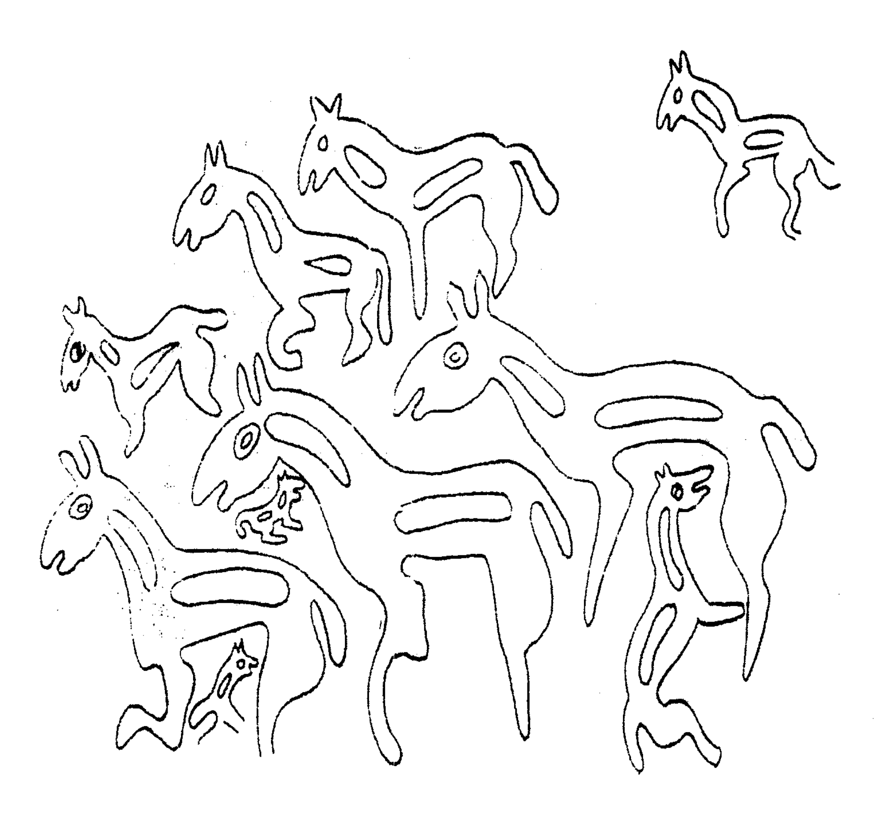
إن سبب هذا الاستطراد هو أن الفن مرآةٌ تعكس الحيـاة الماديـة و المعنويـة للجميع . وهذا ما دفعنا بالطبع إلى هذا السرد حتى نستطيع أن نفهم الخلفية التي تكمن وراء هذه الفنون . وربما يُمَكّننا ذلك من الفهم الواعي لحركية وديناميكية فنون الهون و غيرهم من الشعوب التركية .

إن الحفريات الأثرية التي تمت في هذه المناطق قد أمدت الباحثين بالعديد مـن فنون ومعدات الحيوانات المستأنسة ، و جاءت في مقدمتها الخيول . فالخيول المدفونـة مع أصحابها خرج معها العديد من أدواتها .. كالألجمة و الأسرجة و الأغطيـة التـي كانت توضع فوق ظهر الخيل تحت السرج و غير ذلك من المواد المتعلقـة بـالخيول والتي سوف نتعرف عليها من خلال صورها و التي ستلحق بنهاية هذا الموضوع .
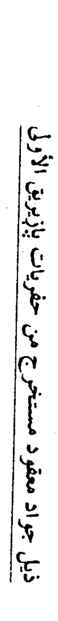
كما كانت هناك أسباب أخرى غير الركوب وراء تربية الخيول و تنميتهـا ألا وهي لحومها التي يأكلونها ، و ألبانها التي يصنعون منها شراب القيميز ، و جلودهـا التي يصنعون منها ملابسَ لهم . فمن جلود الخيل كـانوا يـصنعون الأوشـحة التـي يضعونها على أكتافهم و الأحزمة التي يتمنطقون بها .. هذا إلى جانب أن جلودها كانت هي الأنسب في الاستخدام في أطقم عدة عربة الخيول . إن الأتـراك القـدماء الـذين يقومون بكل صراعاتهم اليومية و هم فوق ظهور خيولهم و تحـت ظـلال " گـوك طانري " = إله السماء قد ارتبطوا بخيولهم و معداتها لدرجة أنهم كانوا يوصون بدفنها مع جيادهم معهم في مقابرهم . و المعدات التي نراها فـي الـصور هـي جميعهـا مستخرجة من المقابر التي كانت مدفونة فيها مع أصحابها .ومن بين هذه الأطقم ما هو

مصنوع من الأخشاب أو من العظم كما وجدت أسرجة متنوعة و أشياء أخرى مختلفة متعلقة بالخيل. و زخارف أطقم عُدَّة عربات الخيول :

من بين المستخرجات التي اكتشفت في الحفريات أطقم عدة عربات مزخرفة بنقوش خشبية بارزة ، و هياكل (أويمه) = محفورة من الشجر . و دلايات ديكوريمة .. و كانت هذه كلها قد تم صنعها بتقنية " القطع المائل " و هي التقنية المستخدمة في زخرفة السطوح المستوية سواء أكانت في الخشب أو المعدن . و هذه التقنية التي استخدمها الهون أولاً و من بعدهم شعوب آسيا ظلت شائعة فيما بينهم حتى بعد دخولها الإسلام .



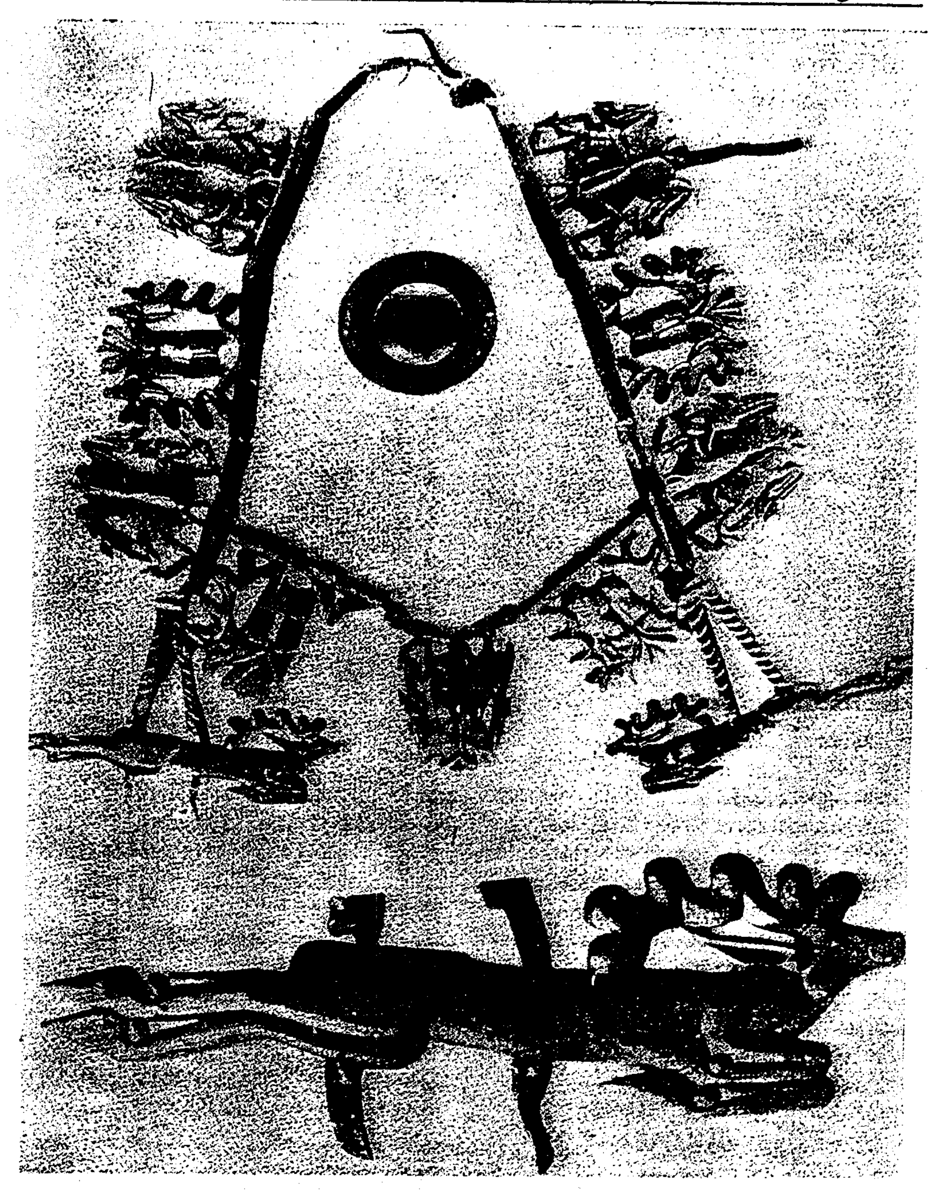
رسوم لخيول خطت على الصخور في الآلتاي



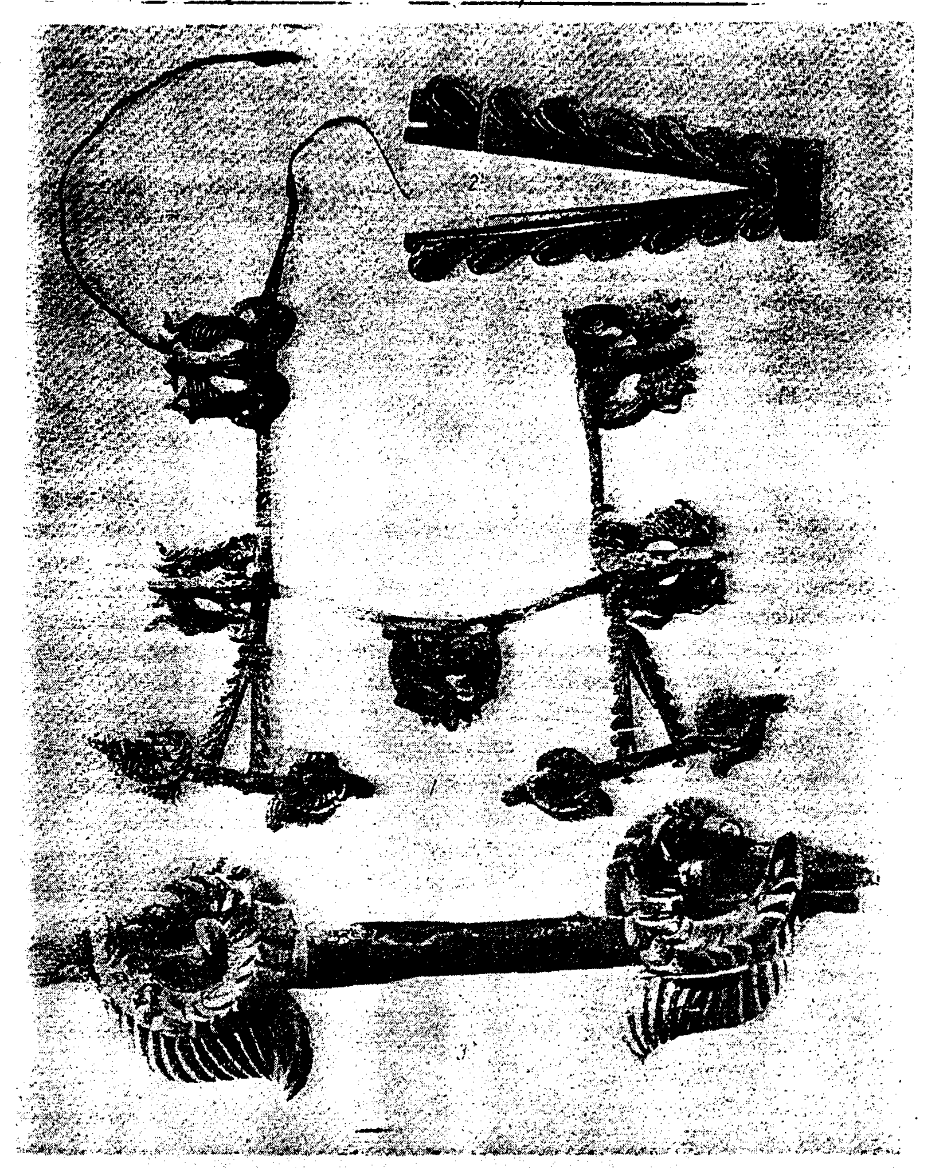




وجوه هونية تحمل السمات العامة للهون ؛ العيون غائرة ، و الحواجب رقيقة ، أنف أفطس ..
خدود ممتلئة و دائرية



طقم عدة عربة حصان من الخشب مستخرجة من حفريات بازيريق الأولى تبدو الزخارف واضحة



عدة حصان عربة مصوعة من الخشب . مستخرجة من حفريات بازيريق الأولى في آلتاي .

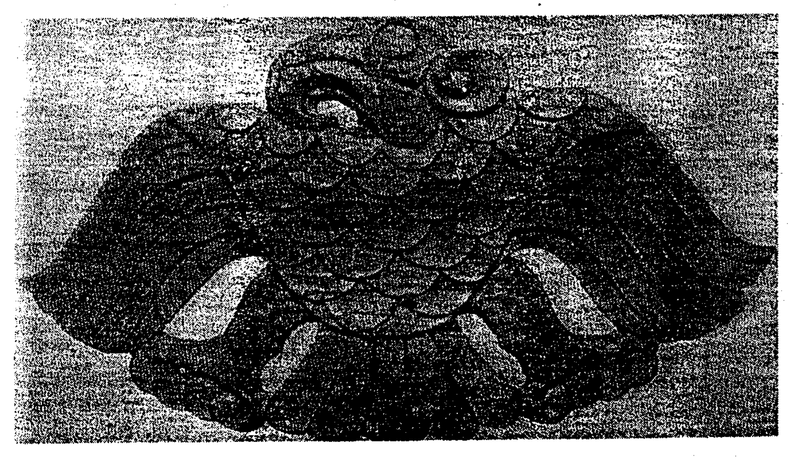
و الزخارف مستوحاه من حيوانات البيئة ٠



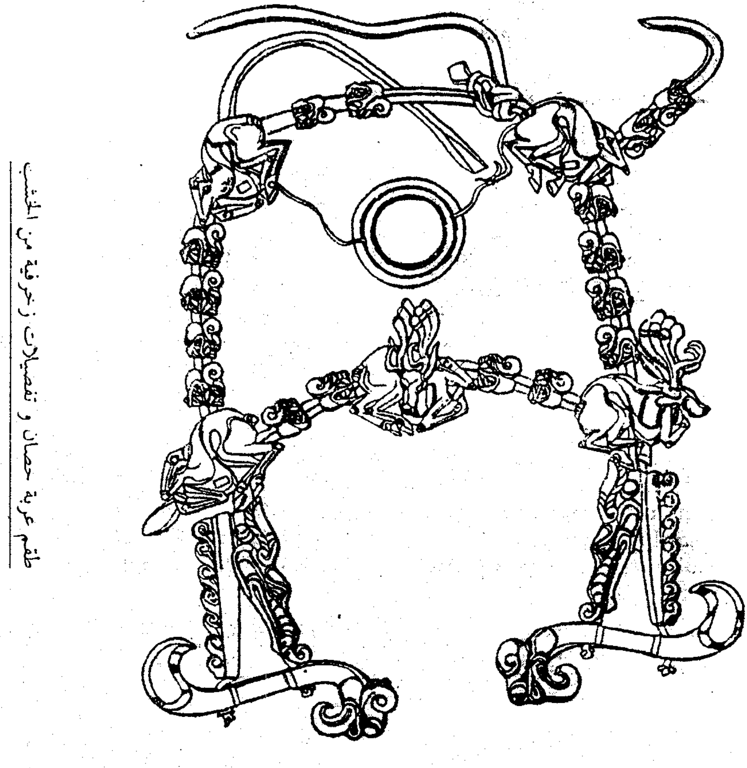
زخرفة عبارة عن رأس غرفين نشاهد رأس غزال في فمه و تم صنعه بأسلوب الحفر و تقنية القطع المائل ، في الخشب و على عنقة نشاهد هياكل طائر البط تم زخرفته بنفس التقنية . تم اكتشافه في حفرية بازيريق الثانية في الآلتاي



رأس ذئب ذو قرون مصنوع من الخشب و الجلد أعد كطلسم يوضع فوق الخيام



طائر العقاب مصنوع بالحفر في الخشب .
و مستخرج من حفريات باشادار الثانية



طقم عربة حصان و تفصيلات زخرفية من الخشب





الخاتمة

ظهرت الأقوام التركية في أواسط آسيا ، و انتشرت منها إلى المناطق المجاورة ، وامتدت حتى وصلوا إلى شرق أوربا ، بل وصلت بعض الأقوام إلى أواسطها .. وظلت حضارة هذه الأقوام شبه مجهولة إلا من النذر اليسير الذي وصل إلى أيدي الباحثين من كتابات الرحّالة والجغرافيين والمؤرخين العرب و المسلمين الذين جابوا هذه المناطق و عدد قليل من السفراء و الرحّالة الأوربيين الذين كانوا يتوجهون إلى هذه المناطق . و لا يستطيع باحث أن ينكر على المصادر الصينية دورها .. و لكن لصعوبة اللغة الصينية و عدم انتشارها في العالم الحديث إلى عهد قريب جعل الاستفادة من مصادرها أمر غير يسير .

لكن بعد أن ظهرت المكتشفات الأثرية من الحفريات التي تمت في پازيريق " pazırık " و شيبَه " Şibe " و تُواكْته " Tüekta " بَرَل " Berel " و قطانْدَه " Katanda " و نُوينْ – ولا Noin – ula بدأنا نتعرف على حضارة الهون و حضارات الأقوام التركية الأخرى و مستوياتها و صراعاتهم مع بعضهم البعض من ناحية و مع الأقوام والحضارات المجاورة من ناحية أخرى . تعرفنا على ملبوساتهم و أسلحتهم وعاداتهم وأعرافهم . و وقفنا على المواد و الأدوات والمعدات التي كانوا يستخدمونها في مراسمهم واحتفالاتهم الدينية و حياتهم اليومية .. دخلنا معهم إلى أكواخهم وخيامهم ومنازلهم بل وقصورهم . تعرفنا على خيولهم وأفراسهم و جيادهم بمعداتها وأطقمها و الأدوات التي كانوا يستخدمونها – عند ركوبهم هذه الخيول و عند استقرارهم في خيامهم أو تنقلهم خلف قُطْعَانهم أمدتنا هذه الحفريات و ما استخرج منها بالعديد من المواد والخامات التي تعرفنا على الأبجديات و الخطوط و الرسوم و الزخارف و الألوان التي

استخدمتها هذه الأقوام ٠٠ وصل إلى أيدي الباحثين العديد من الهُوَيْكلات والتماثيل الصغيرة التي أمدتنا بالمعلومات الوافية عن حيواناتهم و شخوصهم ومعبوداتهم بل و محاولاتهم البدائية و الأولية لفنونهم كما أمدتنا هذه المستخرجات الأثرية بالتقنيات الفنية التي استخدمت في وصُنع و نَقْش وزَخْرفة هذه المعدات التي كانوا يستخدمونها في حياتهم اليومية .

إن هذه الأدوات و المعدات و المميأوات التي تم استخراجها أمدت الباحثين بما مكنهم من التعرف على الاتجاهات الفنية لفناني الرحّل في أعماق الاستبس وسيبريا ٠٠ جنباً إلى جنب مع الاتجاهات الفنية لفناني الحضر ومناطق الاستقرار والتوطن ٠٠ أمدتنا هذه الحفريات بلَوْحات جدارية و موزاييق إلى جانب الفخار والنقوش الحجرية ٠ إن الفنان الهوني المرتحل لم يهمل المعدات و الأدوات التي كان يحملها معه في ترحاله و تنقلاته ٠٠ بل أتقن صُنعها ٠٠ زخرفتها ٠٠ حفرها نقشها ٠٠ زخرف الفخار ٠٠ نقش الأحجار ٠٠ حفر الخشب ٠٠ طوَّع المعادن كالحديد و النحاس و البرونز و الفضة بل و الذهب استفاد من البيئة التي يعيش فيها ؛ فصنع منها معداته و أدواته ٠٠ و أسلحته كالسيوف و الرماح و الأقواس والزرد ٠٠ استلهم من البيئة عناصره الزخرفية و جعلها عناصره الزخرفية التي استخدمها ٠٠ جعل صراعه مع الحيوانات المفترسة والطيور الجارحة موضوعات شيقة لزخارفه ٠٠ بل استخدم صراعات الحيوانات و التهام القوي للضعيف كعناصر ووحدات زخرفية مبهرة ، زخرف بها منسوجاته ، و أكلمته و سجاده ، و أدواته المعدنية و أسرجة خيوله و ألجمتها و أطقم عرباته التي تجرها أحصنته و ثيرانه وأبقارة ، وشى بها شيلانه و وشم بها صدره و ظهره و أذرعته و أكتافه ٠٠ جعلها نقوش بارزه و غائرة على توكات أحزمته ٠٠ و حفرها على الجلد الذي صنع منه القرب و المشارب و ألجمة الخيل و أربطة السرج و الخيمة و جراب السهام و غمد السيف ٠٠ لم يتركها قاتمة قاحلة ، بل نمقها بالألوان التي استخرجها من البيئة التي حوله ٠٠ أستخرج الألوان من الأتربة و الرمال والصخور و الزرع الذي يرعاه .

أستأنس الحيوان ؛ فركبه ٠٠ سيره ٠٠ حارب به ٠٠ سافر به ٠٠ حمله أثقاله وأمتعته ٠٠ أكل لحومه وقديده ٠٠ وشرب لبنه ٠٠ و صنع من ألبان أفراسه القميز الذي يحتسيه ٠٠ قدمه قرابين للآله التي يعتقد في قدرتها ٠٠ قدمها لآله السماء ، و الأرض و الماء و الجبال والمغارات ٠٠ صنع من أصوافها أفخر أنواع السجاد و المنسوجات و من وبرها اللباد والخيام ٠ و من جلودها و فرائها الأغطية و المعاطف التي تقيه برودة الجو و لفح السقيع ٠٠ جعل عظامها أبواقاً ينفخ فيها و طلاسم يعلقها على مسكنه لدرأ الحسد ٠

لم يعرف الرحل الذين يطاردهم الجفاف و السقيع و الجليد ،و الرياح وموجات الأعداء والاستقرار و التوطن ٠٠ بل رحلوا حيث الماء و العشب و النماء و الأمل ٠٠ حملوا معهم معداتهم الخفيفة و معتقداتهم التي تنبع نمط حياتهم ٠٠ فلم يعرفوا المعابد الدائمة و لا الأديرة أو الكنائس بل عرفوا الألهه في السماء إله الخير يحميهم ٠٠ عرفوا إله الشر يطاردهم متمثلاً في ظواهر الطبيعة متقمصاً الحيوانات المفترسة و الطيور الجارحة و المخلوقات الخرافية التي نتجت عن معاشرة الإنسان للحيوان أو الحيوانات بالجن ٠ عرف إله الجبال و المغارات و قدم لها الأضاحي والقرابين و توسل إليها بالقام و الشامان و الساحرة و اتقى شرها بالطلاسم والأحجبة والأدعية٠

لم يفكر المجتمع التركي في الاستقرار ؛ لذلك لم يفكر في المسكن أو المأوى الدائم بل حمل خيامه على ظهور خيوله و جماله ، بل وجرها و هي منصوبة فوق عربات الأحصنة وجرتها الثيران و الأبقار مع الأحصنة جنباً إلى جنب ليسهل عليه المبيت و الإقامة المؤقتة حيث ينابيع المياه التي تسقي قطعانه ، و المراعي الخضر التي تقتات منها تلك ٠٠ و حضن الجبل أو الوادي الخفيض الذي يحميه من هجمات الأعداء و الذئاب ٠ لقد اعتاد على الحركة الدائمة واتوقع الخطر من الطبيعة من الحيوانات المفترسة و هجمات الرحل الآخرين الذين يزاحمنوهم على المرعى ويناصبونهم العداء رغبة في الماء أو التوسع ، كل ذلك جعل الشخصية الرعوية شخصية متحفزة ماكرة ٠٠ حادة البصر يدها على الزناد لا تفارقه تطارد

القوارض و الزواحف و العقبان و هي على صهوة جياده.. تصد غارات العدو بالكر و الفر والمباغته . إن ثقافة الخيل أو لنقل التنقل والترحال و الهجرة تتطلب أن تكون المعدات صغيرة خفيفة دقيقة في أحجام و أطوال يمكن حملها تمكنه من أن يقيم خيمته تحت الظل الإلهي أينما شاء و في أسرع وقت ممكن خيمته هي مسكنه ومخزنه لذلك زخرفها .. زينها .. نقشها .. جعلها منتظمة منظمة تتسع للمبيت و المسامرة بل و إقامة الشعائر لكل من سكان الخيمة مقامه و مكانه المكان لا يتغير إلا بأمر من ربُ الأسرة أو شيخ العشيرة .. تكبر الخيمة مع كبر الفخذ أو العشيرة أو القبيلة فيستقبل فيها الخاقانات و السفراء و أمراء العشائر ورؤساء القبائل الأخرى من الثابت انه عند التعريف بالحضارات القديمة يتم الاعتماد على مخلفات تلك الحضارات و أطلالها المتمثلة في الأحجار و الفخار و المعادن و قله نادرة من العظام .. فهذه الخامات هي التي تمد الباحثين بالمعلومات التي يعتمدون عليها في التعريف بالحضارات القديمة ، و تقديم فنونها إلى المتلقي المعاصر . إذا كان الأمر كذلك بالنسبة للحضارات القديمة الأخرى و بالنسبة لحضارة الهون والأقوام التركية القديمة التي ألقينا عليها الضوء فالأمر جد مختلف ؛ فإلى جانب الحجارة و الفخار فقد وصلت إلينا ممياوات وأجساد بشرية و حيوانية مدفونة .. كما وصلت إلينا مستخرجات سليمة و كاملة من حفريات پازيريق و نوين أولا والمناطق الأخرى في قيرغيزستان و القازاق .. وصلت إلينا أجساد لعظماء من الهون الذين تم دفنهم على قمم الجبال مع خيولهم و محظياتهم وصلت إلينا قطعة من السجاد و أطقم الخيل والأكلمة و اللباد و مشغولات مختلفة من خشب الأشجار .

و لما دار الزمان دورته .. و عرفت الأقوام التركية التوطن و الاستقرار في الوديان ودلتا الأنهار ؛ تركوا لنا أطلالاً فيها هياكل و تماثيل و مسلات و أنصبه تحمل رسوماً و حروفاً و أبجديات و مدافن أخرى خرجت فيها كتابات تحكي لنا عن الملاحم و السير و الأساطير القديمة .

قدمت لنا السير و الملاحم تصوراً يكاد يكون متكاملاً عن اللغة التركية القديمة سواكنها وصوتياتها .. طريقة رص مفرداتها .. و اسطرها التي كونت

الجمل التي تحكي السيرة أو الأبيات التي تتغنى بالملاحم . وعرفنا منها اللغة والأدب الشفاهي و بعض من الأدب المكتوب .. عرفنا منها الدين و مكننا ذلك من التعرف على المعتقد الديني .. و نمط الحياة .. والعلاقة بين الدين و الفن والحياة اليومية و فلسفة البطولة و الفروسية .. و النظرة الثاقبة *إلى* العالم .

المصادر و المراجع

أولاً : العربية :-

١ - إبراهيم أحمد شعلان ، الشعب المصري في أمثاله العامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٣٩١ هـ = ١٩٧٢ م .

٢ - أحمد أمين ، قاموس العادات و التقاليد و التعابير المصرية ط لجنة التأليف و الترجمة - القاهرة سنة ١٩٥٣ م .

٣ - أحمد رشدي صالح ، الأدب الشعبي ، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٦٤ م مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ - الأعمال الفكرية .

٤ - أ . د / الصفصافي أحمد المرسي - (١) علم اللغة التقابلي و تطبيقاته على اللغات الشرقية القاهرة - ٢٠٠١ م

- (٢) دراسات في الشعر التركي حتى بدايات القرن العشرين ، القاهرة ، ٢٠٠٢

- (٣) أوراق تركية حول الثقافة والحضارة الكتاب الأول ١ ، ٢

- (٤) أوراق تركيةحول الثقافة والحضارة الكتاب الثاني ١- القاهرة ٢٠٠٣ .

٥ - عبدالرحمن الأبنودي ، سيرة بني هلال ، مهرجان القراءة للجميع ، مكتبة الأسرة ٢٠٠٢ ، الأعمال الإبداعية . . الهيئة العامة للكتاب سنة ٢٠٠٢م .

٦ - فردريش فون دير لاين ، الحكاية الخرافية أ نشأتها . . مناهج دراستها . . فنيتها ترجمة د . نبيلة إبراهيم ، مراجعة د . / عز الدين إسماعيل ، مكتبة غريب .

٧ - فوزي العنتيل ، الفلكلور ما هو ؟ دراسات في التراث الشعبي ، دار المسيرة بيروت مكتبة مدبولي القاهرة - الطبعة الثانية - ١٤٠٧ هـ = ١٩٨٧ م .

٨ - و اكتشف عالماً جديداً - دفاتر أوزبكية - دار ادوغان ١٩٨٦ .

٩ - هنري دي كوليبوف دي بلوكويللى ، التركمان بين الماضي و الحاضر ، ترجمه عن التركية ، و علق عليه أ . د / عبدالعزيز محمد عوض الله - سلسلة الدراسات الدينية و التاريخية العدد ١٩ ، مركز الدراسات الشرقية جامعة القاهرة ١٤٢٢ هـ = ٢٠٠١ م .

ثانياً : المراجع التركية :-

1 - Abduladır Inan. Destanlarına Genel Bir bakış Türk Dili Araştırmaları Yıllıgı 1954 .
2 - Ahmed Caferoğlu Türk Kopuzu Ülkü M.say 45 Ankara 1936 .
3 - Faruk Sümer (prof . or) Türklerde Atçılık ve Binicilik Dünyası araşırmaları vakfı -1- 1983 .
4 - Fevziye Abdullah Tansel Ziya Gökalp Külliyatı -1- Ankara 1935 .
5 - Hüseyin Namik (orkun Attila ve Oğulları Ist . 1933 .
6 - İgnacz Kunuş Türk Halk Edebiyatı Tercüman 1001 temel Eser 127 İst 1978 .
7 - Kültür ve Türizm Bakanlığı Milli Folkor Araştırma Dairesi Yayınları Türk Folkloru Araştırmaları Sen Gubta Suresh Chandra (Çev Çigdam Yıldırm Bir Orta Asya Özbek Türk Destanı.. Alpamış Manşei Ve Versiyonları The Origin and Variants Of Alpamis, A Central Asian Uzbek Epic . Ankara 1983 .
8 - M. Fuad Brof . Türk Dili Ve Edebiyati Hakkında Araştırmalar Ist 1934 .
9 - M.Fuad Köbrülü, Brof. Türk Edebiyat Tarihi Istanbul 1928
10 - Muharrem Ergin, Dede, ... Korkut Kitabı Ankara 1958 .
11 - Nejat Diyarbekirli, Hun Sanatı, Milli Eğittim Bakanlığı Kültür yayınıarlı Devlet Kitapları Milli Eğittim basım – evi – Istanbul 1972 .
12 - Nihad SAMI Banarlı, Resimli, Türk Edebiyati Tarihi Zamanımıza Kadar,Devlet Kitabları, Istanbul 1971.
13 - Oktay Aslanapa, Türk Sanatıl 1-2 Devlet Kitapları, Milli Eğıttim Basımevi, İstanbal 1972 .
14 - Şerif Baykurt, Türkiye de Folklor, Birinci Basım, Ocak 1976 .
15 - Tarihte Türk Devleti,1-2 Ankara Ünı . Rektörlüğü Yayınları 98 Ankara 1987 .
16 - W. Banj ve R.Rahmeti, Oğuz Kagan Destani Istanbul 1936
17 - Zeki Velidi Toğan,(Brof) Umumi Türk Tarihine Giriş . Ist 1946

قائمة المحتويات